أعلام العرب

المختار الثقفي

مرآة العصر الأموي

تأليف

الدكتور علي حسني الخربوطلي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المختار بن أبى عبيد الثقفى أحد رجالات العرب المبرزين ، ومن أشهر الشخصيات التى عرفها التاريخ الاسلامى عامة ، وتاريخ صدر الاسلام خاصة . فقد لعب دورا كبيرا أثر فى الحوادث السياسية والحياة الدينية والاجتماعية ، فى الدولة العربية الاسلامية فى عصر بنى أمية . وأثر فيها أثرا ظاهرا لم ينقطع بانتهاء حياته سنة ٦٧ هـ ، بل ان سياسة المختار قد أثرت آثارا عميقة واضحة فى الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى وخاصة بلاد العراق وفارس وخراسان والحجاز ، فقد أحيا المختار فى نفوس الموالى [1] آمالا عريضة عملوا على احيائها طوال العصر الأموى واستطاعوا أن يدفعوا العباسيين الى العمل على اسقاط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، كما أثر فى تاريخ أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والتوابين ، تلك الأحزاب التى كان لها آثارها فى عصر بنى أمية .

وقد اعتاد المؤرخون العرب أن يقولوا ان دهاة العرب أربعة :

---

(١) الموالى : المسلمون من غير العرب .

معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العـــاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه . ولو أنصفوا لأضافوا لهؤلاء المختار بن أبى عبيد الثقفى . فتاريخه يثبت أنه كان على جانب كبير من الذكاء والدهاء الى جانب الشخصية القوية والعقل المدبر ، وهو لا يقل دهاء عن معـــاصريه الدهاة الأربعـــة . ولكن المؤرخين لم ينصفوه كمـــا أنصفوهم ، وقد يرجع السبب فى ذلك الى أنه لم يبايع له بالخلافة، بل اعتمد على نفسه وعلى دهائه وجهـــوده فيما وصـــل اليه من سلطة ونفوذ ، فقـــد استطاع أن يكون الرجـــل الأول فى بلاد العراق منذ وفاة يزيد بن معاوية الى أوائل خلافة عبد الملك بن مروان . ويعلل المؤرخ (فلهوزن) عدم انصاف المؤرخين العرب للمختار بأنه وقف الى جانب الموالى وعمل على تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية مما أغضب بعض العرب منه .

وتتمثل فى شخصية المختار جوانب عديدة ، فهو أحد أبنـــاء ثقيف ، تلك القبيلة العربية الكبيرة التى سادت فى الطـــائف فى العصر الجاهلى ، وكانت منزلتها فى الطائف على مثال مكانة قريش فى مكة . ثم برزت هذه القبيلة فى العصر الاسلامى ، فقد أخلصت دائما للاسلام ، وبرز من أبنائها رجال أبطال استطاعوا أن يحتلوا مكانة كبيرة فى التاريخ الاسلامى ، مثل المغيرة بن شـــعبة والى العراق المشهور ، والحجاج بن يوسف الثقفى سيف بنى مروان ، ومحمـــد بن القاسم الثقفى فاتح الهنـــد . ونضيف الى هؤلاء الثقفيين المختار بن أبى عبيد الثقفى .

والمختار سياسى محنك من الطراز الأول ، وقد استطاع أن

يدير دفة السياسة فى الحجاز والعراق ، كما وضع فى العراق أسس حكومة منظمة عادلة ، وبرز فى ميدان الحكم والادارة. كما كان قائدا حربيا عظيما أثبت كفاءته فى شتى الميادين الحربية ، بل برزت بطولته منذ صباه حين وقف الى جانب أبيه أبى عبيد ابن مسعود قائد الجيش العربى فى فتوح العراق فى خلافة عمر ابن الخطاب .

والمختار شيعى متحمس ينصر البيت العلوى وبنى هاشم ، فنراه يفتح باب داره أمام مسلم بن عقيل بن أبى طالب مبعوث الحسين بن على الى العراق ، فتصبح داره ملتقى الشيعة ثم نراه مناوئا للحكم الأموى بالعراق ، ثم نراه وزيرا لعبد الله بن الزبير الذى أعلن نفسه خليفة فى الحجاز . ثم يرحل المختار الى العراق فيصبح الرجل الأول ، ويعلن أنه وزير محمد بن على بن أبى طالب ، المعروف بابن الحنفية ، ويأخذ بثأر الحسين من قتلته .

ولعلنا على صواب اذ وصفنا المختار بأنه (مرآة العصر الأموى) لأن تاريخه فى الحقيقة هو تاريخ الأحزاب السياسية ، والفرق الدينية فى ذلك العصر ، فقد أثر فى تاريخ الحركة الزبيرية ، وكان عاملا من عوامل اخفاقها ، كما لعب دورا كبيرا فى ضياع بلاد العراق والحجاز من قبضة الدولة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية الى أن استردها عبد الملك بن مروان .

وتاريخ المختار يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ حزبى الشيعة والخوارج . فقد اصطدمت حركة المختار بحزب الخوارج ، كما

أثر المختار فى مصير حركة التوابين الشيعية بالعراق ، وكان وزيرا للعلويين بالعراق وممثلا لهم ، ونصير بنى هاشم بالحجاز .

وينتسب الى المختار فرقتان كبيرتان من فرق الشيعة هما الكيسانية والمختارية ، وقد تفرع عن الكيسانية فرقة الهاشمية التى لعبت دورا رئيسيا فى قيام الدولة العباسية . كما أن المختار هو الذى بث روح القوة والحياة فى حزب الموالى ، فقد رفع من شأنهم وأنصفهم ودافع عنهم وبث فيهم آمالا وطموحا ، وعمل على تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وحرص الموالى على هذه الحقوق طوال العصرين الأموى والعباسى .

ويرى المؤرخ (فلهوزن) أن المختار خليق بالمديح لكونه كان أسبق من غيره فى ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هى ، فقد كان العنصر العربى هو وحده يتمتع بالحقوق المدنية كاملة فى الدولة ، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلى ، لكان منقذ الدولة العربية .

ورغم هذه الأهمية الواضحة لتاريخ المختار ، فان هذا الرجل لم ينل حقه من مؤرخى التاريخ العربى الاسلامى ، فلا نرى كتابا قد تناول تاريخ هذا البطل العربى ، ولكن آن الأوان ليسترد ما يستحقه من دراسة وتقدير وانصاف ، فهو جدير بأن نضم تاريخه الى تواريخ غيره من أعلام العرب . والله ولىّ التوفيق .

المؤلف

الجيزة فى ديسمبر ١٩٦٢ .

المختار : قبيلته ، أسرته ، شخصيته ، صفاته

الطائف وقبيلة ثقيف فى الجاهلية ـ ثقيف بعد ظهور الاسلام ـ أسرة المختار ـ نشأة المختار ـ شخصية المختار بين رجالات ثقيف ـ بين المختار والمغيرة بن شعبة الثقفى ـ بين المختار وزياد بن أبيه ـ بين المختار والحجاج بن يوسف الثقفى ـ صفات المختار .

الفصل الأوّل

المختار : قبيلته ، أسرته ، شخصيته ، صفاته

الطائف وقبيلة ثقيف فى الجاهلية :

ينتسب المختار بن أبى عبيد بن مسعود الى قبيلة ثقيف ، وهى قبيلة عربية مجيدة ، سكنت الطائف قبل ظهور الاسلام منذ زمن بعيد ، وسادت الطائف ، وأصبحت مكانة ثقيف فى الطائف تماثل منزلة قريش فى مكة .

كانت مدينة الطائف قبل أن تصبح لثقيف السيادة فيها تسمى (وج) نسبة الى وجّ بن عبد الحى أحد العمالقة الذين سكنوها ، وكانت تقع على بعد اثنى عشر فرسخا شرقى مكة على منطقة مرتفعة من الأرض ، مما أدى الى اعتدال جوها ، وانتشار الحدائق الغناء والبساتين اليانعة الزاخرة بشتى أنواع الفاكهة ، حتى أنها وصفت بأنها « بقعة من الشام انتقلت الى الحجاز » ، وكانت هذه المدينة لطيب هوائها مصيفا للطبقة الأرستقراطية فى مكة ، وارتبطت الطائف بمكة ارتباطا وثيقا ، فكان أثرياء قريش بمكة يمتلكون العقارات بها ، ويقرضون أهل الطائف ما يحتاجون

من أموال ، كما كانت قريش تعتمد على ما تنتجه الطائف من كروم فى انتاج الزبيب الذى تضعه فى ماء زمزم لسقاية الحجاج [1] . واقترن اسم مكة والطائف فى العصر الجاهلى والعصر الاسلامى ، فجاء فى القرآن الكريم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [2] .

كانت ثقيف تقيم بالطائف ، ويروى المؤرخون فى سبب اطلاق اسم ثقيف على هذه القبيلة أن قسيا بن منبه بن بكر بن هوازن لما رحل من وادى القرى الى وجّ التى عرفت باسم الطائف ، قابل زعيمها عامر العدوانى ، وطلب منه أن يزوجه احدى بناته ، فزوجه اياها وأنجب منها أولادا ، ثم توفيت ، فتزوج أختها ، واستقر مقامه بهذا البلد وغرس بأرضه بعض العيدان التى أخذها من عجوز يهودية كان قد أقام عندها بوادى القرى . فلما أثمرت العيدان ، قال أهالى وج : قاتله الله كيف ثقف عامرا حتى بلغ منه ما بلغ ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء ، فسمى ثقيفا من يومئذ .

وكثر نسل ثقيف ، وأصبح أبناؤه وأحفاده يمثلون قبيلة عظيمة كثيرة العدد ، وأصبح لها السيادة فى الطائف ، ورأت ثقيف أن تبنى حول مدينتهم (وج) سورا يحصنها ، حتى اذا انتهى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) سورة الزخرف آية ٣١ .

بناء الشنوم الذى أصبح (يطوف) بالمدينـــة ، أصبح يطلق على المدينة اسم (الطائف) [1] .

ثقيف بعد ظهور الاسلام

ولما ظهر الاسلام ، ونزل الوحى على محمد صلى الله عليـــه وسلم بمكة ، بدأ يدعو عشيرته وقريشا وغيرها من القبائل العربية الى الاسلام ، وتعرض المسلمون الأوائل الى صنوف الاضطهاد والتعذيب من قريش التى أدركت أن انتشار الاسلام يقضى على سيادتها السياسية ونفوذها الدينى ، فقـــد كانت قريش حاميـــة الكعبة مركز الوثنية وأدى هذا الى علو شأنها بين العرب . حتى اذا اشتد عذاب قريش للمسلمين سمح لهم بالهجرة الى الحبشة فقد كان ملكها يشتهر بالعدل والتسامح .

لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين الى احدى المدن العربية بالحجاز ، كالطائف مثلا ، فقد كانت معظم القبائل العربية ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى . وغضبت قريش لهجرة المسلمين الى الحبشة ، فبعثت وفدا محملا بالهدايا الفاخرة ، يطلب من نجاشى الحبشـــة رد المهاجرين الى مكة . ولكن النجاشى كان بعيد النظر ، فطلب من المهاجرين أن يحدثوه عن حقيقة دينهم ، فشرحوا له تعاليم الاســـلام ، فبكى النجاشى وقال : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ١٢ ــ ١٤ .

واحدة ، انطلقا والله لا أسلمهم اليكما . ورجع وفد قريش يجر أذيال الخيبة [1] . وظل المهاجرون فى الحبشة حتى هاجر الرسول الى المدينة فعاد معظمهم .

كانت هجرة المسلمين الى الحبشة فرارا من أذى قريش ، كما كان اسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ضربتين أصابتا قريشا فى الصميم ، فرأى القرشيون أن يتخذوا أمرا حاسما فاتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم فى بيع أو شراء أو زواج ، ولا يجالسوهم ولا يكلموهم ، حتى يسلموا اليهم محمدا ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة . وظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين فى شعب من شعاب مكة ثلاث سنين ، لا يصلهم الا القوت الضرورى خفية ، حتى عطف بعض القرشيين عليهم فدعوا الى انتهاء المقاطعة .

كانت وفاة أبى طالب عم الرسول صدمة عنيفة له ، فلم يكن أكثر أقاربه عطفا ومودة فحسب ، بل كان يبسط عليه حمايته بما كان له من نفوذ عظيم فى مكة . حتى اذا مات أبو طالب ، لم يجد الرسول من يدفع عنه عداء أبى سفيان وأبى جهل ، اللذين ما لبثا أن أثارا عداء القرشيين له ، وشعر محمد أنه لم يعد يأمن على نفسه فى مكة ، فخرج مع مولاه زيد بن حارثة ليبحثا عن ملجأ فى الطائف .

دخل محمد الطائف ، فى ثقة واطمئنان ، معتمدا على ماكان

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٠ .

لعمه العباس بن عبد المطلب من نفوذ ، فقد كان يملك شيئا من العقار فى الطائف . ولكن الطائف خيبت ظنه ، فقد كانت من أكبر معاقل الوثنية ، وكان أهلها من ثقيف يتوجهون بعبادتهم الى (اللات) وهى وثن من الحجر مغطى بالحلى والأحجار الكريمة ، وكان أهل الطائف يتقدمون اليها بالنذور والقربان ، ويعتبرونها احدى بنات الله .

مكث محمد فى الطائف نحو شهر وحاول عبثا أن ينشر الاسلام بين أهلها ، فكان اذا وقف يدعوهم الى الاسلام يضيع صوته وسط ضجيجهم . وحدث مرة أن أصيب الرسول بجراح اثر قذفه بالحجارة ، وحاول زيد بن حارثة عبثا أن يحميه منها ، واشتد اضطهاد أهل الطائف له ، وما لبثوا أن أخرجوه من مدينتهم ، وتتبعه بعض الأرقاء والأطفال السفهاء يوجهون اليه الاهانات . وكان هذا الموقف الذى وقفته ثقيف من الرسول داعيا لأن ينصرف الرسول عن الطائف ويفكر فى الهجرة الى يثرب ، وكانت الطائف تفضل يثرب لقربها من مكة واتصالها الوثيق بها .

سار الاسلام يشق طريقه فى نجاح يوما بعد يوم ، فهاجر الرسول والمسلمون الى يثرب ، واستطاعوا أن ينتصروا فى عدة ميادين على قريش ، وما لبث الرسول أن دخل مكة وحطم أصنام الكعبة معلنا أن دولة الأصنام قد دالت ، وبدأت دولة الاسلام .

وبعد فتح مكة بخمسة عشر يوما ، علم الرسول بقدوم هوازن وثقيف لقتال المسلمين ، والتقى الجيش الاسلامى بهاتين القبيلتين وهزمهما فى موقعة حنين سنة ٨ هـ ، وانسحبت فلول القبيلتين الى

الطائف حيث اعتصمت بها ، فحاصرها الرسول خمسة عشر يوما ، وهدد أهلها باتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم ، وعز على ثقيف كرومها ولكنها أبت الاستسلام ، حتى اذا دنا شهر ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ، ، فك عنها الحصار ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم [1] .

ظنت ثقيف ، وقد رأت أن جيش المسلمين يتراجع عن الطائف دون أن يكرههم على التسليم ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وانتصرت على المسلمين ، وهم الذين دانت لهم الجزيرة العربية كلها ، فاعتزت ثقيف بهذا النصر وشمخت بأنفها على سائر القبائل . ولم تدر أن الرسول انما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها فى الطائف فى عزلة عن سائر العرب حولها ، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ، ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الاسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها [2] .

شعرت ثقيف بشدة وطأة هذا النوع من الحصار ، ورأت أن تعتنق الاسلام . فقدم وفد ثقيف على الرسول فى الشهر الذى عاد فيه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) وعرضوا عليه اسلامهم ، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة ، وأن يترك لهم معبودتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى الرسول الا أن يدخلوا

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧ ومابعدها .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٤٥ .

فى الاسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركهـا سنتين بدلا من ثلاث ، ثم سنة ثم شهرا ، فأبى أيضـا . غير أن الرسول أعفاهم من أن يهدموها بأيديهم (١) .

ورغم تأخر ثقيف فى اعتناق الاسلام وحرصها على وثنيتها ، فقد أصبحت هذه القبيلة بعد اسلامها من أشد القبائل العربيـة تحمسا للاسلام وبذلت جهودها فى سبيل نشره . فتمسكت ثقيف بالاسلام بعد وفاة الرسول رغم ارتداد عـدد كبير من القبـائل العربية ، فقد كان الاسلام مقصورا على أهـل مـكة والمدينـة والطائف وقبيلة عبد القيس . ولم يكن مقاومة ثقيف للاسلام زمن الدعوة الا لأنها خشيت على ما كان لهـا فى العصر الجاهلى من نفوذ سياسى ، وسيادة فى الطائف .

ظهر من قبيلة ثقيف أبطال كثيرون منهم أبو عبيد بن مسعود والد المختار ، وعروة بن مسعود عمه ، والمغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب الأربعة ووالى معاوية فى العراق ، والمختار بن أبى عبيد الثقفى رجلنا فى هذا البحث ، والحجاج بن يوسف الثقفى عضد الدولة الأموية فى عهد الخليفتين عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ، ومحمد بن القاسم الثقفى القـائد الحربى المشهور وفاتح الهند المعروف ، ويوسف بن عمر الثقفى والى العراق فى أواخر العصر الأموى ، وغيرهم .

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٠ .

أسرة المختار :

كان عروة بن مسعود — عم المختار — من السابقين من ثقيف الى الاسلام . فبعد عودة الرسول الى المدينة بعد حصار الطائف وفد عليه عروة بن مسعود وأعلن اعتناقه الاسلام ، وكان عروة من سادات ثقيف . وكان فى أثناء حصار الطائف فى اليمن يتعلم صناعة الدبابات والضبور التى عزمت ثقيف على أن تعدها لمهاجمة الرسول فى موقعة حنين . فلما علم عروة بانصراف الرسول عن الطائف وذهابه الى المدينة لحق به حتى قيل انه أدركه قبل أن يصل الى المدينة . فلما أسلم استأذن الرسول فى العودة الى الطائف ليدعو قومه الى الاسلام ، فخشى على الرسول عنت أهل الطائف وحذره أن يقتلوه ، فعزم على الذهاب معتمدا على شرف بيته فيهم ورفعة شأنه بينهم ، وقال للرسول : « أنا أحب اليهم من أبكارهم » .

فلما وصل عروة الى الطائف دعا قومه الى الاسلام ، حتى اذا كان الفجر صعد الى علية له (١) ، ودعا من فوقها الى الصلاة والايمان بالله ، فاجتمعوا عليه ورموه بالنبل ، فمات مغتبطا باستشهاده فى سبيل الله ، وطلب أن يدفن مع من استشهد من المسلمين فى حصار الطائف فدفن معهم . ولجأ ابنه مليح ومعه

(١) غرفة فى أعلى البيت .

قارب بن الأسود الى الرسول — وقد أسلما — « يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شىء أبدا »[1] .

أما أبو عبيد بن مسعود ، والد المختار ، فقد اعتنق الاسلام وأخلص له ، وأصبح من أبرز المجاهدين فى سبيل نشره ، فكان قائدا من قواد الجيوش الاسلامية التى توجهت لفتح العراق فى مطلع خلافة عمر بن الخطاب ، ومات فى ساحة القتال شهيدا من أجل رفعة شأن الاسلام .

وفى نفس الليلة التى توفى فيها أبو بكر وتولى الخلافة عمر ابن الخطاب ، افتتح عمر عهده بندب المسلمين للقتال مع المثنى ابن حارثة فى فارس ، وفى اليوم الرابع بدأ ينتدب المسلمين لفتح العراق فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود واختار عمر ألف رجل من أهل المدينة وضعهم تحت قيادة أبى عبيد . واعترض البعض على اختيار أبى عبيد لقيادة هذا الجيش وطلبوا من عمر أن يختار بدله أحد صحابة الرسول أو أحد كبار المهاجرين والأنصار ، فأبى عمر وقال لهم : « لا والله لا أفعل ، ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا » . وتوجه عمر الى أبى عبيد بالنصيحة فقال : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ،

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

والحرب لا يصلها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف » [1] .

أبدى أبو عبيد فى ميدان القتال شجاعة واستبسالا ، كما أبدى تسامحا وشهامة ، فيروى الطبرى [2] أن القائد الفارسى (جابان) قد وقع أسيرا فى يد أحد القواد العرب وهو مطر بن فضة فاستطاع جابان أن يخفى عن مطر أنه يتولى القيادة ، فظنه جنديا بسيطا ، فأمّنه على نفسه وأطلق سراحه ، ثم قبض المسلمون عليه مرة أخرى وأتوا به أبا عبيد وأخبروه بمركزه الممتاز بين جنده وأشاروا عليه بقتله ، فأبى أبو عبيد وقال : انى أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم ، المسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزمهم كله . فقالوا له : انه الملك . قال : وان كان لا أغدر . فتركه .

وفى خلال الحرب مع الفرس ، حاز المسلمون أنواعا فاخرة عديدة من الطعام ، لا تقارن بما كانوا يتناولونه من طعام بسيط فى الجزيرة العربية ، ولما نزل أبو عبيد احدى قرى فارس ، صنعوا له طعاما فاخرا ، ولكن أبا عبيد رفض تناول هذا الطعام الفاخر ، ولم يقبل على الأكل الا بعد أن أقنعوه أن جميع الجند يتناولون هذه الأنواع الفاخرة من الطعام ، فيروى الطبرى [3] : «..فصنع لأبى عبيد طعام فأتى به فلما رآه قال : ما أنا بالذى آكل

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٣١ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٣١ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٧ .

هذا دون المسلمين . فلمّا رجعوا اليه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم من الطعام » .

ومات أبو عبيد شهيدا أثناء قتاله الفرس على شاطىء الفرات، فقد أراد الفرس أن يحيلوا هزائمهم نصرا فيبثوا الرعب فى قلوب المسلمين ، فجعلوا الفيلة فى مقدمة جيوشهم ، فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت ، فقد غطى الفرس الفيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس . وتقدم أبو عبيد فى مقدمة المسلمين ، فهجم عليه فيل أبيض ، فوجه أبو عبيد اليه ضربة بسيفه تلقاها الفيل بقدمه ، وما لبث الفيل أن أوقع أبا عبيد أرضا وداسه بأقدامه . وتولى القيادة سبعة رجال من أبناء ثقيف على التوالى فكانوا يلقون حتفهم الواحد بعد الآخر ، وتقدم قائد ثقفى هو عبد الله بن مرثد الثقفى فاستطاع أن يقود المسلمين ويعبر بهم نهر الفرات فنجوا من الفيلة ، وقتل فى هذه المعركة أربعة آلاف بين قتيل فى المعركة وغريق فى نهر الفرات .

كان أول هؤلاء الثقفيين السبعة الذين خلفوا أبا عبيد فى القيادة ابنه جبر ، وكان أبو عبيد قد عهد اليه بالقيادة قبل المعركة اذا أدركته المنية ، وأوصى الجند المسلمين بطاعته . وكان هذا العهد نتيجة نبوءة تنبأت بها (دومة) زوجة أبى عبيد ، وأم جبر والمختار . فقد رأت فى منامها أن رجلا نزل من السماء معه اناء فيه شراب من الجنة ، فشرب منه أبو عبيد وابنه جبر وأناس من أهله .

نشأة المختار :

يحيط الغموض بطفولة المختار ، فقد أهمل المؤرخون دراسة حياة المختار فى مطلع حياته ، ولم يبدوا اهتماما الا بتاريخه بعد أن ظهر على مسرح الأحداث فى العراق ، مما يجعل مهمتنا عسيرة اذا أردنا أن نلقى الضوء على حياة المختار فى طفولته أو صباه .

ونستطيع أن نستنتج مما روته المصادر القديمة من أخبار المختار أنه ولد فى السنة الأولى من الهجرة ، فالمصادر تذكر أنه قتل فى سنة ٦٧ هـ وكان حينئذ فى السابعة والستين من عمره (١). وقد ولد فى مدينة الطائف حيث عاش أبوه أبو عبيد وآله من قبيلة ثقيف صاحبة السيادة فى الطائف . وأمّه (دومة) وهى امرأة عربية أثبتت بطولتها اذ صاحبت زوجها أبا عبيد خلال قيادته جيوش المسلمين فى العراق ، وشاركته جهاده فى سبيل الله والاسلام ، وشاهدت مصرع زوجها وابنها جبر . وكان المختار وقت أن استشهد أبوه وأخوه فى الثالثة عشرة من عمره ، وكان مصاحبا لوالديه وأخيه (٢) .

ويتحدث المؤرخون القدامى أن دلائل النجابة بدت على المختار فى حداثة سنه ، فهم يروون أن أباه جاء به الى على بن أبى طالب وهو صبى فأجلسه علىّ على فخذه ، ومسح على رأسه

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٥٧٧ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٤ .

قائلا : يا كيس يا كيس . ويعلق أحد المؤرخين الشيعيين [1] على ذلك بقوله : فكانت هذه الكلمة دليلا على ما يظهر على يد المختار من مظاهر السداد ، والأخذ بحق العلويين وطلب تراثهم ، وان هذه الكلمة . الصادرة من أمير المؤمنين عليه السلام من مخبآت المستقبل ، وانها ألمعت الى الحوادث التى يقوم بها ، وكان المختار يحسب لهذه البشارة حسابا ويحدث بها نفسه .

كان خروج المختار مع أبيه الى بلاد العراق لقتال الفرس أول عهد المختار بهذه البلاد ، وقد استمر هذا الاتصال طوال عهد الخلفاء الراشدين وزاد قوة فى عصر الدولة الأموية واستمر المختار يكافح حتى أصبح الرجل الأول فى العراق .

أصبح عم المختار ، وهو سعد بن مسعود ، واليا فى مدينة المدائن بفارس ، وعاش المختار فى كنف عمه . وحدث أن بايع العراق للحسن بن علىّ بعد مصرع أبيه علىّ بن أبى طالب ، بينما بايع أهل الشام معاوية بن أبى سفيان ، وبدأ الصراع بين الخليفتين ، وبدأ كل منهما يمد نفوذه الى سائر الأمصار الاسلامية ، ولكن كفة معاوية كانت راجحة ، وربما شعر المختار أن الأحداث تمضى لصالح معاوية وأنه سيفوز بالنصر على الحسن حتما ، فرأى أن يسبق الأحداث ، فنصح عمه بالتخلى عن الحسن وتسليمه لمعاوية ، ولكن سعدا أعرض عن رأى

(١) المقرم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٩٩ .

المختار [١] . ويذكر المؤرخ البلاذرى [٢] أن المختار كان فى رأى الشيعة فى عهد الحسن بن على (عثمانيا) ، وكانت هذه التسمية تطلق على كل من غضب لمقتل عثمان بن عفان واعتبر أنه قتل شهيدا مظلوما ، وأبدى سخطه على قتلته ، وأيد بنى أمية فى مطالبتهم بثأره وخاصة معاوية ، وعاب على علىّ بن أبى طالب أنه تلقى تأييد الثوار على عثمان ، وأهمل طلب ثأر عثمان .

ربما كان المختار (عثمانيا) كما وصفه البلاذرى ، لكن ذلك كان قبل قيام الدولة الأموية ، حتى اذا بدأ العصر الأموى وشهد المختار سياسة الولاة الأمويين بالعراق ، وشهد معاوية وقد صبغ دولته بصبغة دنيوية تشابه ما كانت عليه دولة الفرس ودولة الروم ، فقد أصبح معاوية فى نظر بعض المسلمين شبيها بكسرى فارس وقيصر الروم ، كما أنه جعل الخلافة وراثية فقد عهد لابنه يزيد بعده بالخلافة . ربما كانت هذه العوامل دافعة للمختار أن يتحول من (عثمانى) يعطف على الأمويين وقتيلهم عثمان ، الى العطف على العلويين أو الشيعة ، فنراه يروغ من زياد بن أبيه ، والى معاوية بالعراق ، حين طلب منه أن يوقع عريضة الشكوى ضد حجر بن عدى شيخ الشيعة بالعراق حتى يتخذ زياد من هذه العريضة ذريعة لاقدامه على قتل عدىّ [٣] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٨٨ .

وقد تزوجت أخت المختـار من شخصية كبيرة لها أهميتها فى تاريخ صدر الاسلام ، وهو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان المسلمون قد رشحوه ليتولى الخلافة بعد عمر ، لكن أباه رأى أن بنى الخطاب يكفيهم تولى واحد منهم الخلافة ، ولكن عمر جعل لابنه عبد الله دورا فى اختيار الخليفة من بين الصحابة الستة الذين حددهم عمر ليختار المسلمون من بينهم خليفته ، فجعله مستشارا لهم . واستفاد المختار من مصاهرة عبد الله بن عمر ، فقد شفع له مرتين لاطلاق سراحه من السجن ، فقـــد سجنه فى أول الأمر عبيد الله بن زياد والى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية بالعراق ، ثم ألقى به فى السجن ولاة عبد الله بن الزبير بالعـــراق . وكان اطلاق سراحه من السجن فى هاتين المرتين فرصـــة أتاحت له أن يلعب دوره بمهارة فى تاريخ العالم الاسلامى .

وتزوج المختار من زوجتين . أحداهما عمرة ابنة النعمان بن بشير الأنصارى ، والى الخليفة يزيد بن معاوية بالكوفة . وخلال ولاية النعمان حكم الكوفة ، قدم مسلم بن عقيل وقـد أوفده الحسين بن على ليأخذ له البيعة من الكوفيين . ونزل مسلم فى دار المختار التى أصبحت ملتقى شيعـــة علىّ ، وكانت مصـــاهرة المختار للنعمان دافعا للنعمان على أن يسكت عن مسلم والمختار ، مما أدى الى انتشار دعوة الشيعة فى الكوفة .

أما زوجة المختار الأخرى ، فهى أم ثابت بنت سمرة بن جندبَ الفزارى نائب زياد بن أبيه فى البصرة فى عهد الخليفة معاوية بن

أبى سفيان ، وقد قام سمرة هذا بنصيب كبير فى حرب الخوارج [1] .

وقد أبدت الزوجتان اخلاصا وحبا نادرين للمختار ، فقد أبتا أن تتنكرا للمختار بعد مصرعه حينما طلب منهما قاتله مصعب بن الزبير أن يتبرآ منه ويكفرانه ، فقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربى الله ؟! [2] .

شخصية المختار بين رجالات ثقيف :

اشتهرت قبيلة ثقيف بأنها تنجب رجالا امتازوا بالذكاء والدهاء والفطنة . فيروى ابن هشام أن الرسول حين حاصر مدينة الطائف سنة ٨ هـ انضم الى جيشه عيينة الفزارى ، لا لكى يقاتل ثقيفا ، ولكنه كان يأمل أن يتم للنبى عليه السلام فتح الطائف ، فيصيب هو جارية يتبطنها ، لعلها أن تلد له رجلا فطنا ، لأن ثقيفا كما يقول « قوم مناكير » يعنى أنهم دهاة فطنون ، أما عيينة نفسه فلم يرث دهاء ولا يستطيع أن يورثه [3] .

أنجبت الطائف كثيرا من رجالات العرب الذين لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ صدر الاسلام ، فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين. وقد أجمع المؤرخون على تمجيد هؤلاء الثقفيين ، وفى مقدمة هؤلاء المؤرخ الألمانى (فلهوزن) الذى قال : ارتفع شأن الطائف ،

---

(١) أنظر الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٤٣ .
(٣) سيرة ابن هشام ص ٨٧٤ (طبعة أوروبا) .

كما ارتفع شأن مكة والمدينة ، بفضل الاسلام ، واتخذت الطائف، من حيث هى مدينة ، موقفا ممتازا فوق عصبيات القبائل ، كما تجلى ذلك أيام الردة فى سنة ١١ هـ . وقد انضم الثقفيون من أول الأمر ، خلافا للأنصار ، انضماما نهائيا الى قريش صاحبة السيادة، خصوصا الى الأمويين ، وكان لهؤلاء صلات وثيقة بالطائف ، وكانوا فيها أصحاب ثراء . وكان الثقفيون مشـــهورين بالدهاء والفطنة ، وقد أقاموا الدليل على ذلك ، وقد ظهر منهم فى عصر الأمويين عدد كبير من ذوى المواهب ، فكان منهم المختار الثقفى ومحمد بن القاسم ، وكثيرون غيرهم من الرجال المبرزين [1] .

وعبارة فلهوزن هذه تبرز حقيقة هامة . فقد كانت قبيلة قريش صاحبة السيادة فى مكة فى العصر الجاهلى ، كما كانت قبيلة ثقيف صاحبة السيادة فى الطائف . وعلا شأن قبيلتى الأوس والخزرج فى يثرب لكنهما لم يصلا الى مرتبة قريش أو ثقيف نتيجة انشغالهما بالصراع المستمر بينهمـــا . ولكن سبق الأوس والخــزرج الى الاســلام أدى الى علو شــأنهما ، وأصبح يطلق عليهمـــا اسم « الأنصار » ، وبدأ تنافس شديد بين الأنصار وقريش ، ولكن الرسول لم ينس فضـــل الأنصـــار فاتخذ من مدينتهم (المدينــة المنورة) حاضرة للدولة . وبعد وفاة الرسول قامت الخـــلافة ، وتولتها قريش ، فرجحت كفتها على كفة الأنصار ، ودخلت ثقيف تحت لواء قريش .

وكانت قريش تضم بيتين كبيرين متنافسين ، البيت الأموى

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٠٧ .

والبيت الهاشمى . وكان العلويون أبرز بنى هاشم . ودخل الثقفيون فى طاعة الفرع الأموى دون الفرع الهاشمى ، عدا المختار بن أبى عبيد الذى نبذ طاعة الدولة الأموية وبذل كل جهد فى قتالها وظل مخلصا لآل علىّ بن أبى طالب حتى مصرعه . أما سائر بنى ثقيف ،مثل المغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف ومحمد ابن القاسم ومحمد بن يوسف ويوسف بن عمر وغيرهم ، فكانوا من أبرز ولاة وقواد بنى أمية وتمسكوا بولائهم دائما للدولة الأموية .

ورغم أن قبيلة ثقيف ترتبط بمدينة الطائف ، الا أن رجالات ثقيف ارتبطوا فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ببلاد العراق. فقد شهدت هذه البلاد أمجاد الثقفيين ، وأصبح تاريخها هو فى الحقيقة تاريخ هؤلاء الثقفيين .

فقد ساهم أبو عبيد بن مسعود وابناه جبر والمختار بجهودهم فى فتح بلاد العراق . وتولى سعد بن مسعود ، عم المختار ، حكم بعض مدن العراق . ثم تولى المغيرة بن شعبة الثقفى حكم الكوفة فترة طويلة . كما حكم زياد بن أبيه ، وينسبه بعض المؤرخين الى ثقيف ، البصرة والكوفة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ونجح فى توطيد الحكم الأموى فى بلاد العراق ، وخلفه ابنه عبيد الله ابن زياد ، الذى سيلقى حتفه على يد المختار . أما الحجاج بن يوسف الثقفى فقد برزت شهرته خلال حكمه لبلاد العراق فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . وكان محمد بن القاسم، القائد المشهور ، أحد قواد الحجاج بالعراق وقد بعثه لفتح

السند . وتولى يوسف بن عمر الحكم فى العراق فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبد الملك . أما المختار فقد نجح فى أن يكون الرجل الأول فى بلاد العراق منذ وفاة الخليفة يزيد ابن معاوية ، وطوال عهد معاوية الثانى ومروان بن الحكم ، وصدر خلافة عبد الملك بن مروان .

بين المختار والمغيرة بن شعبة الثقفى

ولنعقد بعض المقارنات بين شخصية رجلنا المختار وبعض رجالات ثقيف ، لنرى أوجه التشابه والخلاف ، وأسباب ذلك ، ونبدأ بشخصية المغيرة بن شعبة الثقفى .

يتفق المختار والمغيرة فى صفة الدهاء والذكاء ، فالمغيرة أحد دهاة العرب الأربعة (١) ، وقد وصف السيوطى (٢) دهاء المغيرة بقوله : « فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها الا بمكر لخرج من أبوابها كلها » . كما يتفق المختار والمغيرة فى الطموح والآمال العريضة والرغبة فى الوصول الى السلطة والنفوذ . ولكن اختلفا فى الطريق الذى يوصل الى غاية كل منهما .

أما المغيرة فقد اختار طريقا مأمونا سهلا ، ورأى أن يلعب الدور الثانى لا الدور الأول ، وأن يكون تابعا لا متبوعا . فعمل

---

(١) وهم : المغيرة ، وعمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، ومعاوية بن أبى سفيان .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٦ .

على أن يكسب رضاء الخلفاء فيعهدوا اليه بحكم بعض البلاد حيث يحقق آماله فى السيادة والنفوذ . وبذل كل جهد فى سبيل الاحتفاظ بما وصل اليه من سلطان ، دون أن يبذل جهده فى أن يؤدى واجبه المنوط به على أكمل وجه .

وقد أجمع المؤرخون على أن المغيرة كان سهلا ليّنا حيث كان يجب أن يتخذ الشدة . وينسب الطبرى [١] هذا التساهل الى حب المغيرة للسلام والعافية . أما فلهوزن[٢] فيفسره بقوله : لم يستأصل المغيرة الشر فى بدايته وقبل أن يستفحل ، بل تركه يشتد ويعظم ، لأنه كان يعرف أنه لا يعيش حتى يواجه هذا الخطر بعد استفحاله ، وكان لا يهدف الا للمحافظة على حياته ، تاركا هذه الأخطار ليتداركها من يخلفه ، رغم أن هذا يعتبر جزءا من وظيفته، ولكنه هدف أن يستفيد من ولايته أكبر فائدة ممكنة ، والى النهاية . ويرجع لامنس [٣] تساهل المغيرة الى كبر سنه ، ويقول انه لو كان أصغر سنا لما تردد فى مواجهة هذه الصعوبات بالقوة ، ولكن حب المغيرة للعافية أنساه أنه خاضع للأمويين . أما بركلمان [٤] فيرجع هذا التساهل الى أخلاق المغيرة الشخصية ، فهو يصفه بأنه « رجل انتهازى لا ذمة له ولا ذمام » .

أما المختار ، فقد اختار طريق الثورة والكفاح ، فرأى أن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٥٠ .

(٢) The Arab Kingdom, p. 118

(٣) Etudes Sur Le Siecle des Omayyades, p. 39

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ .

يصل الى ما طمح اليه من سيادة وسلطان بذكائه وسيفه وجهوده، فكان طريقا طويلا شاقا محفوفا بالمخاطر . وظل المختار يحمل سيفه ويجاهد به الى اللحظة الأخيرة من حياته . فقد حارب الأمويين مع ابن الزبير بالحجاز ليصدهم عن الكعبة ، وحارب قتلة الحسين، وحارب الجيش الأموى بقيـــادة ابن زياد ، وقاتل الخوارج ، وحارب الجيوش الزبيرية ، وأخيرا لقى مصرعه فى ميدان القتال .

عمل المختار على أن يكون الرجل الأول دائما ، فيلعب الدور الرئيسى بمهارة ، واختار بلاد العراق مسرحا — وهى نفس البلاد التى حكمها سلفه المغيرة فترة طويلة — واعتمد المختار على البيت العلوى فى السيطرة على العراق فأعلن أنه نائب العلويين بالعراق ، وعمل على اقامة خلافة علوية فى الكوفة . بينما اكتفى المغيرة أن يكون واليا من ولاة الدولة الأموية . وكما برز المختار فى ميدان القتال ، برز فى ميدان السياسة ، فقد استطاع أن يؤثر فى مصير جميع الأحـزاب السياسية مثـــل الشيعة والخوارج والتوابين والزبيريين ، وأستطيع أن أقول ان المختــار بزّ المغيرة فى مجــال السياسة .

بدأ المغيرة حياته السياسية سنة ٩ هـ حينما عهد اليه الرسول بهدم صنم اللات فى مدينة الطائف . واشترك فى فتوح العراق فى خلافة عمر بن الخطاب ، وولاه عمر بن الخطـاب حكم البصرة بعد وفاة أول والٍ لها وهو عتبة بن غزوان ، فنظم ديوانها ، وفتح ميسان والأهواز ، وشهد موقعة نهاوند . ثم عزل عن حكم البصرة ولكنه عاد الى حكم الكوفة بعد فترة قصيرة سنة ٢١ هـ ، وفى

عهده تمت فتوحات بلاد ميديا وأذربيجان [1] . ويروى المؤرخون آن المغيرة كان أول من اقترح على عمر بن الخطاب أن يتخذ لقب (أمير المؤمنين) [2] ، وكان المسلمون ينادونه قبل بيا (خليفة خليفة رسول الله) .

لعب المغيرة دورا فى تاريخ الموالى بطريق غير مباشر . فقد لقى عمر بن الخطاب مصرعه على يد أبى لؤلؤة المجوسى مولى المغيرة ، فقد قتله بخنجر فى ذى الحجة سنة ٢٣ ه . وكان مقتل عمر على يد رجل من الموالى يبين مدى الاستياء والسخط اللذين استوليا على نفوس هؤلاء الفرس بعد زوال سلطانهم ودخولهم فى حوزة العرب [3] . كما أدى الى تغير كبير فى معاملة الموالى ، فقد بدأ ولاة العراق فى التفرقة فى المعاملة بين العرب والموالى ، حتى اذا كان عصر المختار ، كان الموقف قد أوشك على الانفجار ، واستفاد المختار من سوء أحوال الموالى ، وأصبح محررا ومنقذا لهم .

ابتعد المغيرة عن مسرح الأحداث فى خلافة عثمان بن عفان . حتى اذ تولى على بن أبى طالب وبدأ عهده بعزل ولاة عثمان من

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٣٤ .

(٢) قال المغيرة لعمر : ياخليفة الله . فقال عمر : ذاك نبى الله داود . قال : ياخليفة رسول الله . قال : ذلك صاحبكم المفقود . قال ياخليفة خليفة رسول الله . قال : ذاك أمر يطول . قال : ياعمر ! قال : لاتبخس مقامى شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٢٥٢ .

حكم الأمصار الاسلامية ، تقدم اليه ينصحه بأن يبقى معاوية واليا على الشام على أن يأخذ البيعة له ، ولكن عليا لم يستمع لمشورة المغيرة ، فانصرف غاضبا الى معاوية ، ثم وقف الى جانبه خلال التحكيم . وكافأه معاوية على تأييده له ، فعندما تولى الخلافة فى سنة ٤٠ هـ ولاه حكم مدينة الكوفة .

لم يرض معاوية عن سياسة المغيرة فى حكم الكوفة ، وخاصة أنه تساهل مع الثائرين من أحزاب الشيعة والخوارج ، فقد كان المغيرة كما رأينا يميل الى السلام والموادعة . وأراد معاوية أن يعزله عن حكم الكوفة وحاول المغيرة أن يثنى معاوية عن غرضه فاقترح عليه أن يعهد الى ابنه يزيد بولاية العهد ، وتعهد له بأن يأخذ البيعة ليزيد من الكوفة ، ونال الاقتراح رضا معاوية ، فأعاد المغيرة الى حكم الكوفة ، فظل يتولى حكمها حتى مات . وهكذا كان المغيرة صاحب فكرة تحويل الخلافة من نظام الشورى الى نظام الوراثة ، ذلك النظام الذى لقى معارضة شديدة من المسلمين فى تلك الفترة . وخاصة أن معاوية كان قد تعهد للحسن بن على أن يتولى الخلافة بعده . وكانت تولية يزيد الخلافة بعد معاوية بطريق الوراثة سببا فى وقوع الأحداث السياسية العديدة التى سنراها بعد حين ، والتى خاض المختار غمارها .

كان المغيرة أستاذا للمختار ، ومثلا أعلى . فقد عاش المختار فى الكوفة خلال حكم المغيرة ، ولكنه لم يبد نشاطا سياسيا ملحوظا فى عهده . وكان المختار يجل المغيرة ويقدره ويناديه دائما بكلمة « يا عم » . وقد أوحى المغيرة — بدون قصد — للمختار

أن يستعين فى حركته السياسية فيما بعد ببنى هاشم والموالى . فيروى البلاذرى [1] : « ساير المختار المغيرة بن شعبة أيام ولايته الكوفة من قبل معاوية ، فمر بالسوق فالتفت المغيرة الى المختار وقال : يا لها من غارة ، ويا له جمعا ، انى لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق لاتبعوه ولا سيما الأعاجم الذين اذا ألقى عليهم الشيء قبلوه ، فقال له المختار وما هى يا عم ؟ قال المغيرة : يستأدون بآل محمد . فأغضى عليها المختار » . ولم تزل هذه الكلمة تتردد فى نفس المختار حتى وضعها موضع التنفيذ بعد مصرع الحسين ابن على .

بين المختار وزياد ابن أبيه :

يرى بعض المؤرخين أن زيادا ينتسب الى قبيلة ثقيف بالطائف، ومن الصعب أن تؤكد ذلك تأكيدا قاطعا ، فقد شاب نسب زياد كثير من الشوائب ، وان كان زياد قد أصبح من أبرز الشخصيات فى تاريخ العرب والمسلمين ، وقدر معاوية بن أبى سفيان شخصية زياد حق قدرها ، فاستلحقه ، ونسبه الى أبيه أبى سفيان واعتبره أخاه .

ولد زياد بالطائف ، فى السنة الأولى للهجرة ، وهى نفس السنة التى ولد المختار فيها ، وتعلم فى كتّاب من كتاتيب الطائف

---

(١) أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٢٣ (طبعة لندن) .

القراءة والكتابة والحساب . ثم اعتنق الاسلام عندما أسلمت ثقيف برمتها فى سنة تسع للهجرة . واشترك زياد — مثله مثل المختار — فى فتوح العراق مع سعد بن أبى وقاص ، فكان يقسم الغنائم ، ونال اعجاب عمر بن الخطاب وسائر الصحابة . ولما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها فيمن نزلها من ثقيف واتخذها مقرا معظم حياته .

لم يشترك زياد فى الثورة التى قامت ضد عثمان ، أو فى الفتن فى عهد على بن أبى طالب ، مما أدى الى رضا علىّ عنه ، فولاه خراج البصرة وبيت مالها ، وأصبح من أشد ولاة علىّ اخلاصا له ، وقد حافظ على ولائه واخلاصه الى أنّ انتهت حياة علىّ ، وتولى معاوية الخلافة . وبذل معاوية كل جهد ليصبح زياد من رجالات بنى أمية ، ومن عمد الدولة الأموية . وأبى زياد الا أن يظل على ولائه لعلى بن أبى طالب بعد مصرعه . ولكن معاوية لم ييأس . وتدخل بين الرجلين ، المغيرة بن شعبة الثقفى ، فقام بالسفارة بينهما ، ووصل ما انقطع بينهما . وأعلن معاوية أن زيادا أخاه ، وأن أباه الحقيقى هو أبو سفيان . وبرر معاوية ما فعله للناس وقال : « انى لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقا فوضعته موضعه »[1] . وولى معاوية زيادا على حكم البصرة ، ثم ضم اليه الكوفة بعد وفاة المغيرة ، فظل يتولى حكم بلاد العراق جميعها الى أن مات سنة ٥٣ هـ . فثبت أقدام الحكم الأموى

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٢٦ .

بالعراق ، وكان كما قال الطبرى : « ساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله »

وصف ابن طباطبا [١] زيادا بقوله : « وكان زياد أحد الدهاة عظيم السياسة قوى الهيبة صحيح العقل شديدا شهما فطنا بليغا». ويرى فلهوزن [٢] أن زيادا اكتسب احترام أهل العراق ، فنجح فى نشر الأمن الذى لم تعرفه العراق قبل حتى خلال حكم فارس ، بل لم تعرفه صحراء بلاد العرب نفسها .

اتفق المختار مع زياد فى نواح ، واختلفا فى ميادين أخرى . فقد اتفقا فى اعتناق مذهب الشيعة والولاء لعلىّ بن أبى طالب وآله . وان كان زياد قد تحول من الولاء لعلىّ الى موالاة معاوية ، فقد كان هذا بعد الحاح شديد ، وتردد كبير ، ونتيجة وساطة المغيرة بن شعبة والحاحه ، ولما لمسه زياد من ميل العلويين الى الاستكانة والهدوء ، فقد تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية ، وآثر الحسين بن على البعد عن السياسة . أما المختار فقد ظل حتى اللحظة الأخيرة مصرا على ولائه للبيت العلوى .

كان المختار وزياد يتفقان فى الطموح والآمال الواسعة . فقد أراد المختار أن يسيطر على النصف الشرقى من الدولة العربية الاسلامية ، ونجح فى أن يسيطر على بلاد العراق والأطراف الشرقية من الدولة ، وسعى الى أن تكون له السيادة فى الحجاز ، وغزت جيوشه المدينة المنورة ، وهاجم ابن الزبير فى مكة . وكان

---

(١) الفخرى ص ١٠٢ .

(٢) The Arab Kingdom, p. 123

زياد أيضا يحكم نفس الجزء الذى حكمه فيما بعد المختار ، وطلب من معاوية أن يضم اليه الحجاز ، ولكن المنيــة أدركته قبل أن تتحقق أحلامه .

يتشابه زياد والمختار فى قوة الشخصية ، والبراعة الفائقة فى شئون السياسة والادارة . ودانت لهما بلاد العــراق بالطــاعة والولاء ، وشعرت فى عهدهما بالطمأنينــة والاستقرار . ويتفق الرجلان فى تقريب الموالى اليهما وحسن معاملتهمــا لهم . فكان زياد يولى الموالى كثيرا من الوظائف وخاصة فى دواوين الخراج والرسائل ، وكان يقول : ينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج [1] . وكانت أم زياد ، وهى سمية ، من أصل فارسى . أما المختار ، فقد عمل دائما على تحسين أوضاع الموالى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، رغم أنه كان عربيا أبا وأما .

عاش المختار فى الكوفة خلال حكم زياد ، ولم يمارس المختار فى عهده نشاطا سياسيا فقد اتبع زياد سياسة الشدة والقسوة ، فانصرف المختار الى أعمــال الزراعة فى ضيعته قرب الكوفة . وحاول زياد أن يحصل على توقيع المختار على عريضة رفعها الى معاوية يطلب فيها قتل زعيم الشيعة حجر بن عدى ، ولكن المختار أبى اباء تاما ، ولم يتعرض زياد له بأذى . أما عبيد الله بن زياد ، فكان عدوا لدودا للمختار ، فقــد ألقــاه ابن زياد فى السجن ، وضربه بقضيب على عينه فشتر عينه ، ثم نفاه خارج العــراق .

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٩ .

وأخذ المختار بثأره من ابن زياد ، فلقى هذا حتفه على يد المختار فى موقعة خازر .

بين المختار والحجاج بن يوسف الثقفى :

كان المختار سيف بنى على بن أبى طالب ورجل الشيعة ، فقد دعا للحسين بن على ، حتى اذا قتل ، دعا لابنه على بن الحسين ، ثم لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . أما الحجاج فكان سيف بنى مروان ، أى الخلفاء الأمويين بنى مروان بن الحكم ، فقد أخلص كل الاخلاص للخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك ، وأصبح الحجاج من أبرز رجالات الدولة الأموية .

اشتهر كل من المختار والحجاج فى بلاد العراق والحجاز . فقد سيطر المختار على بلاد العراق ظاهريا باسم محمد بن الحنفية وفى الحقيقة لصالحه الخاص . وسيطر الحجاج على العراق لصالح الدولة الأموية فقبض عليها بقبضة من حديد فدانت بالطاعة للأمويين بعد أن اضطربت أحوالها بالفتن والثورات فترة طويلة . وشهدت بلاد الحجاز المختار وقد قدم الى مكة حيث أصبح وزيرا لابن الزبير ثم وقف الى جانبه يذود عن الكعبة أثناء حصار الجيش الأموى لمكة فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية . وشهدت بلاد الحجاز الحجاج وقد قدم على رأس جيش أموى كبير فى عهد

الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ليحاصر عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز فى مكة ، ويقذف الكعبة بالمنجنيق ، ويعيد الحجاز الى حظيرة الدولة الأموية بعد أن يلقى ابن الزبير حتفه .

والحجاج ثقفى كالمختار ، ولكنهما اختلفا فى موقفهما من الدولة الأموية ، فقد حاربها المختار كلما استطاع الى ذلك سبيلا، بينما كان الحجاج عضد الدولة الأموية . ويذكر فلهوزن [1] أن الحجاج عرف للمختار قدره ، مع أنه كان بثورته قد خالف الدولة ، وكان عند الحجاج من الشجاعة ما جعله يصرح باعجابه به . وقد أخذ الحجاج بثأر المختار من قتلته ، وان لم يكن ذلك قصده . فقد قام الخليفة عبد الملك بن مروان بقتل مصعب بن الزبير فى العراق وهو القائد الذى اشتبك مع المختار فى معركة فاصلة انتهت بمصرع المختار . وقام الححاج بالقضاء على عبدالله ابن الزبير الذى أصدر أوامره لأخيه مصعب بقتال المختار ثم قتله.

ظهر المختار دائما بشخصية ذاتية مستقلة ، فلم يحاول أن يقلد أحدا أو يحاكى احدى الشخصيات المعاصرة . أما الحجاج فقد تشبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب ، ولكن الحجاج أخفق فى ذلك اخفاقا ذريعا . لقد وصل زياد الى أعظم المناصب قبل أن يعرف معاوية ، ولكن الحجاج قد خلقه عبد الملك ، وقد عرف زياد كيف يمسك زمام القبائل فضرب بعضها ببعض وسيرها لصالحه وحكم العراق بدون أن يستعين

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٤٧ .

بجند الشام ، لكن الحجاج أكد سلطاته بحكومة لا تمت بصلة الى العراق مما أدى الى ازدياد كراهية العراق للشام [١] .

وشعر عبد الملك أنه لم يستطع أن يخلق زيادا آخرا ، فقال لعباد بن زياد : أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق ، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام ، فضلا عن أهل العراق ، ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفاجأك الا على قعود وتوجف به [٢] .

وقد اختلف المختار والحجاج فى سياستهما فى حكم العراق . فقد قرب المختار موالى العراق اليه ، وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من أهالى العراق ، فولاهم الوظائف ورد اليهم حقوقهم السياسية والاقتصادية . أما الحجاج فقد أساء معاملة الموالى ، وكانت فترة حكمه لبلاد العراق هى أسوأ فترات الحكم الأموى بالنسبة للموالى فقد كرهه الموالى وحقدوا على عبد الملك وبغضوا الدولة الأموية ، فعادوا الى ثورتهم على الحكم الأموى . وقد أمره عبد الملك بسفك دمائهم فقال : سر الى العراقيين واحتل لقتلهم فانه قد بلغنى عنهم ما أكره [٣] . وكانت الكوفة مركز الموالى فأوصى عبد الملك الحجاج باخضاعهم فقال :

---

(١) Wellhausen : The Arab Kingdom, p. 254

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٨ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣١ .

فاذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها أهل البصرة [1] . ولم تسلم البصرة من قسوة الحجاج ، فتوجه الى مسجدها فى يومه الأول فيها فى ألفى جندى من أهل الشام ، فانقضوا على أهل البصرة وقتلوا أكثر من سبعين ألفا حتى سالت الدماء الى طرقها [2] . ويبرز المؤرخ سيديو [3] هذه القسوة بأن أهل العراق كانوا دائما مستعدين لكل ثورة فأراد الحجاج أن يثبت حكم الشام حتى تظل دمشق عاصمة البلاد الاسلامية .

كانت المعاملة الممتازة التى عاملها المختار للموالى ، ثم مالاقوه من عنت واضطهاد فى عصر الحجاج ، سببا لثورتهم فى عصر الحجاج ، فقد شعروا بالفرق الواضح بين العهدين . فذكر المؤرخ فلهوزن [4] : ولا شك فى أن ثورة المختار لم تقض قضاء تاما على طموح هؤلاء المسلمين الجدد الى الارتفاع ، وأن الحجاج كان يعالج الصعوبات التى نشأت من دخول الموالى فى الاسلام طلبا للمساواة السياسية وفرارا من الجندية ، ولا شك أيضا فى أن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقى فى الكوفة ، شأنها شأن ثورة المختار . كما ذكر فلهوزن أيضا أن الحجاج ورث المتاعب التى خلفها المختار له فى بلاد العراق فقال : ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت تلك الولاية يغلى باطنها كالمرجل ،

---

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ١٨ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣١ – ٣٢ .

(٣) تاريخ العرب العام ص ١٧٢ .

(٤) تاريخ الدولة العربية ص ٢٣٦ .

ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذى استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخمدت الثورة العنيفة التى قام بها شيعة الكوفة ومن انضم اليهم من الموالى ، بقيادة المختار الثقفى ، ولكنها خلفت فى النفوس نارا متوقدة ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها[1]

كان المصير المؤلم الذى لاقاه محمد بن القاسم الثقفى ، قائد الحجاج الكبير ، على أيدى الأمويين ، مما يبرر موقف المختار من الدولة الأموية . حينما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) عهد الحجاج الى محمد بن القاسم فى غزو بلاد السند ، فاستمر فى فتوحه الى نهر السند . فلما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، نكل بمحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وأسرة الحجاج . وكان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته ، حتى ان الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان ، وذلك لما كان من اجابة الوليد الى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتوليته ابنه عبد العزيز .

فلما ولى سليمان الخلافة وولى يزيد بن أبى كبشة السند ، أخذ محمد بن القاسم ابن أخت الحجاج وقيده وحمله الى العراق. وكان محمد محبوبا من أهالى السند لحسن سيرته فيهم ، حتى انهم بكوا عليه حين فارقهم . ولما وصل محمد الى العراق حبس فى واسط ، ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن وقتله . وبذلك انتهت حياة هذا القائد ارضاء لأهواء الخليفة الذى نسى بلاءه وعظيم أعماله.

---

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢١٨ .

صفات المختار :

كان المختار رجلا عربيا ، من أشرف القبائل العربية ، وهى قبيلة ثقيف التى ذاع صيتها فى الطائف ، وبرزت أمجادها طوال العصر الاسلامى ، واشتهر أبناؤها أنهم على قدر كبير من الذكاء والدهاء والفطنة .

تجلى دهاء المختار فى مواقف عديدة ، فقد نجح فى رسم الخطط السياسية وتنفيذها تنفيذا محكما . واستطاع بمجهوده الفردى وعقله الناضج أن يصبح الرجل الأول فى العراق منذ خلافة يزيد بن معاوية الى خلافة عبد الملك بن مروان ، وأن يؤثر فى جميع الأحداث السياسية فى ذلك العصر بدون استثناء . وتجلى ذكاؤه ودهاؤه خلال ثورة الأشراف العرب فى الكوفة ، فقد انتهزوا فرصة خروج جيش المختار بقيادة ابراهيم ابن الأشتر لصد الجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد عن الموصل ، فأعلنوا الثورة وكادوا يهمون بقتل المختار ، وادعوا أنه سيطر على الكوفة بدون رضاء من محمد بن الحنفية ، فطلب منهم أن يؤجلوا ثورتهم حتى يبعثوا مندوبا عنهم الى ابن الحنفية يستفسر منه عن حقيقة الأمر ، ثم بعث فى استدعاء ابن الأشتر فقدم على عجل وأخمد الفتنة .

وكان المختار قائدا حربيا عظيما ، أبدى تفوقه فى جميع الميادين التى اشترك فيها . وكان مستعدا لبذل روحه ودمائه فى سبيل فكرة يعتنقها . فقد خرج فى جماعة صغيرة ليدافع عن الحسين بن على يوم كربلاء ، لولا أن قبض عليه الوالى الأموى وألقى به فى

السجن . وأثبت بسالته واقدامه خلال ذوده عن الكعبة الى جانب عبد الله بن الزبير ، وأجمع المؤرخون على أنه كان أشد الناس على جند الشام . كما أثبت كفاءته فى وضع الخطط الحربية : فقدكانت الطريقة التى اتبعها فى انتزاع الكوفة من أيدى عبد الله بن الزبير ، وتوزيع جنده على أحياء الكوفة المختلفة تدل على براعة فائقة . كما أنه نبذ الطريقة التقليدية فى تأليف الجيوش فى ذلك العصر ، فقد جرت العادة على تقسيم الجيش أقساما قبلية ، فكانت كل فرقة تضم أبناء القبيلة الواحدة ، ولكن المختار قسم جنده تبعا لأسلحتهم ، ولم يفرق بين جنسية الجند ، فساوى بين الجند العرب والجند الموالى ، وسمح لهم جميعا بركوب الخيل . ووصف الحجاج بن يوسف قريبه المختار فقال عنه : انه « مسعر حرب ومقارع أعداء » . وفى المعركة الفاصلة الأخيرة ، ظل المختار صامدا ، فقد حاصره عدوه مصعب بن الزبير أربعة شهور ، تحمل خلالها الجوع والعطش فى صبر واحتمال ، وتخلى رجاله عنه ، ولكنه أبى الاستسلام ، ونزل الى طرقات الكوفة يحارب وهو مترجل الى أن لقى حتفه وسيفه فى يده .

لم يكن المختار يميل الى أى نوع من العصبية ، سواء العصبية القبلية ، أو العصبية الجنسية . فلا نرى طوال تاريخ المختار حادثا واحدا يشير الى تدخل المختار فى الصراع العنيف الدائر بين العرب اليمنيين والعرب الحجازيين . ورغم تأييد الموالى للمختار ، ورغم اهتمامه بتحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فقد قرب العرب اليه ، وولاهم مناصب القيادة وحكم الولايات ،

وأغدق عليهم الصلات وكان يحارب الأمويين كما قال أبو مخنف « بشجاعة العرب وعداوة العجم » . بل حفظ المختار التوازن بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين ، ويرى المؤرخون أن الأمويين لو كانوا قد ساروا سيرة المختار لما انهارت دولتهم .

كان المختار عادلا ، فوضع أسس حكومة تعدل بين الناس وتساوى بين الجميع . ورغم مشاغله العديدة رأى أن يقعد بنفسه للقضاء والفصل فى الخصومات . كما كان متسامحا ، يعفو عن أعدائه ، ويتغاضى عن أخطائهم ، وكان يطلق سراح الأسرى الذين يقعون فى يده بعد انتصاره عليهم ، مكتفيا بأن يتعهدوا ألا يناصبوه العداء ، مفترضا أنهم سيصدقون فى عهدهم . واذا قارنا المختار بزياد بن أبيه أو عبيد الله بن زياد وأسلافه فى حكم العراق ، أو بخلفه الحجاج بن يوسف الثقفى ، لوجدنا أن المختار أكثرهم عدلا وانصافا ، وأعظمهم تسامحا ورأفة ، وأبعدهم عن سفك الدماء والميل الى القسوة والتعذيب . ولم يحدثنا المؤرخون اطلاقا عن حادثة واحدة غدر فيها المختار بعدو له ، أو أنه أسرف فى سفك دماء خصومه .

أخلص المختار لأصدقائه ، فقد كان قد نشأ مع مسلم بن عقيل ابن أبى طالب ورافقه فى صباه ، فجعل داره ملتقى شيعته . وأخلص للحسين بن على ، وأصر دائما على اخلاصه لمحمد بن الحنفية رغم أنه كثيرا ما تخلى عنه . وأخلص لعبد الله بن الزبير ووقف الى جانبه يقاتل أعداءه من الأمويين ولم يغادره الى العراق الا بعد أن نكث عهده له . وكان المختار تقيا حريصا على أداء شعائر دينه ،

فكان كما قالت زوجتاه عنه : « كان صائم نهاره قائم ليله » [1] .
كما كان كريما ، يبذل المال بلا حساب ، فكان يغدق الصلات والهدايا على رجاله وأنصاره ، وعمل على تحسين أحوال الموالى الاقتصادية ، فرفع مرتباتهم وعطاءهم ، وارتفع بالتالى مستوى معيشتهم ، وكان الموالى يمثلون غالبية سكان العراق ، وكان كرمه عاملا من عوامل نجاحه السياسى ، فقد أرضى بالمال خصومه قبل أنصاره .

كان المختار يميل الى الزراعة وفلاحة الأرض ، وخالف فى ذلك جميع معاصريه العرب ، فقد كان العرب فى تلك الأيام لا يمتهنون سوى مهنة الحرب والسياسة والحكم ، وتركوا الزراعة وسائر الحرف والمهن للموالى ، باعتبارها مهنا وضيعة . ولكن المختار كان يمتلك ضيعة كبيرة فى ضاحية من ضواحى الكوفة ، يساعده فى زراعتها عدد كبير من الموالى .

والى جانب فصاحة المختار ودهائه ، كان على جانب كبير من الدراية بعلم النفس ، والالمام بوسائل الدعاية والاعلام . فقد كان يخاطب عواطف الناس كما كان يخاطب عقولهم ، وكان لا يكتفى بوسائل الدعاية المعروفة حينئذ كالخطابة والشعر ، بل لجأ الى وسائل كثيرة للدعاية ، ومنها التمثيل ، والمظاهرات ، والاشاعات . كما لجأ الى ما نسميه الآن بالانقلاب العسكرى حينما انتزع الكوفة من ولاة ابن الزبير ، والى حرب العصابات حينما قاتل مصعب بن الزبير ، فكان المختار فى أفكاره ووسائله سابقا لعصره .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٧ .

ولا نعتبر (أبراهام لنكولن) محرر العبيد فى أمريكا ، الا صورة مكررة من المختار ، الذى عمل دائما على تحرير الموالى والرقيق فى الدولة العربية الاسلامية . وكان المختار خطيبا مفوها ، حفظت لنا المصادر القديمة كثيرا من خطبه الحماسية ، وكان يستثير عواطف سامعيه فيبكيهم ويثير حماستهم ، ويستنهضهم للقتال .

فجر حياة المختار السياسية :

انتشار التشيع فى العراق ـ موقف المختار من خلافة الحسن بن على ـ موقف المختار من خلافة معاوية بن أبى سفيان ـ اعتناق المختار مذهب التشيع فى عهد يزيد ابن معاوية ـ مسلم بن عقيل مبعوث الحسين بن على فى بيت المختار ـ خروج مسلم من دار المختار الى بيت هانىء ابن عروة ـ موقف المختار من مأساة الحسين فى كربلاء.

الفصل الثانى

فجر حياة المختار السياسية :

انتشار التشيع فى العراق :

كان هناك فريق من العرب قد تشيع لعلىّ بن أبى طالب بعد أن آلت الخلافة الى أبى بكر ، ويرى جولدتسيهر فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الاسلام) [1] أن الحركة العلوية الشيعية نشأت فى أرض عربية بحتة ، فقد مال لاعتناق التشيع قبائل عربية آمنت بشرعية حق على بن أبى طالب فى الخلافة ، فأقبلت على تعاليمه فى لهف وحماسة أهل العراق من الفرس . ورأوا أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، ويعين القائم بها تعيينا باختيار جماعة المسلمين وانتخابهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، فيجب تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه الرسول . فلا عجب أن نظر بعض المسلمين الى أبى بكر وعمر وعثمان على

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٦٩ .

أنهم اغتصبوا حق علىّ فى الخلافة ، وقد أيد الأنصار والهاشميون عليا ، وهم عدة الاسلام . واذا كانت القبائل قد اعتادت أن تنتخب الخليفة من قريش ، فليس هناك فى قريش خير من على ، فله فضل السبق فى الاسلام ، فضلا عن قرابته ومصاهرته للرسول ، وأخلاقه الشخصية العظيمة .

وفاق موالى العراق أهله من العرب فى التشيع لعلى ، فقد كان هنـــاك من يغالون فيضعون اسم علىّ بجانب اسم محمــد فى صلواتهم . وكان هؤلاء الموالى أسرع الناس الى اعتنـــاق مذهب عبد الله بن سبأ الذى نادى ببعض المبادىء الغريبة ، ووجد هذا المذهب قبولا لتشابهه بالمذاهب الدينية القديمة فى العراق ، اذ كانت بلاد العراق منبعا للديانات المختلفة والمذاهب الغريبة ، وســادت بينهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ديصان ، كما كان تقديسهم لعلىّ يرجع الى فكرتهم القديمة عن الحق الالهى المقدس ، وكانت معاملة علىّ للموالى تنطوى على العطف والرعاية ممـا أدى الى تغاليهم فى التشيع . ويرى المؤرخ أرنولد [1] أن من دوافع اقبال أهالى العراق على التشيع زواج الحسين بن على من احــدى بنات يزدجرد آخر أكاسرة الفرس ، وقد رأى الفرس فى أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كمـا رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٨١ .

موقف المختار من خلافة الحسن بن علي :

من المؤرخين كالطبري [1] والبلاذري [2] من يرى أن المختار بدأ حياته السياسية في العـراق (عثمانيا) لا (شيعيا) . وكان العثمانيون يبدون غضبهم لمصرع عثمـان ويعلنون رثاءهم لهم ، وينزلون سخطهم على قتلته . ويؤيدون المطالبـة بأخـذ ثأره ، ويعيبون على عليّ بن أبي طالب قبول البيعة من الثوار واغفـاله الثأر لعثمان .

ولعل هذه المشاعر التي جاشت في نفس المختار كانت عاملا على امتناعه عن تأييد خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب .

ويذكر المؤرخان الطبري والبلاذري أن المختار عرض على عمه سعد بن مسعود حاكم المدائن أن يقبض على الحسن بن عليّ ويسلمه لمعاوية لينال رضاه ، ولكن سعدا أبدى حرجه من القبض على حفيد الرسول ، فقد كان يدرك المصير الذي ينتظـر الحسن على يدي معاوية .

لا نعجب من موقف المختار وتأييد العثمانيين ، فقد كان هناك من بين المسلمين من أبدى غضبه على قتلة عثمان وحزنه لمصـيره المؤلم ، رغم أنهم لم يكونوا يؤيدون سياسة عثمان خلال حياته ، بل ربما كانوا يعارضون سياسته جهارا . ونحن نعرف عادة العرب

---

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٤ .

المتأصلة فيهم منذ سنين طويلة ، وهى الأخذ بثأر قتلاهم ، فغضب عدد من المسلمين لأن على بن أبى طالب أهمل الأخـذ بثأر عثمان من قتلته .

كما أننا نستطيع أن نبرر موقف المختـار من الحسن بن على ومعارضته لخلافته ، فرغم اقبال أهل العراق على البيعـة للحسن بعد مصرع أبيه على بن أبى طالب ، فان أغلبيتهم سرعان ما شعرت أن الحسن ليس بالرجل الذى يحقق آمالهم . فقد صبر أهل العراق على الحسن نحو شهرين حتى ينتهى من هذه الأعمال الرسمية التى جرت العادة أن يستهل بها كل خليفة عهده ، ثم بدأوا يعملون على تحقيق الغرض الذى نصبوا الحسن من أجله خليفة ، وهو قتـال أهل الشام وخليفتهم معـاوية ، ولكن الحسن لم يبد استعداده للقتال .

ويرى المؤرخ ابن كثير [١] أنه « لم يكن فى نيّة الحسـن أن يقاتل أحدا » . ولكن قيس بن سعد وعبد الله بن عباس اللذين قادا حركة البيعة للحسن ، واعتبرا أنفسهما مسئولين أمام أهل العراق ، قدما على الحسن وحرضاه على القتال ، فلم يجد مفرا من تحقيق رغباتهما ، وبدأ يستعد للقتال كارها ، ولكن معاوية كان أكثر منه نشاطا واقداما ، فسبقه فى الخروج بجيشه [٢] .

ورغب الحسن فى قتال معاوية على كره منه ، وتقدم فى طريقه الى المدائن ، وكان يتولى الحكم فيها سعد بن مسعود عم المختار ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٧٥ .

وكان المختار ملازما له . واستقر الحسن فى المدائن بمعظم ما كان معه من الجند وأرسل بعض جيشه لمحاربة معاوية ، ثم خطب الحسن ، جنده قائلا : « ... ألا وان ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون تردوا علىّ برأيى . فنظر الناس بعضهم الى بعض، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر اليه ، فقالوا : كفر والله الرجل ! » [1] ثم قاموا الى الحسن فهاجموا خيمته وانتزعوا مصلاه من تحته وانتهبوا ثيابه حتى انتزعوا مطرفه عن عاتقه . ورأى الحسن العدول عن لقاء معاوية ، واستعد لمغادرة المدائن ، ولكنه ما كاد يبدأ رحلته حتى هجم عليه أحد جنوده ، وكان يرى رأى الخوارج ، وهو الجراح ابن سنان الأسدى ، فطعنه برمحه طعنة قوية أصابته فى فخذه ، فنزفت دماؤه بغزارة ، وتفرق عنه أصحابه [2] . وحملته البقية الباقية من جنده عليلا جريحا الى المدائن ، حيث شغل بعلاج جراحه عن قتال معاوية .

وما لبث معاوية أن بعث الى الحسن بصحيفة بيضاء ذيلها بخاتمه ، وأبدى استعداده للموافقة على جميع ما يشترط فيها مقابل أن يتنازل له عن الخلافة . وكتب الحسن الى قيس بن سعد يخبره بتنازله ويأمره بتسليم الأمر لمعاوية ، والانصراف الى المدائن ، فغضب سعد وقام فى جنده وقال : « أيها الناس اختاروا

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٦٣ .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ١٩١ .

أحد الأمرين : القتال بلا امام أو الدخول فى طاعة معاوية » [1] .
فاختاروا طاعة معاوية ، ويئس قيس من جنده ، فسار الى المدائن ، وسار الحسن الى الكوفة حيث قابل معاوية ، وأكد كل منهما للآخر عزمه على تحقيق شروط الصلح ، ثم انصرف الحسن والحسين من الكوفة الى المدينة .

لا شك أن نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية خيب آمال أهل العراق فيه ، فقد أضاع جهودهم وجهود أبيــه من قبل . وتعجب أهل العراق لهذا الحدث ، فقد كان الحسن أول خليفة يخلع نفسه ويسلم الأمر الى غيره . ولا شــك فى أنهم رجعوا بذاكرتهم الى الوراء حينما أصر عثمان على الاحتفاظ بحقــه حتى الموت . ولم تتفق كلمة أهل العراق طوال التاريخ الاسلامى الا على لوم الحسن لتنازله عن الخلافة ، فما من جماعة كان الحسن يمر بها وهو فى طريقه الى المدينة الا لاموه وبكتوه ، وهو « لا يجد فى صــدره حرجا ولا تلوما ولا ندما ، بل هو راض بذلك مستبشر به » [2] .

اتفق المؤرخون الافرنج على لوم الحسن وانتقاد موقفه من معاوية ، فيرى (بروكلمان) [3] أن الحسن لم يكن رجل الساعة الذى تحتاجه الدولة ، فقد رفض أن يقود جنوده فى هجوم على خصمه . ويرى (أوكلى) [4] أن الحسن لم يكن مؤهلا للموقف ،

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٣١ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩ .
(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٤٥ .
(٤) Hist of the Saracens, p. 347

حيث كان يميل الى السلم ، وينظر الى دماء المسلمين نظرة رعب يصعب علينا تصورها .

ويرى (فلهوزن) (١) أن الحسن قد أدخل الشك فى نفوس أهل الكوفة بموقفه المبهم ، فاستقر رأيهم على أنه ليس برجلهم المنشود ، وكانت طعنة الرمح التى أصابت الحسن تأكيدا لشعورهم.

وقد سردنا هذه الآراء لنبرر موقف المختار من خلافة الحسن ابن على ، ونضيف الى هذه الآراء دليلا قويا دامغا ، وهو رأى زعيم الشيعة الأكبر بالعراق ، الصحابى الجليل حجر بن عدى ، فقد أوضح للحسن أخطاءه فقال : « ان تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع ما مثلها من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية فى العهد والميثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتابا وأشهدت عليه شهودا من أهل المشرق والمغرب ، ان هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله » (٢) . ولذا فاننا نرى أن ما عرضه المختار على عمه سعد بن مسعود من القبض على الحسن وتسليمه الى معاوية ان هو الا مظهر من مظاهر سخطه على الحسن لتخاذله، وهذا السخط قد شاركه فيه معاصروه على اختلاف آرائهم .

---

(١) The Arab Kingdom, p. 105

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٦ .

موقف المختار من خلافة معاوية بن أبى سفيان :

رأينا المختار يبدأ حياته السياسية عثمانيا ، وكان العثمانيون وقتئذ أعداء الشيعة . ثم رأيناه معارضا لخلافة الحسن بن على حتى أنه عرض على عمه سعد بن مسعود والى المدائن أن يسلمه لمعاوية . وقد ناقشنا سر هذا الموقف الذى وقفه المختار من الحسن ورأينا ما يبرره . وبدأ المختار فى عهد معاوية يغير من آرائه السياسية ، فقد بدأ يبدى عطفه على الشيعة ، حتى اذا بدأت خلافة يزيد بن معاوية كان المختار قد تشبع تماما بتعاليم الشيعة وأبدى تأييده لهم جهارا ، وفتح أبواب بيته لمبعوث الحسين بن على الى أهل الكوفة وهو مسلم بن عقيل بن أبى طالب .

وظهر عطف المختار على الشيعة فى شخص زعيمهم حجر بن عدى . فقد عادت الشيعة فى عهد معاوية الى الثورة والشغب ، ونحن نجد لهم العذر فقد كانت خلافة معاوية صدمة لهم ، لأنها خيبت آمالهم فى اقامة خلافة علوية ، ولم يكن هذا رأى الشيعة وحدهم ، بل اتفق معهم فى هذه الآراء معظم أهل الكوفة ، فكانوا يعتبرون عليا البطل السياسى الذى حقق استقلال العراق . ولما تولى المغيرة بن شعبة ، وهو ثقفى كالمختار ، سار فيهم سيرة لم ترضهم ، فكان حجر يصعد المنبر فيمدح عليا ويذم معاوية والمغيرة. ولكن المغيرة لم يعرض للشيعة ولحجر بشر أو أذى ، فاستفحل أمر الشيعة حتى بلغ الى حد أن حصب حجر المغيرة وهو على المنبر ،

ولكن المغيرة لم يغضب ، بل قصد من فوره الى دار الامارة وبعث الى حجر بخمسة آلاف درهم .

وقد لام بنو أمية المغيرة على تسامحه مع حجر ، فدافع عن نفسه بقوله : « انى قد قتلته . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : انه سيأتى أمير بعدى فيحسبه مثلى فيصنع به شبيها بما ترونه فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة » [1] . وكأن المغيرة كان يقرأ الغيب فى كتاب مسطور ، فقد أعاد حجر هذه السياسة مع زياد فقتله معاوية شر قتلة .

أعلن زياد بن أبيه [2] على الشيعة حربا شعواء منذ اليوم الأول لتوليه حكم الكوفة ، رغم أنه كان شيعيا بالأمس ومن أخلص أنصار علىّ ، وتتبع زياد الشيعة فى كل مكان بالقتل والتعذيب ، وقطع الأيدى والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم من العراق ، وساعده على ذلك أنه كان بهم عارفا ، فقد كان بالأمس واحدا من الشيعة .

عاد حجر بن عدى الى الحصب وذم معاوية وعثمان ثم زيادا ، وكانت بين زياد وحجر مودة قديمة ، يوم كان حزب الشيعة يجمعهما ، فاستدعاه وعاتبه وحذره . وحاول زياد أن يجعل حجرا يحذو حذوه فى التحول من حب على الى حب معاوية ، وأغراه بالجاه والمال . ولكن حجرا آثر دينه على دنياه، فانتهز فرصة خروج زياد الى البصرة حيث كان يمضى بها ستة

---

(١) الأصبهانى : الأغانى ج ١٦ ص ٢ .

(٢) أصبح يسمى زياد بن أبى سفيان بعد ان استلحقه معاوية .

أشهر كل عام ، ورفع راية العصيان على نائبه بالكوفة ، فكتب الى زياد ، فهرع الى الكوفة ، وبعث أمير الشرطة فى استحضار حجر ، وخاف أشراف الكوفة من بطش زياد فتخلوا عن تأييد حجر ، بل تنافسوا فى اظهار طاعتهم لزياد . وقبض زياد على حجر وأصحابه ، وكتب الى معاوية فى أمرهم ، فأمره بأن يشدهم فى الحديد ويبعث بهم اليه .

يروى المؤرخ الدينورى [1] أن معاوية كاد يعفو عن حجر وأصحابه لولا أن زيادا بعث برسالة يبين له خطورة حجر . ويروى الأصبهانى [2] أن زيادا بذل كل الجهود فى أن يشهد أكبر عدد ممكن من وجوه الكوفة بأن « حجر بن عدى خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة ، وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله كفرة صلعاء . فقال زياد : على مثل هذه الشهادة فاستشهدوا ، والله لأجهدن فى قطع عنق الخائن الأحمق » .

ويتفق المؤرخون فى أن المختار رفض أن يوقع هذه الشهادة، وشاركه فى امتناعه عن توقيعها ثقفى آخر هو عروة بن المغيرة ابن شعبة ، فيذكر الطبرى [3] : « ودعا — زياد — المختار بن أبى عبيد وعروة بن المغيرة بن شعبة ليشهدا عليه فراغا » .

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٣٧ .
(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٧ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ .

حددت هذه الشهادة مصير حجر وأصحابه ، فقد فكر معاوية فى العفو عنهم ، ولكن زيادا بعث برسالة جاء فيها : « عجبت لاشتباه الأمر عليك مع شهادة أهل مصرهم عليهم وهم أعلم بهم ، فان كنت لك حاجة فى هذا المصر فلا تردن حجرا وأصحابه اليه » .

كان الانتقال من تأييد حزب الى آخر فى ذلك الوقت أمرا مألوفا عاديا ، مما يفسر لنا انتقال المختار من تأييد (العثمانية) الى العطف على الشيعة ثم اعتناق مذهب التشيع . وزياد بن أبيه خير مثال على التنقل بين الأحزاب المختلفة . فقد كان زياد فى مبدأ حياته السياسية من شيعة على بن أبى طالب وعاملا له على فارس . ولما تولى معاوية الخلافة أدرك أن زيادا خير من يعتمد عليه فى ارساء قواعد الدولة الأموية ، فقربه اليه واستلحقه واعتبره أخاه فأصبح يسمى (زياد بن أبى سفيان) وولاه حكم البصرة ثم ضم اليه الكوفة . ولم يجد زياد غضاضة فى الانتقال من تأييد حزب الشيعة الى تأييد الحزب الأموى ، بل حاول أن يحث حجر بن عدى على أن يحذو حذوه ، فقال له : « رأيت ما كنت تعرفنى به من حب على ووده ؟ فان الله قد سلخه من صدرى فصيره بغضا وعداوة . وما كنت تعرفنى من بغض معاوية وعداوته ؟ فان الله سلخه من صدرى وحوله حبا ومودة . انك ان تستقم تسلم لك دنياك ودينك »[1] .

---

(١) الأصبهانى : الأغانى ج ١٦ ص ٧ .

اعتناق المختار مذهب التشيع في عهد يزيد بن معاوية :

كانت مراوغة المختار لزياد وامتناعه عن توقيع الشهادة التى كانت بمثابة الحكم بالاعدام على حجر وأصحابه ، مظهرا لعطف المختار على الشيعة من جهة ، ومعارضة سلبية لسياسة معاوية وواليه زياد من جهة آخرى . فقد كان معاوية حاكما قويا استطاع أن يدير دفة الدولة لمصالحه وصالح الحزب الأموى ، كما استطاع واليه زياد أن يقبض على العراق بقبضة من حديد [١] ، واستطاع القضاء على ثورات الشيعة والخوارج ، ونشر الأمن والطمأنينة فى ربوع العراق ، بل كان اسمه كافيا لاثارة الرعب فى القلوب [٢] .

فلا عجب أن نرى المختار يركن الى الهدوء طوال خلافة معاوية ، فيخرج الى ضيعة له فى (خطرنيه) قرب الكوفة [٣] ، وينصرف الى أعمال الزراعة مع مواليه ، منتظرا الفرصة المناسبة للظهور على مسرح السياسة ، ولم يقدم من ضيعته الى الكوفة الا بعد قدوم مسلم بن عقيل بن أبى طالب مبعوثا من الحسين بن على لأخذ البيعة للحسين والتمهيد لقدومه الى الكوفة من الحجاز ، ففتح المختار أبواب داره بالكوفة لمسلم ودعا الشيعة الى البيعة له فأقبلت على بيته من كل حدب

---

(١) Sykes : Hist. of Persia, V. I, p. 345

(٢) Ockley : Hist. of the Saracens, p. 361

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٤ .

وصوب . ويجرنا الحديث عن الحسين ومسلم الى الحديث عن تطور حزب الشيعة ومبادئه فى العراق ، تلك المبـــادىء التى اعتنقها المختار واستمر يدافع عنها حتى لاقى حتفه ، وقـــد أدى هذا التطور الى تفكير الحســـين بن على فى اعلان الثورة ، واختيار الكوفة مكانا للثورة على الدولة الأموية .

كان هدف حزب الشيعة فى أول نشأته المطالبة بحق على بن أبى طالب فى الخلافة بعد الرسول ، ولمـــا تولى على الخـــلافة اعتبروه الوصى والامام ، فقد عينه الرسول بعده ، وأنه معصـــوم عن الكبائر والصغائر [1] وتطور حزب الشيعة بعد مقتل على ، فاقتصر نفـــوذ الحزب على بلاد العـــراق ، فكان بالحجاز أولاد الصحابة الذين لا يقرون الشيعة على مبادئهم [2] ، وبعد مقتل على تكون حزب ديموقراطى يتألف بصفة خاصـــة من العناصر العربية وانضم اليه عدد كبير من الموالى .

وقد أدت توليـــة يزيد بن معاوية الخلافة بعهد من أبيـــه الى تحول فى آراء الشيعة ، فقد نظرت الشيعة الى طريقة توليتـــه ومغزى تقلده مهام الخلافة وصفاته الشخصية نظرة لا تنطوى على اقتناع أو رضى . أما الطريقة التى وصـــل بهـــا يزيد الى الخلافة فهى تخالف رأى الشيعـــة فى الخـــلافة ، فهم يرون أن الحسن ثم الحســـين همـــا الخليفتان الشرعيان لعلى ، باعتبارهما

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

امامين ورثا هذه المرتبة فى رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفى العلوم والصفات الروحية التى اختصا بها ، وكل امام منهما وصى لسلفه الذى عينه باقراره الصحيح . وتعد الشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا ، ولذلك فانها لم تعترف بحق يزيد فى الخلافة ، ورأوا فى خلافته أمرا مخالفا للدين ومبادىء الشيعة السياسية .

رأت الشيعة فى تقلد يزيد الخلافة استمرارا للدولة الأموية التى كافحوا مؤسسها معاوية فى صفين . وهم وان سكتوا — الى حد ما — طوال خلافة معاوية ، فان ذلك نتيجة ما أشاعه زياد بن أبيه من ارهاب ، فقد قتل زياد الآلاف من الشيعة فى البصرة ، كما قتل حجر بن عدى زعيم شيعة الكوفة . ولكن موت الحسن مسموما أثار كوامن الثورة فى نفوس الشيعة فى أواخر حكم معاوية . ولكنهم لم يجرؤا على التعبير عن غضبهم الا بعد وفاة معاوية . كذلك أضعف موت الحسن آمال الشيعة فى توليه الخلافة بعد معاوية ، وكان معاوية قد تعهد له بذلك .

ثم جاءت خلافة يزيد رغم معارضة الشيعة ، ورأت الشيعة فى خلافته بقاء دمشق مقرا للحكم ، فلا مفر من أن تقف الكوفة حاضرة الشيعة بالعراق فى وجه دمشق حاضرة الأمويين . كما أن الشيعة لم ترض عن صفات يزيد الشخصية ، فقد كان معظمهم يتصفون بالزهد والتقوى ، بينما اشتهر يزيد بالانصراف الى اللهو والترف ورأت الشيعة أن كفاحهم ليزيد هو جهاد دينى

وأن موقفهم منه هو نفس موقف الرسول من الكفار حينما قام بالدعوة الى الاسلام [1] .

مسلم بن عقيل مبعوث الحسين بن على فى بيت المختار :

كان الحسين بن على يرى أن عليا وأولاده أحق بالخلافة من يزيد . وكره الحسين نزول الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ولكنه رأى أن خلافة معاوية أصبحت أمرا لا مفر منه ، فقد أجمع المسلمون فى عام ٤٠ هـ على بيعته ، فأمر الحسن شيعته بالركون الى الهدوء حتى تنتهى حياة معاوية ويعود الأمر الى الحسن ، كما وعده معاوية بذلك ، فقال لهم : « ليكن كل رجل منكم حلسا من أحلاس بيته مادام معاوية حيا ، فانها بيعة كنت والله لها كارها ، فان هلك معاوية نظرنا ونظرتم ، ورأينا ورأيتهم »[2] . وكان الحسين يشعر أن فى خروجه على طاعة معاوية نقضا لبيعته له من جهة ، وقضاء على حياته من جهة أخرى . فقد أرسل أهل الكوفة يدعونه اليهم فأبى ذلك عليهم . فراسلوا محمد بن الحنفية ، فقصد الحسين يستشيره ، فقال الحسين له : « ان القوم انما يريدون أن يأكلوا بنا ، ويستطيلوا بنا ، ويستنبطوا دماء الناس ودماءنا فأقام الحسين على ماهو عليه من الهموم ، مرة يريد أن يسير اليهم ، ومرة يجمع الاقامة

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٦٩ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١٧ .

عنهم » [١] . وأراد معاوية أن يسرى عن الحسين همومه ، فأغدق عليه الصلات والعطاء ، لعلها تنسيه أمله الضائع .

ولما أراد معاوية أن يعهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد فى سنة ٥٠ هـ للهجرة رحل الى الحجاز ليستطلع رأى أبناء الصحابة ، ولم يدع الى مجلسه الحسن والحسين ، فقد كان رأيهما معروفا سلفا . ولكن أبناء الصحابة الآخرين هبوا فى وجهه مما جعله يعدل عن رأيه الى حين ، ويعود أدراجه الى الشام . ثم مات الحسن ، فرأى معاوية أنه فى حل من عهده له ، وحاول أخذ البيعة لابنه يزيد من كبار الصحابة بالحجاز فامتنعوا عن مبايعته .

وتوفى معاوية وخلفه يزيد ، فلم يبايعه الحسين بالخلافة ، فقد كان يعتبر نفسه خيرا منه « أبا وأما ونفسا » [٢] . ولكن الحسين ، وقد رأى نفسه بالحجاز بين عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير بن العوام وغيرهم من أبناء الصحابة ، لم يجرؤ أن يستند فى حقه فى الخلافة كوارث لعلى وممثل للبيت العلوى ، ولكن كواحد من أبناء المهاجرين الذين اعتبروا أنفسهم « ولاة الأمر » [٣] . وكان الحسين فى حاجة الى تأييدهم ومناصرتهم ضد الخليفة الجديد .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦١ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥١ .

فلما بعث يزيد الى واليه بالمدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين، خرج الحسين سرا الى مكة ، ينتظر ما تأتى به الأيام .

أيقنت الشيعة بالعراق أن الفرصة قد حانت لاحياء الخلافة العلوية ونقل الحاضرة الى الكوفة . وأن الحسين وان كان قد أبى الخروج اليهم بالأمس احتراما لبيعة معاوية ، فانه بعد تولية يزيد يلبى دعوتهم . وقد نعجب فى أن تدعو الشيعة الحسين ليولوه الخلافة فى العراق رغم وجود خليفة آخر بالشام . ولكن العجب يزول اذا علمنا أن بعض الشيعة كانوا يرون جواز «كون امامين وثلاثة وأكثر من ذلك فى البلدان المتقاربة فى وقت واحد، وأن الامامة لا يستحقها الا الفاضل الذى يعرف فضله وتقدمه على جميع الأمة فى خلال الخير» (١) .

ولما علم أهل الكوفة بوفاة معاوية وخروج الحسين الى مكة اجتمعت الشيعة فى منزل سليمان بن صرد وكتبوا للحسين يدعونه للقدوم الى الكوفة ، ووعدوا بطرد الوالى الأمير النعمان ابن بشير ، وهو والد زوجة المختار ، وتتابعت كتب أشراف الكوفة حتى بلغت خمسين كتابا (٢) .

وأمام هذه الكتب المتلاحقة ، وأمام وعود أهل الكوفة الخلابة ، رأى الحسين أن يستجيب لدعوتهم ويشخص اليهم ولكنه أراد أن يتحقق من صدق مقالتهم ، فرأى أن يرسل اليهم

---

(١) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥١ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٣ .

ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليمهد له الطريق ويعرف أهواء الناس .

قدم مسلم الى الكوفة ، وقصد من توه الى دار المختار الذى كان قد قدم من ضيعته فى (خطرنيه) مع مواليه الى الكوفة بعد اضطراب الأمر بوفاة معاوية ، ليرقب تطور الأحداث . وقد تتساءل عن سبب اختيار مسلم لدار المختار دون غيرها من الدور ، رغم وجود كثير من زعماء الشيعة بالكوفة ، ورغم أن المختار لم يوجه الدعوة كتابة للحسين بالقدوم الى الكوفة .

ومن اليسير أن نجيب عن هذا السؤال ، فقد كان مسلم صديقا حميما للمختار ، وارتبط الرجلان بالمودة منذ نعومة أظفارهما . ولولا أن مسلما شعر بأنه سيجد الأمان فى دار المختار لما قصدها ، ولولا أنه يثق فى اخلاص المختار للبيت العلوى ومبادىء الشيعة لما حل عليه ضيفا . كما أننا نضيف عاملا آخرا نستطيع أن نستنتجه مما نعرفه عن حياة المختار الشخصية ، فقد كان المختار زوجا لعمرة بنت النعمان بن بشير والى الكوفة حينئذ ، ولا شك أن يد النعمان لن تمتد الى مسلم طالما هو مقيم فى دار صهره المختار .

أصبحت دار المختار — وكانت تسمى دار مسلم بن المسيب — مقصدا للشيعة من كل مكان ، حتى اذا اجتمع عدد كبير من الشيعة ، قرأ مسلم عليهم كتاب الحسين بن على ، وجاء فيه أنه مجيبهم الى مايريدون ان لزموا العهد وتدرعوا بالصبر

على مكافحة أعدائهم . فأخذوا يبكون ، وقام أحد الشيعة ، وهو عابس بن أبى شبيب اليشكرى فقال لمسلم : « أما بعد فانى لا أخبرك عن الناس ولا أعلم مافى أنفسهم وما أغرك منهم والله ما أحدثك عما أنا موطن نفسى عليه ، والله لأجيبنكم اذا دعوتم ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفى دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك الا ما عند الله »[1] . وتتابع الخطباء يعلنون تأييدهم للحسين بن على ويحثونه على القدوم الى الكوفة .

وتمضى وفود الشيعة على دار المختار يرحبون بمسلم بن عقيل ويبايعونه . ويشبه أحد المؤرخين الشيعيين[2] البيعة التى أخذها مسلم من الكوفيين بالبيعة التى أخذها رسول الله من الأوس والخزرج فى العقبة الثانية ، وفى يوم الفتح ، والتى أخذها من المسلمين يوم الغدير ، والتى أخذها على بن أبى طالب يوم بويع بالخلافة ، والتى أخذها الحسن بن على من أهل الكوفة بعد استشهاد أبيه علىّ ، وتدور حول الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسمة الفىء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم الى أهلها ونصرة أهل البيت على من نصب لهم العداوة والبغضاء وجهل حقهم . والمسالمة لمن سالموا ، والحرب لمن حاربوا ، من

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٤ .

(٢) المقرم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٠٣ .

دون رد لقولهم ، ولا تخطئة لفعلهم ، ولا تفنيد لرأيهم . وبعد أن أخذ مسلم البيعة من الشيعة ، كانوا يمسحون أيديهم على يده يهتفون بالرضا والتسليم ، على غرار ماكان يفعله الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وقريش يوم الفتح، وبلغ عدد من بايعوا مسلما ثمانية عشر ألفا أو خمسة وعشرين ألفا ، وفى حديث الشعبى أنهم أربعون ألفا .

وكان مما ساعد مسلم بن عقيل على نجاح مهمته أن النعمان ابن بشير والى الكوفة ، لم يبادر الى الضرب على أيدى الشيعة ، فقد كان كما وصفه الطبرى [1] « حليما ناسكا يحب العافية ». ولذا نراه « يضرب صفحا ولا يعبأ به » . ولكن بعض الأمويين لم يعجبهم سكوت النعمان عن هذه الفتنة وهى تستفحل يوما بعد يوم ، فاتهموه بالضعف ، ولكنه دافع عن نفسه فقال : «أن أكون ضعيفا وأنا فى طاعة الله أحب الى من أن أكون قويا فى معصية الله ، وما كنت لأهتك سترا ستره الله » .

وكتب بنو أمية بالكوفة الى الخليفة يزيد بن معاوية فى دمشق يشكون اليه واليه النعمان بن بشير ، ويتهمونه بالضعف أو التظاهر بالضعف ، ويبينون له خطورة الموقف . ويرى يزيد أن يعزل النعمان ، وقد استشار أصحابه فيمن يولى بدله ، فأشاروا عليه جميعا بعبيد الله بن زياد بن أبيه والى البصرة ، فرفض يزيد ذلك الاقتراح لكراهيته لعبيد الله ، ولكنه سرعان

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٦٤ .

ما خضع لرأيهم ، فقد كان ابن زياد الشخص الوحيد الذى يمكنه الوقوف فى وجه الحسين بن على [1] .

بعث الحسين بن على الى زعماء شيعته بالبصرة وأشرافها كتبا من نسخة واحدة ، جاء فيها : « أما بعد فان الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على خلقه وأكرمه بنصرته واختاره لرسالته ثم قبضه الله اليه ... وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه ورثته وأحق الناس بمقامه فى الناس ، فاستأثر علينا مؤمنا بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه » . وكتم أشراف البصرة كتب الحسين عدا المنذر بن الجارود الذى خشى أن يكون الكتاب دسيسة من قبل ابن زياد فأطلعه عليه ، فقتل ابن زياد رسول الحسين ، ووقف خطيبا يحذر أهل البصرة من الفتنة ، ثم خرج الى الكوفة ليقضى على مسلم بن عقيل كما أمره الخليفة يزيد .

خروج مسلم من دار المختار إلى بيت هانئ بن عروة :

خرج عبيد الله بن زياد الى الكوفة ، بعد أن استخلف أخاه عثمان على البصرة . ولما دخل الكوفة ملثما ظنه أهلها الحسين ابن على ، فكانوا يوجهون اليه التحية والسلام .

غادر مسلم بيت المختار ولجأ الى دار هانىء بن عروة المرادى . ويفسر المؤرخ الطبرى [2] هذا الانتقال بقدوم ابن زياد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٧٠ .

الى الكوفة واعلانه أنه سيقتل مسلما ، فلجأ مسلم الى هانىء وطلب منه أن يجيره وينجده . وكره هانىء ايواء مسلم ولكنه اضطر الى نجدته وقال : رحماك الله لقد كلفتنى شططا ، ولولا دخولك دارى وثقتك لأحببت ولسألتك أن تخرج عنى ، غير أنه يأخذنى من ذلك ذمام وليس مردود مثلى على مثلك من جهل .

ويعلل كاتب شيعى [1] انتقال مسلم من دار المختار الى دار هانىء ، بأن مسلما قد بلغه خطبة ابن زياد ووعيده ، وقد ظهر له حال الناس وخوفهم من ابن زياد ، فخشى مسلم أن يؤخذ غيلة ، فخرج من دار المختار بعد الظلام ، الى هذا الزعيم الكبير ، لعلمه بمكانته فى المصر ، وشرفه فى العشيرة ، وأنه مهاب الجانب أكثر من المختار ، مع ولائه الصميم وعقيدته الراسخة ، وكان هانىء من كبار شيعة على بن أبى طالب .

لم يكن المختار قد كون بعد حزبه السياسى ، ولم تكن له بعد عصبية قوية فى الكوفة تكفى لحماية مسلم ، كما أن والد زوجته النعمان بن بشير والى الكوفة كان قد عزله الخليفة يزيد ابن معاوية ، ففقد المختار العوامل التى جعلت مسلم يختار داره ملاذا .

ويعتبر هانىء من أبرز أشراف الكوفة وقرائها وله ولعشيرته منزلة عظيمة فى الكوفة ، وهو شيخ بنى مراد التى يحالفها كثيرون من بنى كندة ، وكان من المقربين للخليفة على بن أبى طالب وحضر معه حروبه وأبلى فيها بلاء حسنا .

---

(١) المقرم : الشهيد مسلم بن عقيل ص ١٢٩ .

علم ابن زياد أن مسلم بن عقيل يختبىء فى بيت هانىء بن عروة المرادى ، فأرسل من يطلب هانئا ، وكان هانىء مقداما ثابت الجنان ، فجرؤ على أن ينصح ابن زياد بمغادرة العراق فقال : تشخص الىأهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فانه قد جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك (١) . على أن ابن زياد ما لبث أن كافأ هانئا على نصيحته بقتله .

كان المختار جريئا اذ فتح باب داره أمام مسلم بن عقيل وجعلها مقصدا للشيعة من كل أرجاء العراق . وكان المختار مؤمنا بمبادىء الشيعة متحمسا لدعوة الحسين بن على . ولم يطلب المختار من مسلم أن يغادر داره الى بيت هانىء بن عروة ، بل خرج مسلم من نفسه ، فقد ظن أنه يجد عند هانىء الأمان والنجدة . ولو طال بقاء مسلم فى دار المختار لكان مصير المختار هو مصير هانىء .

وتناهى الى أسماع مسلم بن عقيل ما حل بمضيفه هانىء ، فخرج للانتقام والثأر ، وصحبه ثلاثون ألفا من أهل الكوفة ، وحاصر ابن زياد فى قصره ، وكان فى ثلاثين من وجوه الكوفة ، فأمر ابن زياد أصحابه أن يشرفوا من أعلى القصر « ويمنوا أهل الطاعة ويخذلوا أهل المعصية حتى أن المرأة ليأتى ابنها أو أخوها فتقول انصرف ان الناس يكفونك ! » (٢) . وتضاءلت الآلاف الثلاثون حتى أصبحت ثلاثين رجلا فقط . حتى اذا صلى بهم

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٩ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ .

مسلم صلاة العشاء ألفى نفسه وحيدا . فالتجأ الى بيت قريب ، ولكن سرعان ماعرف ابن زياد مخبأه فقبض عليه وأمر بالقائه من أعلى قصر الامارة ، فسقط مضرجا فى دمائه ، ثم صلبه ، فكان « أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم » [1] .

نجح عبيد الله بن زياد فى مهمته وقضى على أركان الحزب العلوى لسببين رئيسيين : أولهما اتباعه سياسة الشدة والارهاب والاعدام لمجرد الظن والتهمة ، واعلان الأحكام العرفية فى كل من البصرة والكوفة ، ثم انه أحسن كل الاحسان الى مريديه وأتباعه .

أما السبب الثانى ، الذى مهد السبيل لنجاح ابن زياد فى العراق ، فهو بذله الأموال للأشراف من أهل الكوفة أنفسهم ، ومعظمهم قد تعاهدوا وأقسموا الايمان المغلظة على نصرة الحسين بن على ، وللفرزدق الشاعر شهادة فى الكوفيين تؤيد لنا طمع الأشراف فى الدرهم وعبادتهم للدينار ، واهتمامهم بمصالحهم قبل غيرها . فقد سأل الحسين الفرزدق عن أحوال الناس فى الكوفة فأجاب : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء [2] .

وخلاصة القول ، أن الجماعات التى أقامها النكير على بنى أمية وراسلت الحسين وأكدت له اخلاصها وذرفت أمام مسلم أعز دموعها هى الجماعات التى ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٩ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٨ .

والدينار . وقد ابتاعها فيما بعد مصعب بن الزبير فتخلوا عن المختار وتركوه وحيدا يلقى حتفه ، ثم اشتراها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فتخلوا عن مصعب وتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك .

موقف المختار من مأساة الحسين فى كربلاء :

علم الخليفة يزيد بن معاوية بمصرع مسلم بن عقيل ، فبعث الى عبيد الله بن زياد يأمره أن يكمل ما بدأه فيقتل أيضا الحسين ابن على [1] . وكان مسلم بن عقيل ، قد كتب الى الحسين بن على بعد أن شاهد اقبال الشيعة عليه فى دار المختار بن أبى عبيد ثم فى دار هانىء بن عروة : « ان الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، فاقدم ، فان جميع الناس معك ولا رأى لهم فى آل أبى سفيان » [2] . وكتب مسلم هذه الرسالة قبل مغادرته دار المختار ، وقبل مصرع هانىء ، وتناسى أهل الكوفة وعودهم وتخليهم عن هانىء ثم مسلم .

فخرج الحسين من مكة قاصدا الكوفة فى ٨ ذى الحجة سنة ٦٠ هـ وحاول الكثيرون أن يثنوه عن عزمه ويذكروه بتخلى الشيعة عن أبيه وأخيه من قبل ، ولكنه لم يستمع الى

(١) أنظر نص الخطاب فى تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٢١٣ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٦ .

نصائحهم وأصر على الرحيل . وعندما بلغ القادسية علم بمقتل مسلم فآثر العودة . ولكن اخوة مسلم أصروا على السير قدما للأخذ بثأره [1] . وأرسل ابن زياد قائده عمر بن سعد بن أبى وقاص لقتال الحسين ولكنه تباطأ فى قتاله ، فبعث شمر بن ذى الجوشن والحصين بن نمير وشبث بن ربعى فى جيش عدته عشرون ألفا ما بين فارس وراجل ليقاتلوا الحسين وكان فى تسعين نفسا ما بين رجل وامرأة وطفل وقاتلهم الحسين فى كربلاء فى شجاعة وبسالة حتى لقى مصرعه [1] .

ويسدل الستار على هذه المأساة التى شهدتها كربلاء . فما موقف المختار منها ؟ وهل يهب لينجد الحسين ويدفع عنه مصيره المؤلم ؟

كان المختار الى ذلك الحين فردا لم يكون حزبا ولم يكن له مؤيدون أو جماعة سياسية ، وان كان له منزلته بين أشراف الكوفة ، ومكانته فى قلوب الشيعة ، وخاصة بعد نزول مسلم ابن عقيل مبعوث الحسين فى داره . لهذا لم تكن الفرص مواتية للمختار لأن يمد المساعدة بطريقة عملية ناجعة للحسين أو يغير من مصيره المحتوم ، فقد تجمعت جميع العوامل والظروف لترسم مأساة كربلاء ، وكان ما لاقاه الحسين نتيجة لكثير من الأخطاء التى ارتكبتها الشيعة ، أو الجوانب التى أغفلها الحسين، فلم يكن فى وسع المختار أن يتلافاها أو يصلح من أمرها شيئا ، وكانت جميع التيارات السياسية تدفع بالحسين الى نهايته المؤلمة.

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٠ .

ولا شك أن شيعة العراق يتحملون الجانب الأكبر من دماء الحسين ، فشيعة البصرة لم تحرك ساكنا ، ولفت الحسين نظرهم الى ذلك ، ولكنهم استمروا فى استكانتهم . أما شيعة الكوفة وهم الذين راسلوا الحسين ، فقد كان زعيمهم سليمان بن صرد، وهو أعلم الناس بهم ، غير مطمئن الى ثباتهم على موقفهم . ولم تمهد الشيعة الأمور قبل قدوم الحسين اليهم ، فلم يتخلصوا من أمرائهم ولم يطردوا بنى أمية ، ونرى هذا واضحا فيما قاله عبد الله بن عباس بن عبد المطلب للحسين : أتسير الى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فانما دعوك الى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك !! [1] .

لم تكن الظروف مواتية لقدوم الحسين ، فكما تخلت الشيعة عن مسلم تخلت أيضا عن الحسين ، فقد تفرقوا عنه وامتنعوا عن مؤازرته « حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة » [2] . فلما ذكرهم الحسين بالكتب التى كانوا يرسلونها ، والتى بلغت الخمسين عددا قالوا : انا والله لا ندرى ما هذه الكتب التى تذكر !! فأخرج الحسين خرجين مملوءين صحفا فنثرها بين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٦ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٥ .

أيديهم [1] . وقد أدرك الحسين خذلان الشيعة فطلب من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة التفرق عنه ، لأنهم « انما اتبعوه لأنه يأتى بلدا قد استقامت له طاعة أهلها فكره أن يسيروا معه الا وهم يعلمون على ما يقدمون » [2] .

وقد وصف أحد الشيعة حال شيعة الكوفة للحسين فقال : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم ... وأما سائر الناس بعد فان أفئدتهم تهوى اليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك » [3] . وقد صدق هذا فى قوله ، فقد نسيت الشيعة حقوق آل البيت بما كانت تغمرهم به الحكومة الأموية من أعطيات وأرزاق ، فدانوا لها بالخضوع والطاعة .

ولم يهتم الحسين بتنظيم دعوته ونشرها بين الناس ، وأغفل عنصر الدعاية اللازمة للحروب ، فظن أن القوم سيقدمون على بيعته ويتهالكون فى نصرته لانتسابه الى رسول الله ، ولكن الحياة جهاد ، والقوى هو السباق الى اكتساب ولاء الناس اما ببذل الأموال لهم واشراكهم فى بعض المطامع الدنيوية ، واما باسناد المناصب العالية لأشرافهم وزعمائهم كما فعل الأمويون . ونرى هذا واضحا فيما قاله عمر بن عبد الرحمن بن الحرث للحسين : « لقد بلغنى أنك تريد العراق وانى مشفق عليك انك

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٢٠ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٦٩ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٢٣ .

تأتى بلدا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ، وانما النـاس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليـك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه [1] .

ولا شك أن هذه الظروف التى أوضحناها تبرر عجز المختار عن مد يد المساعدة الحاسمة الى الحسين ، وقد ذكرنا أنه لم يكن قد كون حزبه السياسى بعد ، فتكون مساعدته اذن مجهـودا فرديا محدود الفائدة ، وان كان المختار قد بذل كل جهده فعلا . ويرى ابن خلدون [2] أن هزيمة الحسـين كانت أمرا محتوما ، لأن الحسين لم يكن له الشوكة التى تمكنه من هزيمة الأمويين «لأن عصبية مضر كانت فى قريش ، وعصبية قريش فى عبد مناف وعصبية عبد مناف فى أميـة تعرف ذلك لهم قريش وسـائر الناس لا ينكرونه » وكان المسلمون يتوقعون فشـل حـركة الحسين وقتله ، فيقول ابن العـربى [3] : « لولا معرفة أشياخ وأعيان الأمة بأن أمرا صرفه الله عن أهل البيت ، وحالا من الفتنة لا ينبغى لأحد أن يدخلها ما أسلموا أحدا » .

قد نجد العذر للشيعة اذ لم يقدموا يد المساعدة للحسين ، اذا علمـنا السياسة الارهابية التى اتبعها عبيـد الله بن زياد ، وما ارتكبه من قتل وتعذيب ، فقد سجن اثنى عشر ألفـا من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢ .

(٣) العواصم من القواصم ص ٢٣٢ .

الشيعة ، ولم يترك واحدا من زعمائهم طليقا ، وهددهم بقدوم جيوش الشام .

ولكن المختار بذل كل ما يستطيع بذله فى الدفاع عن مسلم ابن عقيل بن أبى طالب أولا ثم عن الحسين بن على بن أبى طالب أما عن تأييده لمسلم ، فقد مر بنا كيف فتح المختار داره أمام مسلم وشيعته ، ويذكر المؤرخ ابن كثير [1] : « فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان وقتله ابن زياد ، كان المختار يومئذ بالكوفة فبلغ ابن زياد أنه يقول : لأقومن بنصرة مسلم ولآخذن بثأره ! فأحضره بين يديه وضرب عينه بقضيب كان بيده ، وأمر بسجنه » .

أما عن مساعدة المختار للحسين ، فيذكر المؤرخ اليعقوبى [2] : « وكان المختار بن أبى عبيد الثقفى أقبل فى جماعة عليهم السلاح يريدون نصر الحسين بن على عليه السلام ، فأخذه عبيد الله فحبسه وضربه بالقضيب حتى شتر عينه ، فكتب فيه عبد الله بن عمر — ابن الخطاب — الى يزيد بن معاوية ، وكتب يزيد الى عبيد الله — ابن زياد — أن خل سبيله ، فخلى سبيله ، ونفاه ، فخرج المختار الى الحجاز ، فكان مع ابن الزبير » .

وهكذا قام المختار بواجبه نحو كل من مسلم بن عقيل والحسين بن على على قدر استطاعته ، وحسب ماسمحت

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥ .

الظروف السياسية ، وقد لحق الأذى بالمختار نتيجة تأييده لهما ، فقد شتر ابن زياد عينه وألقاه بالسجن ، ثم أخرجه منفيا شريدا من العراق .

استفاد المختار من بعض العيوب التى شابت حركة الحسين بن على . فقد اهتم المختار بعنصر الدعاية لحركته بكل الوسائل ، فخاطب عواطف الناس كما خاطب عقولهم . وبدأ حركته السياسية بأن تخلص من ولاة الأمويين بالعراق والسيطرة على بيوت الأموال ، وأصبح صاحب النفوذ الأول ، مما مهد له الطريق لأن ينشر دعوته وتلاقى فيما بعد النجاح المنشود . كما أغدق المختار الأموال والصلات والمناصب على أهل العراق فأقبلوا على نصرته والتخلى عن تأييد الأمويين .

كان مصرع الحسين بن على ، حفيد الرسول ، صدمة عنيفة مست مشاعر المسلمين فى كل مكان ، فأثارت عطفهم على الحسين وآل بيته وشيعته ، وأصبح المسلمون لا يرون ما يمسح أحزانهم أو يخفف من آلامهم سوى الأخذ بثأر الحسين من قتلته . ورأى المختار أن يكون هو القائد الذى يقود الشيعة للأخذ بثأر الحسين ويشفى غليل المسلمين والشيعة ، وأصبح الأخذ بثأر الحسين الأساس الأول للحركة السياسية التى قام بها المختار فى بلاد العراق .

المختار وزير عبد الله بن الزبير بالحجاز :

نفى المختار من العراق ـ موقف الحجاز من يزيد ابن معاوية ـ موقف ابن الزبير من يزيد والحسين بن علي ـ بين المختار وابن الزبير فى الحجــــاز ـ موقف عبد الله ابن عمر صهر المختار من ابن الزبير ـ النعمان بن بشير صهر المختار مبعوث يزيد الى المدينة ـ المختــــار وزير ابن الزبير ـ المختار يذود عن الكعبة ـ المختار ينبذ طاعة ابن الزبير ـ المختار يلتقى بابن الحنفية قبل رحيله الى العراق ٠

الفصل الثالث

المختار وزير عبد الله بن الزبير بالحجاز :

نفى المختار من العراق :

أصبح المختار فى خلافة معاوية بن أبى سفيان يعتنق مذهب الشيعة ، ويمد يد المساعدة لزعماء الشيعة ، فرأيناه يفتح داره أمام مسلم بن عقيل حيث تلقى بيعة الشيعة ، ويبذل كل جهد لمعاونته ، ثم يجمع أنصاره ويخرج لمساعدة الحسين . ولكن عبيد الله بن زياد ، والى الكوفة الأموى ، لم يرض عن تصرفات المختار ، فأمر بالقبض عليه ، وأتت به الشرطة أمامه ، فضرب ابن زياد المختار بقضيب كان فى يده على عينه فشترها ، وأمر بالقائه فى السجن .

ولما علمت أخت المختار وهى زوجة عبد الله بن عمر ابن الخطاب بسجن أخيها ، طلبت من زوجها أن يعمل على الافراج عنه ، فكتب ابن عمر الى الخليفة يزيد بن معاوية يشفع فى المختار ، واستجاب يزيد لطلبه ، فقد كان لابن عمر شأن بين المسلمين ، وكتب يزيد الى ابن زياد يأمره بالافراج عن

المختار . واضطر ابن زياد الى طاعة أمر الخليفة ، فأطلق سراح المختار ، ولكنه قرر تفيه خارج العراق وأمهله أن يغادره فى خلال ثلاثة أيام ، والا ضرب عنقه بعدها ، وخرج المختار من العراق الى الحجاز وهو يقول : والله لأقطعن أنامل عبيد الله ابن زياد ، ولأقتلن بالحسين بن على عدد من قتل بدم يحيى ابن زكريا [1] . وبر المختار بقسمه ، فقد لقى ابن زياد مصرعه على يد المختار ، كما نجح المختار فيما بعد فى قتل كل من اتهم بالاشتراك فى قتل الحسين بن على فى كربلاء .

ويروى بعض المؤرخين [2] قصة طريفة حول المختار خلال وجوده فى سجن ابن زياد ، تدور حول نبوءة قيام المختار بطلب الثأر للحسين . فقد كان فى السجن مع المختار رجلان ، هما ميثم التمار ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وآمن المختار وعبد الله بن الحارث بأن ابن زياد سيقدم على قتلهم جميعا ، وأخذا يستعدان للقاء الموت . ولكن ميثم التمار تنبأ لهما بأنه سيطول البقاء لهما ، فيتولى ابن الحارث حكم البصرة ، أما المختار فتنبأ له بأنه سيعيش حتى يقتل ابن زياد ويأخذ بثأر الحسين ، فقال ميثم للمختار : وأنت تخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام فتقتل هذا الذى يريد قتلنا وتطأ بقدميك على وجنتيه . وتحققت النبوءة تماما كما ذكر ميثم .

خرج المختار قاصدا الحجاز ناجيا بحياته ، وفى الطريق لقى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .
(٢) الحديدى : رسالة أخذ الثأر وشرح النهج ج ١ ص ١١٠ .

رجلا يدعى ابن العرق ، فروى له المختار كيف ضربه عبيد الله ابن زياد على عينــه فشترها ، ثم قال له : قتلنى الله ان لم أقطع أنامله وأعضاءه اربا اربا ، يابن العرق ، ان الفتنــة قد أرعدت وأبرقت وكأنها قد انبعثت فوطئت فى خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل ان المختار فى عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشــهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن على . فقال ابن العرق : سبحان الله ، وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى . فقال المختار : هــو ما أقول لك فاحفظه عنى حتى ترى مصداقه .

ثم سأل المختار ابن العرق عن أحوال الحجاز ، وعن أحوال عبد الله بن الزبير بن العوام ، فعلم المختار منه أن ابن الزبير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك قطعا حينما يشعر بأن لديه قوة كافية . وسأل المختار ابن العرق عن ابن الزبير فأجاب ابن العــرق : انه عائذ بالبيت وانه يبايع سرا ، ولو اشــتدت شوكته وكثر رجاله لظهر . فقال المختار : انه رجل العرب اليوم، وان اتبع رأيى أكفه أمر الناس ، ان الفتنة أرعدت وأبرقت [١] .

وطال العمر بابن العــرق حتى اذا كانت أيام الحجــاج بن يوسف الثقفى بالعراق فى خــلافة عبد الملك بن مروان وابنــه الوليد ، قص ابن العرق على الحجاج ما دار من حديث بينه وبين المختار ، فعلق الحجاج على حديث المختــار وقال عنه : لله دره أى رجل دنيا ومسعر حرب ومقارع أعداء ! . وكان المختــار

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧١ .

والحجاج يختلفان فى السياسة وان كانا يتفقان فى الانتساب الى قبيلة ثقيف ، فكان الحجاج سيف بنى مروان وعضد الدولة الأموية ، بينما كان المختار سيف الشيعة وعضد البيت الهاشمى والعلوى .

وكان هناك كثير من المسلمين يعترضون على تولية الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ، فالى جانب غضبهم من أن الخلافة أصبحت ملكية وراثية ، وكأنها تحولت الى كسروية أو قيصرية، فقد كانت صفات يزيد وأخلاقه لا ترضى المسلمين ، ولا يمكن لهم مقارنتها بما كان عليه الخلفاء الراشدون ، بل معاوية نفسه .

موقف الحجاز من خلافة يزيد بن معاوية :

اختار المختار بلاد الحجاز ليقصدها بعد نفى ابن زياد له من العراق ، وكان لمعارضة الحجاز للدولة الأموية وموقفه من خلافة يزيد بن معاوية من الدوافع التى جعلت المختار يختار الحجاز دون غيره من الأمصار .

بويع يزيد على أثر وفاة أبيه معاوية بن أبى سفيان ، وكان اعتلاؤه عرش الخلافة خروجا على مبادىء الشورى التى تقضى باختيار الخليفة ، وهى المبادىء التى افتتن بها العرب افتتانا جعلهم يتجاهلون حق أسرة الرسول فى زعامة المسلمين الروحية والدينية . ومنذ ذلك الحين أخذ الخليفة يوصى لمن يتولى

الخلافة من بعده ، وقد ضمن أن البيعة التى قام بهـــا الجنود ووفود الأمصار لن تلقى شيئا من المعارضة بعد وفاته .

وعندما شعر معاوية بقرب منيته استدعى ابنه يزيد وأوصاه وصيته الأخيرة ، فرسم له طريقة معاملة أهل الأمصار وكبـار الشخصيات الاسلامية وأوصاه خيرا بأهل الحجـاز اذ يقول : « أنظر أهل الحجـاز فانهم أهلك فأكرم من قـدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب » . ثم حذره من ثلاثة أشخاص : عبد الله ابن عمر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير . ولكن ابن عمر قد تقدمت به السن وانصرف الى الدين والعبادة . وأما الحسين فلا يظهر خطره الا اذا دعاه أهل العراق ، أما ابن الزبير فأشدهم خطرا على يزيد فيقول معاوية : « وأما الذى يجثم لك جثـوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعله بك فظفرت به ، فقطعه اربا اربا » (١)

كان هم يزيد منذ أصبح خليفة للمسلمين ، أن يأخذ البيعة من الأمصار ، فلبت نداءه ، ولم يستعص عليه سوى بلاد الحجاز حيث يعيش أبناء الصحابة ، الذين استطاعوا أن يجمعوا رأى آهالى الحجاز على معارضة البيعة ليزيد « فلم تكن ليزيد همة الا بيعة هؤلاء النفر » (٢) ، وخاصـة الحسـين بن على بن أبى طالب وعبد الله بن الزبير بن العوام ، ولذا طلب يزيد من واليه بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أن يأخذ البيعـة منهما .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

وبعث الوليد الى الحسين وابن الزبير يستدعيهما اليه ، فاتفق الرجلان على أن يذهب الحسين الى الوليد ليتبين سر الدعوة ، وفوجيء الحسين بنبأ وفاة معاوية ، وطالب الوليد بالبيعة ليزيد، فقال : أما البيعة فان مثلى لا يبايع سرا ، ولا يجتزى بها منى سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا [1] .

موقف ابن الزبير من يزيد والحسين بن على :

خرج المختار من العراق الى الحجاز حيث كان عبد الله ابن الزبير يقود حركة معارضة ضد الدولة الأموية . وقنع المختار أن يكون وزير ابن الزبير ، وأن يتناسى أطماعه وآماله فى أن يصبح الرجل الأول ، قانعا بأن يلعب الدور الثانى فى الأحداث السياسية فى الدولة العربية الاسلامية . وكان لموقف ابن الزبير من كل من الخليفة الأموى يزيد بن معاوية ، والحسين بن على ، أثره فى موقف المختار من ابن الزبير . فقد أعلن المختار نبذه لطاعة الأمويين من جهة ، كما كان داعيا من دعاة الحسين بالعراق ، وأعلن أنه يأخذ بثأره من قتلته ، من جهة أخرى .

طلب الوالى الأموى بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان من ابن الزبير أن يبايع ليزيد بعد وفاة معاوية ، فوعده بالحضور ، لكنه أسرع الى داره فكمن فيها متحرزا بأنصاره ،

---
(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦ ــ ٧ .

وفى جنح الليل خرج هاربا الى مكة . وفى اليوم التالى لحق به الحسين بن على الى مكة دون أن يبايع ليزيد ، بينما بايع كل من عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب . وفى مكة ، وجد ابن الزبير الأمن والطمأنينة التى افتقدها فى المدينة ، واستطاع أن يكسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « أنا عائذ البيت » . ولكن والى المدينة الجديد عمرو بن سعيد بن العاص — الذى خلف الوليد وقد عزله يزيد لتهاونه مع الحسين وابن الزبير — شن حربا شعواء على ابن الزبير ، فولى على شرطته عمرو بن الزبير الذى كان يحقد على أخيه عبد الله بن الزبير ، فتتبع أنصاره فى كل مكان ، وكان من بينهم أخوه المنذر بن الزبير وولده محمد [1].

ورأى ابن الزبير التفاف المسلمين حول الحسين الذى نجح فى تحريك عاطفتهم الدينية وأخذ فى استغلالها لتحقيق مطامعه السياسية . ورأى أن يجد طريقا آخر — غير طريق القرابة من الرسول — يحرك به عاطفة المسلمين الدينية ، لعل ذلك يساعده فى تنفيذ سياسته ، فكان أن لاذ بالكعبة وسمى نفسه (العائذ بالبيت) ، وقام يصلى بجوار الكعبة ليلا ونهارا ، يطيل السجود ، ويكثر من التسبيح ، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه .

وشعر ابن الزبير بعظم مركز الحسين وتفوقه عليه ، وقد

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨ .

صور المؤرخ ابن كثير[1] الموقف بقوله : « وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز ، فاشتهر أمره وبعد صيته ، ومع هذا كله ليس هو معظما عند الناس مثل الحسين ، بل الناس انما ميلهم الى الحسين لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه » . ولذا كان ابن الزبير ممن يفدون على الحسين ويجلسون اليه ، اذ كان تباعده عنه مما يغضب المسلمين .

سنحت الفرصة لابن الزبير حين أرسلت شيعة الكوفة الى
الحسين ويجلسون اليه ، اذ كان تباعده عنه مما يغضب المسلمين .
على أن ابن الزبير شجع الحسين على الخروج الى العراق حيث لاقى حتفه . فيذكر ابن الأثير [2] أن الحسين استشار ابن الزبير فى الرحيل فقال ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت عنها . ويقول البياسى [3] ان الحسين كان « أثقل خلق الله على ابن الزبير ، وقد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه مادام حسين بالبلد » . ويذكر (أوكلى) [4] أن ابن الزبير كان مقتنعا تماما بأن كل جهوده ستضيع عبثا طالما بقى الحسين على قيد الحياة ، ولكن اذا أصابه مكروه فان طريق الخلافة سيكون ممهدا له .

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط بدار الكتب) ج ٢ ص ٨ .

(٤) The Hist of The Saracens, P. 397

أدرك الحسين أن رحيله يرضى أطماع ابن الزبير ، فقال الحسين عنه : ان هذا ليس شيء فى الدنيا أحب اليه من أنه أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بى ، فود أنى خرجت حتى يخلو له . وقال عبد الله بن عباس للحسين : لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر اليه أحد منك [1] .

ولئن كان خروج الحسين يحقق مصالح ابن الزبير ، الا أننا نرى أن نصيحة ابن الزبير لم يكن لها أثر فى عزم الحسين على الرحيل الى العراق ، كما رأينا من عبارته التى علق بها على نصيحة ابن الزبير ، الى جانب ما ذكرنا من العيوب التى شابت حركة الحسين مما أدى الى اخفاقها .

لا شك أن ابن الزبير قد استفاد من مصرع الحسين ، فقد خلا الجو له وأكمل مواطن النقص فى حركة الحسين .

وأبرز هذه المواطن اكتفاء الحسين بابداء معارضته لخلافة يزيد بن معاوية وامتناعه عن البيعة له ، ولكنه لم يبادر بأخذ البيعة لنفسه ليظهر أمام المسلمين بمظهر الخليفة صاحب الحق الشرعى . ولو أنه فعل لسارع الناس الى بيعته ودانت له الأمصار جميعا . ولكن امتناعه عن أخذ البيعة ، جعل بعض الناس ينظرون اليه باعتباره خارجا على الخليفة الشرعى ، كما أتاح الفرصة ليزيد لأن يقتله بحجة القضاء على الفتنة التى تهدد كيان الدولة الاسلامية .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٨٨ .

ولذا بادر ابن الزبير الى أخذ البيعة لنفسه ، وأعلن نفسه أميرا للمؤمنين ، ونظر اليه المسلمون نظرتهم الى الخليفة الذى يجاهد فى سبيل حقوقه ، ولم ينظروا اليه كثائر أو عاص .

اختار المختار طريقا يخالف الطريق الذى اتبعه الحسين أو ابن الزبير . فهو لم يبايع لنفسه بالخلافة طوال تاريخه السياسى ، واكتفى أن يكون فى مطلع حياته داعيا للحسين وحزب الشيعة ، ثم أصبح وزيرا لعبد الله بن الزبير حين بايع لنفسه خليفة بالحجاز ، ثم رحل الى العراق حيث أعلن أنه وزير محمد بن الحنفية زعيم الشيعة بعد مصرع الحسين .

بين المختار وابن الزبير فى الحجاز :

رأينا المختار مغادرا العراق ناجيا بحياته بعد أن هدده عبيدالله ابن زياد بالقتل ان طال به البقاء فى الكوفة أكثر من ثلاثة أيام . ولعلنا نتساءل عن سر اختيار المختار لبلاد الحجاز دون غيرها من الأمصار الاسلامية منفى له بعد مغادرته بلاد العراق ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول : لقد كان الحجاز البلد الوحيد الذى حمل لواء المعارضة للدولة الأموية فى هذه الفترة وتركزت فيه روح الثورة ، فبلاد العراق كانت قد أصيبت بصدمة عنيفة بمقتل الحسين بن على فى كربلاء ، واستطاع عبيد الله بن زياد أن يقبض بيد من حديد على بلاد العراق ، بما اتبعه من سياسة القتل والتعذيب ، وقد أسرف فى سفك الدماء ، وأصبحت بلاد

العراق فى حاجة الى فترة من الهدوء تسترد فيها أنفاسها اللاهثة وتجمع فيها شملها وفلولها .

أما بلاد الشـام فهى قلب الدولة الأموية ، وكانت لا تعرف طوال عصر الخلفـاء الراشـدين ثم فى العصر الأموى غير طاعة بنى أمية .

أما مصر ، فقد كان أهله يميلون طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين الى السلام والهدوء والبعد عن تيارات الأحـداث السياسية ، وان كنا سنرى بعض المصريين يقبلون على البيعـة لعبد الله بن الزبير فيبعث اليهم بواليه ابن حجدم . وستظل مصر أيضا بعيدة تماما عن نشاط المختار ، فهى القطر الاسلامى الوحيد الذى لم يصل اليه نفوذ المختار .

أما بلاد الحجاز ، فهى موطن أبناء الصحابة الذين كونوا حزبا بالمدينة له شأنه ، فقد ارتفع صوتهم دائما بالاحتجاج والمعارضة للحكم الأموى ، وتركزت المعارضة فى شخص عبد الله بن الزبير الذى أصبح سيد الموقف فى الدولة العربية الاسـلامية فى ذلك الحين .

بعد مقتل الحسين بن على فى كربلاء ، تخلص ابن الزبير من منافس قوى ، فخلا ميدان السياسة أمامه ، وأصبح الرجل الأول فى الدولة الاسلامية .

قدم المختار على عبد الله بن الزبير ، وكان مجلس ابن الزبير دائما عند الكعبة ، فرحب به وأجلسه الى جواره ، وتحـادث الرجلان ، وسأل ابن الزبير المختار عن أحوال العـراق ، ولكن

ابن الزبير لم يصرح بنواياه وأطماعه للمختار ، وقد يكون ابن الزبير مدفوعا فى ذلك أنه حديث عهد بالمختار فلم يشأ أن يسرف فى ثقته به وهو لم يختبره بعد ، كما كان ابن الزبير بطبعه كتوما ، حريصا على المال ، قليل الكلام ، مترددا فى أقواله وأفعاله [1] .

وتقدم المختار الى عبد الله بن الزبير يعرض عليه أن يبايعه ، وقال له : « ابسط يدك أبايعك ، وأعطنا ما يرضينا ، وثب على أهل الحجاز فان أهل الحجاز كلهم معك » [2] .

هذه العبارة الموجزة ، تبين أهداف المختار الحقيقة ، فهو يطلب من ابن الزبير أن يبايع لنفسه ، فقد شعر أنه الزعيم الوحيد الذي يمكن أن تتركز فيه حركة الثورة والمعارضة للدولة الأموية، وشعر المختار أيضا أنه لا يستطيع منافسة ابن الزبير فى الزعامة والرئاسة ، ولكنه رأى أن يتيح لنفسه الفرصة ليكون الرجل الثانى فى الدولة ، فيكون أول من يبايع لابن الزبير ، وطلب المختار من ابن الزبير أن يقود أهل الحجاز فى طريق الثورة ، فقد أجمع كل أهله على تأييده .

وكان أهل الحجاز بعد مصرع الحسين بن على قد طلبوا من ابن الزبير أن يبايع لنفسه فقالوا : أيها الرجل أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر . ولكن ابن

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٦ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٤٤٤ .

الزبير قال لهم : لا تعجلوا [1] . وربما كان رفض ابن الزبير راجعا الى خوفه من أن يكون مصيره كمصير الحسين ، وربما أراد أن يظهر للمسلمين زهده فى الخلافة . ولذا اكتفى ابن الزبير بأن سمى نفسه (العائذ بالبيت) ورفض أن يتخذ لقب الخلافة .

ولذا رفض ابن الزبير ما عرضه المختار عليه من البيعة له . ويعلل المؤرخ الطبرى [2] رفض ابن الزبير عرض المختار ، بأن المختار كان يتحدث مع ابن الزبير فى أمر البيعة علنا وبصوت مرتفع، مما يكشف السر الذى يحرص ابن الزبير على كتمانه ، « فهذا الكلام لا ينبغى أن يكون الا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة » . ولكننا نعلل رفض ابن الزبير البيعة التى اقترحها المختار بأن يزيد بن معاوية كان حينئذ لا يزال على قيد الحياة .

وبعد مقتل الحسين ، وقف عبد الله بن الزبير يرثى الحسين ويذم أهل الكوفة لخذلانهم اياه ، ويذم الخليفة يزيد بن معاوية وقتلة الحسين وخاصة ابن زياد ، ويعلن عدم اطمئنانه الى الحكم الأموى ، فيقول : « ... أفبعد الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهدا ؟ لا ، ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه كثيرا فى النهار ، صيامه أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل .. » [3] .

فما كاد الناس يسمعون مقالة ابن الزبير حتى هبوا طالبين منه

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٤٤٥ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

أن يبايع لنفسه بالخلافة ، فقد كانوا فى حاجة الى زعيم جديد بدلا من الحسين يقودهم الى الخلاص من الحكم الأموى . ولكنه رأى ألا يجيبهم الى ذلك . وربما كان ذلك راجعا الى ما رآه من مصير الحسين ، فرأى ألا يتعجل ، وربما أراد أن يظهر للناس زهده فى الخلافة ، وان كان فى الحقيقة يرى أنه أجدر المسلمين فى ذلك الحين بهذا المنصب ، بل ان المؤرخ (كاترمير) [1] يرى أنه لم يكن بين العرب الطامعين فى الخلافة فى القرن الأول الهجرى ، باستثناء على بن أبى طالب ، رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .

وكان ابن الزبير يرى أن الوقت لم يحن لتحقيق اقتراح المختار ، فيتخذ لقب أمير المؤمنين ، مكتفيا الى حين بلقب العائذ بالبيت . ويروى لنا المؤرخ ابن عساكر [2] سبب تمسكه بالاحتماء بالكعبة دون الخروج الى الأمصار فيقول : « الذى دعا عبد الله بن الزبير الى التعوذ بالبيت شىء سمعه من أبيه حين سار من مكة الى البصرة ، وذلك أن الزبير التفت الى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب ، وأقبل الى ابنه عبد الله وقال : أما والله ما رأيت مثلها لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

وأحس المختار بعدم جدوى الالحاح على ابن الزبير ، فغادره ، وغادر مكة الى الطائف ، مسقط رأسه ، وموطن قبيلة ثقيف

---

(١) Memoire Hist. Sur la Vie d'Abd-Allah ben Zobeir, (J.A), P.239

(٢) التاريخ الكبير ج ٧ ص ٤٠٩ .

الأصلى ، وكان المختار قد فارق الطائف منذ خرج مع أبيه أبى عبيد بن مسعود حين صحبه فى قيادة الجيش الذى خرج ليفتح العراق فى خلافة عمر بن الخطاب . فقد أقام المختار بعد مصرع أبيه فى مدينة المدائن فى كنف عمه سعد بن مسعود .

كانت الطائف على مسافة قصيرة من مكة ، فكان من اليسير على المختار أن يرقب الأحداث السياسية فى مكة من قرب من الطائف ، وكانت الطائف أحسن جوا وأكثر خيرات من مكة . وربما أراد المختار أن يستعيد ذكريات الطفولة والصبا فى الطائف، وأن يكون بعيدا عن رقابة عبد الله بن الزبير ، وأن ينتظر ما تأتى به الأحداث والأيام .

أقام المختار فى مدينة الطائف عاما كاملا ، ولم تخبرنا المصادر التاريخية العربية شيئا عن نشاط المختار طوال هذا العام فى الطائف ، ولكنها تذكر أنه كان عند خروجه من مكة الى الطائف يردد عبارة : « أنا مبير الجبارين » [1] ، وعبارة « أنا صاحب الغضب ومسير الجبارين » [2] . وهاتان العبارتان توضحان السياسة التى اتبعها المختار دائما طوال تاريخه السياسى ، فقد كان ينتهز كل فرصة للدعاية لنفسه وسياسته ، فقد كان المختار معتزا بنفسه وبمقدرته ، طموحا الى المجد ، على جانب كبير من الذكاء والدهاء ومعرفة نفوس الناس وطبائعهم .

---

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

موقف عبدالله بن عمر صهر المختار من ابن الزبير :

من أبرز الشخصيات الاسلامية فى مكة فى ذلك الحين عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وكان متزوجا من صفية بنت أبى عبيد ، شقيقة المختار . وقد لعب عبد الله بن عمر دورا كبيرا فى تاريخ المختار السياسى ، فقد كان المختار يدخر ابن عمر ليستنجد به وقت الشدة . فقد أنقذه كما رأينا من سجن عبيد الله بن زياد ، وقد يكون هذا السجن مقدمة لقتله . وسينقذه ابن عمر كما سنرى بعد قليل من سجن ولاة ابن الزبير بالعراق . وقد رأينا المختار يقصد ابن الزبير معلنا تأييده له ، طالبا منه أن يبايع له . فماذا سيكون موقف صهره عبد الله بن عمر من ابن الزبير ؟

علم الخليفة يزيد بن معاوية بالتفاف أهل الحجاز حول عبدالله ابن الزبير وطلبهم منه البيعة لنفسه ، فاستشاط غضبا ، وأقسم أن يوثقنه بسلسلة . ولكن والى يزيد فى مكة ، عمرو بن سعيد ابن العاص ، رغم حزمه وشدته ، لم يجرؤ على تحقيق قسم يزيد ، فقد كان ابن الزبير يزداد قوة يوما بعد يوم ، مما يجعل مقاومته عسيرة ، وخاصة أن الحامية الأموية بالحجاز قليلة العدد ، فآثر هذا الوالى السلامة وطلب العافية ، فكان « يدارى ويرفق » .

تحدث المؤرخ الطبرى [1] عن ارتفاع شأن عبد الله بن الزبير فقال : « علا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أما اذا هلك الحسين عليه السلام فليس أحد ينازع ابن

(1) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٦٥ .

الزبير » . ومن الطريف أن عمرو بن سعيد والى مكة الأموى أراد أن يكشف عن مستقبل ابن الزبير فبعث الى صديقه عبد الله ابن عمرو بن العاص فى مصر، وكان قد اشتهر بالعلم والاطلاع على كتب دانيال ، يسأل عن ابن الزبير فأجاب : لا أرى صاحبك الا أحد الملوك الذين تتم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك . فلم يزد عمرو عند ذلك الا شدة على ابن الزبير وأصحابه مع الرفق بهم والمداراة لهم [1] .

حمل عامل البريد الى ابن الزبير خبر السلسلة التى أقسم يزيد أن يوثق فيها ابن الزبير ، وأنذر ابن الزبير بأن مصيره سيكون كمصير الحسين بن على . فقال ابن الزبير : ان الحسين ابن على خرج الى من لا يعرف حقه ، وان المسلمين قد اجتمعوا علىّ . فقال عامل البريد لابن الزبير : فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك [2] .

أدرك ابن الزبير صدق مقالة عامل البريد ، فان قصوره عن طلب البيعة من عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ابن عبد المطلب يعتبر نقصا يجب تلافيه ، فقد كان لهما شأنهما العظيم بين المسلمين فى جميع الأمصار ، وخاصة فى الحجاز . ورأى ابن الزبير أن يجد فى أخذ البيعة منهما . ورأى أن يبدأ بابن عمر ، ولكن مهمته كانت معه شاقة ، اذ كان قد بايع يزيد

---

(١) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) ج ٢ ورقة ٣٢ .

(٢) اليعقوبى ج ٢ص ٢٢٠ .

من قبل ، ومن الصعب على ابن الزبير أن يقنع ابن عمر بنكث بيعته .

رأى ابن الزبير أن يلجأ الى الحيلة ، بأن قصد زوجته صفية بنت أبي عبيد ، وهي أخت المختار « وذكر لها أن خروجه كان غضبا لله وللرسول وللمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه يزيد بالفيء ، وسألها مسألة زوجها عبد الله بن عمر أن يبايعه . فلما قدمت له عشاء ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده وأثنت عليه وقالت : ما تدعو الى طاعة الله عز وجل ؟ وأكثرت القول في ذلك. فقال : أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهبا ، فان ابن الزبير ما يريد غيرهن ! » [1] .

لا شك أن عطف صفية بنت أبي عبيد ، والحاحها على زوجها عبد الله بن عمر أن يبايع لعبد الله بن الزبير ، كان نتيجة لموقف أخيها المختار من ابن الزبير ، فقد رأت صفية أخيها وقد شد رحاله من العراق الى الحجاز معلنا تأييده لابن الزبير . ولكن عبد الله ابن عمر لم يستمع الى نداء زوجته ، فقد وضع لنفسه سياسة مرسومة ، فقد أراد الابتعاد عن المشاكل السياسية ، وقد رشحه المسلمون مرتين للخلافة ، مرة بعد أن طعن أبوه عمر بن الخطاب، ومرة خلال التحكيم بعد معركة صفين ، ورفض عمر في المرتين أنه يتولى الخلافة ، كما كان ابن عمر قد بايع ليزيد بن معاوية فلم

---

(١) البياسي : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام (مخطوط) ج ٢ ورقة ٣٢ .

يشأ أن ينكث البيعة . كما كان لابن عمر رأيه فى ابن الزبير لا يتغير بتأييد المختار لابن الزبير .

وأما عبد الله بن العباس ، فقد خيب آمال ابن الزبير كما فعل ابن عمر ، وامتنع عن البيعة له . وفرح يزيد بن معاوية بذلك كل الفرح ، فكتب اليه يشكره ويعرض عليه أن يتخذ منه عضدا ضد ابن الزبير . وفى الحق لم يكن امتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير نتيجة اخلاصه ليزيد ، أو لاقتناعه بأحقية بنى أمية فى الخلافة ، ولكنه كان قد بايع ليزيد حين بايعه معظم المسلمين ، فرأى ألا ينكث هذه البيعة ، وربما رأى أن من صالحه أن يبعد عن السياسة وأخطارها .

النعمان بن بشير صهر المختار مبعوث يزيد الى المدينة :

كان المختار متزوجا من ابنة النعمان . وكان النعمان على نقيض صهره ، فقد كان مواليا لبنى أمية ، فتولى حكم الكوفة وقت أن قدم اليها مسلم بن عقيل ، وكان تساهله مع مسلم والمختار سببا لعزله عن حكم الكوفة . ولكن عزله لم يغير من ولائه للبيت الأموى ، كما لم يغير من موقف الخليفة الأموى يزيد بن معاوية منه ، فقد ادخر جهوده الى حين ، وأخيرا رأى أن يكون مبعوثه الى المدينة .

فقد حدث أن عزل الخليفة يزيد الوليد بن عتبة واليه بالمدينة، وولى بدله عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، فقد أراد يزيد تغيير

سياسة العنف والشدة التى اتبعها عمرو بن سعيد والوليد بن عتبة بعد أن لمس اخفاق هذه السياسة وكان عثمان هذا « فتى غرّ غمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن » (١) . وأراد الوالى الجديد، عثمان بن محمد ، أن يتبع سياسة اللين التى ارتآها يزيد ، فأرسل وفدا من أهل المدينة ظنا منه أن يزيد باكرامه لهم يقنعهم بأحقيته فى الخلافة دون ابن الزبير ، فيعودوا لسانا ناطقا معبرا عن رغبات يزيد ، وينكثوا بيعة ابن الزبير وينفضوا من حوله .

قدم وفد المدينة ، وعلى رأسه عبد الله بن حنظلة الغسيل ، والمنذر بن الزبير ، وعبد الله بن أبى عمرو بن خوص ، وهم من أشراف المدينة ، على يزيد بدمشق ، فبالغ فى الحفاوة بهم وأكرمهم اكراما لا حد له ، ونال هؤلاء الأشراف من يزيد العطاء والصلات ، ولم ينل منهم سوى الهجاء والسباب ، فما كادوا يعودون الى أهل المدينة حتى « قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا : انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ويسامر الخراب والفتيان ، وانا نشهدكم انا قد خلعناه » (٢) . وأقبل أهل المدينة على عبد الله بن حنظلة الغسيل يبايعونه على خلع يزيد وولوه عليهم .

غضب يزيد أشد الغضب لما ناله من سب واهانة من أهل المدينة ، فأراد أن يحذرهم وينير السبيل أمامهم ، فبعث النعمان

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٤ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٨ .

ابن بشير ، وهو والد زوجة المختار ، الى المدينة ليصدهم عن الفتنة والخلاف . وقدم النعمان المدينة فأمر أهلها بالطاعة ولزوم الجماعة وخوفهم الفتنة وأفهمهم أنه لا طاقة لهم بأهل الشام . ولكن أهل المدينة لم يستمعوا لمقالته ، فاضطر الى العودة الى دمشق خائبا [1] .

وظن أهل المدينة أن حلم يزيد بهم ، ضعف منه ، فتمادوا فى عصيانهم ، وأعلنوا خلع يزيد ، ووثبوا على عثمان بن محمد ومن معه بالمدينة من بنى أمية ومواليهم وكانوا نحوا من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصرهم أهل المدينة فيها ، واستغاث الأمويون بيزيد . وما لبث أهل المدينة أن أخرجوهم من المدينة ، وتتبعهم الصبيان والسفهاء يرمونهم بالحجارة .

وقرأ يزيد كتاب الأمويين فغضب كثيرا ، ورأى أن يحيد عن سياسة الحلم واللين ، وقد رأى أن حركة ابن الزبير تزداد يوما بعد يوم حتى استطاعت أن تسيطر على الحجاز ، واعتبر ابن الزبير محرضا لأهل المدينة . وعزم على ارسال جيش لتأديبهم ، نصب عليه مسلم بن عقبة قائدا حتى اذا وصل مسلم الى المدينة أمهل أهلها ثلاثة أيام يختارون فيها أحد أمرين ، البيعة أو الاستسلام ، ولكنهم اختاروا الحرب .

تزعم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى أهل المدينة فى مقاومة الأمويين ، وحفروا خندقا كما فعل الرسول ، وتردد أهل

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٦١ .

الشام فى قتال اخوانهم المسلمين أهل المدينة ، ولكن مسلما حرضهم على القتال . وقامت معركة (الحرة) وانتهت بهزيمة أهل المدينة ، وأتى الجيش الأموى كثيرا من الفظائع والمذابح والكبائر ، مما أجمع المؤرخون على استنكاره ، فقد أباح مسلم المدينة ثلاثا لجنده يقتلون أهلها ويسلبونهم أموالهم (١) . وقتل ثمانون من أصحاب الرسول وسبعمائة من قريش والأنصار ، وعشرة آلاف من سائر الناس والموالى (٢) .

مضى الجيش الأموى فى طريقه ، فزحف من المدينة الى مكة ، ليحاصر ابن الزبير فى الكعبة ، وكان المختار قد وصل الى مكة عائدا من الطائف فاشترك الى جانب ابن الزبير فى الدفاع عن مكة وبيت الله الحرام .

المختار وزير ابن الزبير :

وبعد أن أمضى المختار عاما فى وطنه القديم الطائف ، ظهر فجأة مرة أخرى فى مكة ، وكان ابن الزبير قد بدأ يطلب البيعة من الناس . فدخل المختار على ابن الزبير المسجد وقد تبدى فى مظهر الرجل الخطير ، فرحب ابن الزبير به كثيرا وكان لقاؤه له هذه المرة أحسن من لقائه فى العام الماضى .

كان ابن الزبير فى حاجة الى تأييد المختار ، وشعر ابن الزبير

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥١ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٩ .

أن الوقت قد حان ليطلب عون المختار له . فقد تبلورت حركة ابن الزبير واتخذت شكلا متكاملا واضحا . وبدأ العداء السافر والصدام الحربى بين الزبيريين والدولة الأموية ، فقد قدم جيش أموى الى المدينة فأنزل بها سخطه وانتقامه ، ثم بدأ هذا الجيش زحفه الى مكة ، وأصبح موقف ابن الزبير حرجا ، وفى حاجة الى كل من يعاضده ويناصره . وربما أدرك ابن الزبير الأهمية الحقيقية للمختار ، فله شأنه فى العراق والحجاز ، وخاصة أن ابن الزبير كان يطمع فى أن يغير المختار من موقف عبد الله بن عمر بن الخطاب من ابن الزبير فيقبل على البيعة لابن الزبير وينكث بيعة يزيد ابن معاوية ، كما شاهد ابن الزبير أن يزيد قد اختار النعمان ابن بشير صهر المختار ليكون مندوبه ورسوله الى أهالى المدينة . ولذا أكرم ابن الزبير وفادة المختار .

وفى هذه المرة ، طلب ابن الزبير من المختار أن يبايعه ، وكان المختار بالأمس يلح على ابن الزبير أن يمد اليه يده ليبايعه . ووافق المختار على أن يبايع ابن الزبير ، على أن يقرن بيعته ببعض الشروط التى اشترطها على ابن الزبير ، وهى شروط تحقق مصالحه وأطماعه . وفى ذلك يقول المختار : أبايعك على أن لا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول داخل ، واذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك .

ولكن ابن الزبير كان حريصا ، كعهدنا به دائما ، فلم يشأ أن يقيد نفسه بهذه الشروط رغم حاجته الى بيعة المختار ، فيقول للمختار : أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله . ولكن المختار

يصمم على ألا يبايع ابن الزبير الا وفق ما اشترط عليه . ولا يلبث ابن الزبير أن يجيب المختار الى ما طلبه [1] . وأصبح المختار وزير ابن الزبير فى كل الأمور ، فقد اشترط عليه ألا يقضى أمرا دونه ، ويذكر المؤرخ ابن كثير [2] أن المختار كان « من كبار الأمراء عنده » . وأخلص المختار لابن الزبير وبر بوعده ، عسى أن يبر ابن الزبير بوعده أيضا . فيتحدث المؤرخ المسعودى [3] عن المختار أنه قاتل الى جانب ابن الزبير « داخلا فى جملته منضافا الى بيعته ، منقادا الى امامته على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأيا ولا يعصى له أمرا » . ويتحدث ابن الأثير [4] عن موقف المختار من غزو الجيش الأموى لابن الزبير فى مكة فيقول : « فأقام — أى المختار — عنده — أى ابن الزبير — وشهد معه قتال الحصين بن نمير وأبلى أحسن بلاء ، وقاتل أشد قتال ، وكان أشد الناس مع أهل الشام » . ويذكر ابن كثير [5] أن ابن الزبير لما حاصره الحصين بن نمير مع أهل الشام « قاتل المختار دون ابن الزبير أشد القتال » .

وفى المختار بعهوده وفاء تاما ، وأجمع المؤرخون كما رأينا على أن المختار قاتل بكل شجاعة وبسالة . ولكن ابن الزبير

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .
(٣) مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٧٢ .
(٥) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .

— كما سنرى — لم يف بوعوده ، وتنكر لعهوده ، فاضطر المختار الى مفارقته ، وخرج عن طاعته ، فرحل من الحجاز الى العراق ، وبدأ يدعو لمحمد بن الحنفية وحزب الشيعة .

المختار يذود عن الكعبة :

كان حصار الجيش الأموى للكعبة ، وهجومه على مكة ، حدثا خطيرا هز مشاعر المسلمين ، فقد كان المسلمون دائما حريصين على أن تظل مكة — تلك المدينة المقدسة — لها حرمتها وقداستها ، وبعيدة عن أى صدام حربى . ولذا لم يكن من المستغرب أن يذود المختار عن الكعبة فى شجاعة نادرة ، ولم يكن مدفوعا فى هذا الاستبسال برغبته فى الدفاع عن ابن الزبير ضد مهاجميه من الأمويين ، ولكنه رأى أن يساهم فى الدفاع عن بيت الله الحرام . وخاصة أن المختار قد أعلن معارضته السافرة للدولة الأموية منذ أن أقدمت على قتل الحسين بن على .

وشارك المختار سخطه على اقدام الجيش الأموى على غزو الكعبة جماعات عديدة ، تختلف فى آرائها ومبادئها ، ولكنها اتفقت فى وجوب حماية مكة والكعبة . فقد قدم على ابن الزبير جند أهل المدينة الذين نجوا من قبضة مسلم بن عقبة بعد معركة الحرة ، ثم قدم نجدة بن عامر الحنفى الذى ثار فى اليمامه على الحكم الأموى . وقدم الخوارج الأزارقة من العراق على ابن الزبير يريدون مؤازرته ، فقبل مساعدتهم رغم مخالفتهم له فى

مبادئه ، لكنه قال : « لو شايعتنى الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها » [1] . وأخيرا جاءت الى ابن الزبير نجدة لم يكن يتوقعها ، وقد انفرد المؤرخ البلاذرى بذكر خبرها ، فقد غضب نجاشي الحبشة المسيحى لاقدام الأمويين على حصار الأماكن المقدسة فى مكة ، فبعث فرقة من جنده الأحباش للدفاع عن الكعبة . وحارب المختار جنبا الى جنب مع هذه الفرق المختلفة فى الجنسية والمذاهب . فهو يحارب الى جانب الخوارج الأزارقة وهو يخالفهم تماما فى آرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . فقد اعتنق المختار المذهب الشيعى الذى ينادى بانحصار الخلافة فى على بن أبى طالب ثم أولاده من بعده . بينما الخوارج ينادون بآراء جمهورية واسعة النطاق ، فيجعلون الخلافة من حق كل مسلم تتوفر فيه مؤهلات الخلافة ، عربى أو غير عربى ، قرشى أو غير قرشى ، حر أو رقيق . وكان المختار يمجد على بن أبى طالب وآل بيته ، بينما الخوارج يكفرون عليا ، وقد شنوا عليه بعد التحكيم حربا شعواء . بل كان المختار يخالف ابن الزبير — رغم بيعته له — فى كثير من آرائه . فابن الزبير يرى نفسه أحق المسلمين بالخلافة ، بينما يرى المختار أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت علي بن أبى طالب ، فهو بالأمس يدعو الى الحسين ابن على ، حتى اذا قتل أخذ يدعو الى امامة محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . وتناسى المختار ، كما تناسى

---

(١) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) ج ٢ ورقة ٤٨ .

الخوارج الأزارقة ، ذلك الاختلاف فى وجهات النظر والمعتقدات، فقد جمعهم عداؤهم للدولة الأموية ورغبتهم فى الذود عن مكة وبيت الله الحرام .

وظل الجيش الأموى بقيادة الحصين بن نمير يحاصر ابن الزبير والمختار ومن معهما حتى اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ ، حيث توفى الخليفة يزيد بن معاوية . ولما علم الحصين بموت الخليفة اتفق مع ابن الزبير على أن يعقدا مؤتمرا فى الأبطح . وحضر المختار مؤتمر الأبطح ، وفيه عرض الحصين على ابن الزبير أن يتوقف القتال ، وأن يخرج ابن الزبير مع الجيش الأموى الى الشام ، ووعده وعدا قاطعا أن يأخذ له البيعة، فقال له : أنت أحق بهذا الأمر ، هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا الى الشام ، فان الجند الذين معى من وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم . ورفض ابن الزبير هذا العرض رفضا باتا وقال : أنا لا أهدر الدماء ، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم . ويئس الحصين من ابن الزبير فبدأ يستعد للرحيل الى الشام [1] .

ولكن ابن الزبير سرعان ما ندم على رفضه ما عرضه عليه الحصين بن نمير . فيذكر الطبرى [2] أن ابن الزبير أرسل الى الحصين يقول له : أما أن أسير الى الشام فلست فاعلا وأكره

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٥٥ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٨٦ .

الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لى هنالك فانى مؤمنكم وعادل فيكم . ورفض الحصين أن يبايع له فى مكة وأصر على أن يصاحبه ابن الزبير الى الشام حيث يبايع له بالخلافة هناك .

عاب كثير من المؤرخين على ابن الزبير عدم قبوله ما عرضه الحصين عليه ، وظنوا أن الطريق قد أصبح ممهدا أمامه ، وأنه كان يستطيع الوصول الى الخلافة لو أنه استمع الى ما أشار به الحصين عليه ، فقد مات الخليفة يزيد ، وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى كان صغير السن ضعيف الشخصية ، وقد عرض عليه قائد جيوش الشام الطاعة والبيعة ، وتعهد له بتمهيد الطريق . فقال ابن الأثير [1] : « ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد » . كما قال أبو الفدا [2] . « لو سار ابن الزبير مع الحصين الى الشام أو صانع بنى أمية ومروان لاستقر أمره » .

كان المختار حاضرا هذا المؤتمر ، وكان المتفاوضون من الطرفين المتعاديين ، الزبيريين والأمويين ، يمتطون صهوة جيادهم. وكان المختار على ظهر حصانه على مقربة من ابن الزبير ، ينصت الى الحوار الذى دار بين ابن الزبير والحصين بن نمير . وكان ابن الزبير حريصا على أن يسمع المختار وسائر المتفاوضين من أنصاره كل ما يدور من حوار ، حتى يعلموا أنه يرفض أن يمد يد الصداقة والمهادنة الى أعدائهم جميعا الأمويين ، وأنه مازال متمسكا بموقفه العدائى منهم ، وحتى لا يشعر المختار وغيره من

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٥٥ .
(٢) المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٧٥ .

أنصار ابن الزبير ، أن ابن الزبير قد تخلى عنهم وهادن الأمويين ، ولذا كان ابن الزبير يتحدث بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع . أما الحصين بن نمير ، القائد الأموى ، فكان يريد أن تكون المفاوضات سرية ومنحصرة بينهما دون اشتراك غيرهما ، كما كان الحصين يحاول اقناع ابن الزبير أن يصاحب الجيش الأموى الى بلاد الشام ، ولذا أبدى غضبه من ابن الزبير لأنه كان يتكلم جهرا ، فقال له : قبح الله من يعدك بعد هبا وآيبا ، قد كنت أظن أن لك رأيا ، وأنا أكلمك سرا وتكلمنى جهرا ، وأدعوك الى الخلافة ، وأنت لا تريد الا القتل والهلكة ! [1] . ولقد أراد ابن الزبير أن يرضى المختار وسائر رجاله وجنده ، فقد أعلن للحصين أنه لا يرضى بقتل عشرة من جند الشام مقابل كل رجل يقتل من جنده .

ونحن نتساءل ، ماذا يكون موقف المختار وسائر قواد ابن الزبير اذا كان ابن الزبير قد وافق على عرض الحصين بن نمير واستجاب الى دعوته بالرحيل الى الشام ؟ لا شك أنهم كانوا ينقلبون على ابن الزبير ويشنون عليه حربا شعواء . ونحن نجد العذر لابن الزبير فى رفضه عرض الحصين ، ونخالف فى ذلك كثيرا من المؤرخين الذين أشرنا الى آرائهم ، فأهل الشام لا يدينون بالولاء الا للأمويين ، وليس لابن الزبير فى الشام عصبيّة وأنصار يعتمد عليهم . كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيرا من الحكم الأموى ، وناصر المختار والحجازيون ابن الزبير لأنه أصبح

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٥٥ .

المعارض الوحيد للحكم الأموى ، فماذا يكون موقفهم منـه لو رأوه يسير مع الأمويين الى حاضرتهم دمشـق وعلى رأس جيشهم ؟!

المختار ينبذ طاعة ابن الزبير

رأينا المختار يبذل جهودا كبيرة فى سبيل نصرة عبـد الله ابن الزبير ، فقد أجمع المؤرخون على أنه حارب الى جانبـه فى شجاعة واستبسال . واضطر الجيش الأموى الى فك الحصار عن الكعبة ومكة ، والعودة الى دمشق ، وحان الوقت ليطالب المختار عبد الله بن الزبير بالمكافأة ، وآن الأوان ليجنى ثمار جهـوده وتأييده .

استفاد عبد الله بن الزبير من وفاة الخليفة يزيد بن معـاوية فائدة كبيرة ، فقد أعلن نفسه خليفة بالحجاز ، ونجح فى السيطرة على جميع الأمصار الاسلامية . وكان البيت الأموى منقسما على نفسه ، فقد كان بعض الأمويين بعد وفاة معاوية الثانى يرشحون خالد بن يزيد بن معاوية ، بينما رشح بعض الأمويين شيخ بنى أمية : مروان بن الحكم . وتغلب رأى الفريق الثانى، فبويع لمروان بالخلافة فى دمشق ولكن نفوذه اقتصر على رقعة صغيرة فى بلاد الشام ، بينما سائر أرجاء الدولة العربية الاسـلامية ، كالعراق والحجاز ومصر والجزيرة قد دانت بالطاعة لخليفة الحجاز عبد الله ابن الزبير .

تطلع المختـــار الى أن يفى ابن الزبير بعهوده ووعوده التى بذلها للمختار وقت محنته وشدته ، وانتظر المختـــــار أن يحقق ابن الزبير آماله وأطماعه ، فقد مرت فترة الكفاح والجهـــاد ، وجنى ابن الزبير ثمار جهوده ونضاله ، وأصبح على جانب كبير من القوة والعظمة ، وبدأ المختار يطالب ابن الزبير بالجائزة . فقد وعد ابن الزبير المختار أنه اذا ظهر استعان بالمختـــار على أفضـــل عمله ، وألا يقضى ابن الزبير أمرا دون رأى المختار .

تناسى ابن الزبير وعوده تماما ، ولم يكافىء المختار على تأييده له ، وكان المختار يطمع فى أن يوليه ابن الزبير حكم بلاد العراق. وقد وقع اختيار المختار على العراق دون غيرها من الأمصـــار ، لأنها أصبحت وطنه الثانى بعد الطائف ، فقد عاش فيهـــا فترة طويلة ، بل اشترك فيها بسيفه فى فتحها ، ولاقى أبوه وأخـــوه مصرعهما فى أرض العراق . كما كانت بلاد العراق مركز الشيعة وأنصار آل على بن أبى طالب وكان المختار يعتنق المذهب الشيعى ويدعو للعلويين . كمـــا كانت بلاد العـــراق فى تلك الفترة قلب العالم العربى الاسلامى رغم أنها لم تكن مركز الحكم ، فكانت تحرك الأحداث السياسية ، وشهدت جميع الأحزاب السياسية والفرق الدينية وخاصة الشيعة والخوارج .

وكانت وعود ابن الزبير للمختار بنت الساعة ، بذلها فى سهولة ويسر وقت محنته ، وتناساها حين أصبح فى غير حاجة الى تأييد المختار . ولم يكن ابن الزبير يستطيع أن يولى المختـــــار بلاد العراق ، فقد كان عالما بميول المختار الشيعية ، وكان حكم المختار

العراق بمثابة اتاحة الفرصة له ليلتقى بشيعة العراق ، وكانت العراق موطن المال والرجال فى ذلك الحين ، وكان ابن الزبير حريصا على أن يتولى الحكم فيها صنيعة له يضمن ولاءه واخلاصه على الدوام .

حقد المختار على ابن الزبير اذ رآه قد نكث بعهده ، ولكنه لم يجهر بحقده على ابن الزبير ، ومكث الى جواره بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية خمسة شهور ، ثم بدأ المختار يفكر فى العودة الى بلاد العراق ، وأخذ يستفسر من القادمين منها عن أحوال العراق كما تركوها ، فأخبروه عن انقياد بعض الناس لدعوة ابن الزبير ، وان كانت الغالبية لا تهدف الا للأخذ بثأر الحسين ، ولكن ينقصها الزعيم الذى يستطيع أن يجمع شملها تحت لوائه .

رأى المختار أن يكون هذا الزعيم الذى تنشده بلاد العراق وتنتظره ليقودها الى النصر ، والى الأخذ بثأر الحسين ، وعبر عن ذلك بقوله : « أنا أبو اسحق ، أنا والله لهم ، أن أجمعهم على الحق ، وألقى بهم ركبان الباطل ، وأهلك بهم كل جبار عنيد »[1]

ثم عزم المختار على العودة الى بلاد العراق ، ليوفر لنفسه الزعامة والسلطة التى افتقدها فى الحجاز عند ابن الزبير . ولكن المختار خشى أن يمنعه ابن الزبير من مغادرة الحجاز الى العراق ، فرأى أن يلجأ الى الحيلة والدهاء . خدع المختار ابن الزبير فعرض

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

عليه أن يرحل الى العراق ليجمع له الجند والأنصار ليستعين ابن الزبير بهم فيتغلب على أهل الشام ، فقال المختار لابن الزبير : انى لأعرف قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتى لأستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام .. فقال ابن الزبير : من هم ؟ قال : شيعة بنى هاشم بالكوفة . قال : كن أنت ذلك الرجل . وجازت الحيلة على ابن الزبير فسمح للمختار بالرحيل الى العراق [1] .

المختار يلتقى بابن الحنفية قبل رحيله إلى العراق :

بدأ المختار يستعد للرحيل الى العراق ، ولما كان عازما على أن يستعين بالشيعة فى تحقيق أطماعه وآماله ، فقد كان طبيعيا أن يلتقى بزعيم الشيعة الأكبر فى ذلك الحين ، محمد بن على ابن أبى طالب ، المعروف باسم (ابن الحنفية) [2] .

عرفنا موقف المختار من كل من الخليفة الأموى يزيد ابن معاوية ، ومن خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير . فماذا كان موقف محمد بن الحنفية من كل منهما ؟

فى ذلك الوقت عاد وفد المدينة من دمشق بعد لقاء يزيد بن معاوية فأعلنوا خلع طاعة يزيد . وكان أهل المدينة فى ثورة جامحة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) كان محمد بن الحنفية ابنا لعلى بن أبى طالب من زوجة أخرى غير فاطمة ، من بنى حنيفة .

على يزيد حتى أنه لن يكن أبغض الى قلوبهم من دفاع أحد عنه ، ولذلك أغضبهم موقف محمد بن على بن أبى طالب، المعروف بابن الحنفية ، من حركة عبد الله بن الزبير ، ودفاعه عن يزيد ابن معاوية ، فعندما اتهموا يزيد بشرب الخمر وترك الصلاة قال ابن الحنفية : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة متحريا للخير ، يسأل عن الفقه ملازما للسنة (١) .

أصر ابن الحنفية على موقفه من الحركة الزبيرية ، فعرض عليه أهل المدينة أن يولوه عليهم ، ان كان كارها لبيعة ابن الزبير ، فرفض ابن الحنفية هذا العرض ، كما أبى أن يشترك هو أو أحد من ولديه فى القتال معهم ، فهدده الناس باكراهه على ذلك ، فخاف وغادر المدينة .

غضب ابن الزبير أشد الغضب لموقف ابن الحنفية من حركته، وأراد أن يعاقبه ، فموقفه هذا يحول دون معاضدة الشيعة . ولكن ابن الحنفية كان قد غادر المدينة ، فرأى أن ينتقم منه فى شخص ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، فحبسه فى الحبس المعروف بحبس غارم « وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية » (٢) . وكان هذا خطأ

---

(١) ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط) ورقة ٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .

ارتكبه ابن الزبير ، فقد أثار عليه بنى هاشم الذين وقفوا من حركته موقف المعارضة ، بينما كان فى حاجة لمناصرتهم وتأييدهم لما لهم فى نفوس المسلمين من حب واحترام .

ورأى المختار قبل رحيله الى العراق ، أن يلتقى بابن الحنفية ، زعيم بنى هاشم والشيعة والعلويين ، ليخبره بخطته وينال تأييده، فقد كان لابد لكل حركة سياسية فى تلك الفترة أن تصطبغ بصبغة دينية ، وتنال مساندة زعيم دينى ورئيس روحى . ولذا سعى المختار الى لقاء ابن الحنفية حيث قال المختار : انى على الشخوص للطلب بدمائكم والانتصار لكم . فأجاب ابن الحنفية : انى لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ، ولست بآمر بحرب ولا اراقة دم ، فانه كفى بالله لنا ناصرا ، ولحقنا آخذا ، وبدمائنا طالبا [1] .

وان عبارة ابن الحنفية لترسم الطريق أمام المختار ، وتبين حرصه وحذره ، فهو يرى أنه وان كان يرجو من الله النصر وأن يمكنهم من الأخذ بالثأر ، ثأر الحسين وقتلى كربلاء ، الا أنه يرجو أن يتحقق ذلك بتدبير من الله سبحانه وتعالى ، دون قيام حرب أهلية تراق فيها الدماء . وابن الحنفية يحبذ المعارضة السلبية ، دون الكفاح الايجابى .

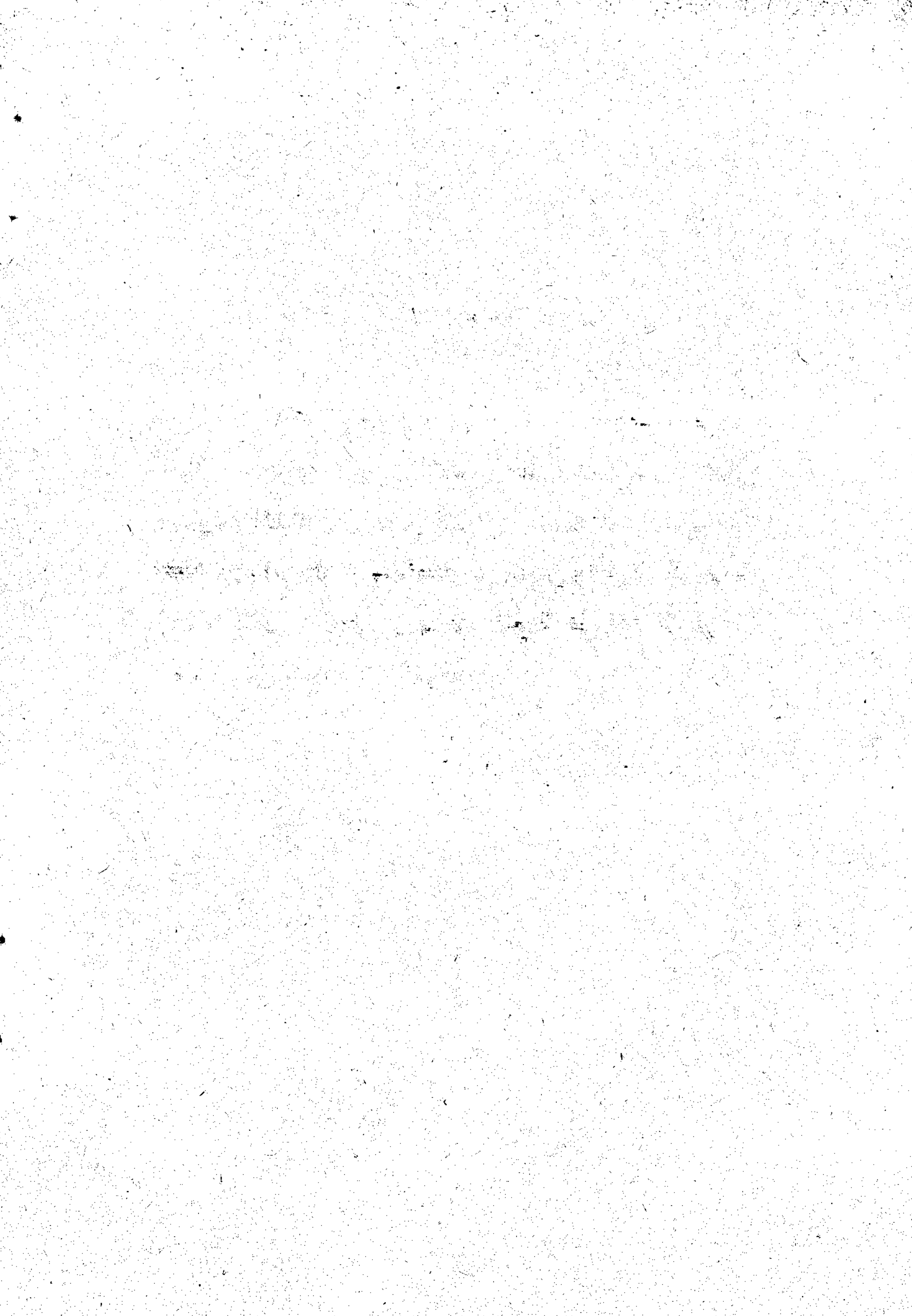
لم يفوض ابن الحنفية المختار فى أمر من أموره ، ولم يعهد اليه بشىء ، فكانت عبارته تنطوى على تمنيات ونصائح . ولكن

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٨ .

المختار حرص على أن يستفيد من لقائه بابن الحنفية كل الفائدة ، فقد جمع الشيعة وأعلنهم أن ابن الحنفية قد اختاره « أمينا ووزيرا ومنتخبا وأميرا » وأنه أمره بالأخذ بثأر القتلى من آل الرسول فى كربلاء [1] . ثم بدأ المختار رحلته الى بلاد العراق .

(١) المصدر السابق .



المختار الرجل الأول فى العراق

أحوال العراق قبيل قدوم المختار ـ المختـــــار فى العراق ـ حزب التوابين منافس خطير للمختـــار ـ مدى مسئولية المختار عن مصير التوابين ـ المختار يستفيد من اخطاء ولاة ابن الزبير ـ المختار فى سجن ولاة ابن الزبير ـ المختار يغادر السجن ويستعد للثورة على ابن الزبير ـ المختار يعلن الثورة فى الكوفة ٠

الفصل الرابع

المختار الرجل الأول فى العراق

أحوال العراق قبيل قدوم المختار :

خرج المختار الى بلاد العراق لأول مرة مع أبيه أبى عبيد ابن مسعود خلال الفتوحات العربية الاسلامية فى خلافة عمر ابن الخطاب ، مفارقا وطنه الطائف . وقضى المختار فى العراق فترة صباه وشبابه ورجولته ، وارتبطت حياة المختار ببلاد العراق ارتباطا وثيقا وأصبح من العسير أن تنفصم هذه الرابطة . ولم يغادر المختار العراق الى الحجاز الا مضطرا ، فقد نفاه الوالى الأموى عبيد الله بن زياد وهدده بالقتل ان طال به المكوث فى العراق أكثر من ثلاثة أيام . ولم يكن تأييد المختار لابن الزبير الا لأن المختار طمع أن يوليه ابن الزبير حينما يصبح صاحب النفوذ الأول فى الدولة الاسلامية حكم بلاد العراق . حتى اذا خيب ابن الزبير آماله ، أخذ المختار يستعد للرحيل الى العراق دون غيرها من الأمصار الاسلامية .

غاب المختار عن بلاد العراق فترة طويلة نسبيا ، وعاش عاما كاملا فى وطنه الأصلى الطائف ، وشهد قدوم الجيش الأموى الى

المدينة ثم حصاره لمكة ، ثم مكث فى مكة خمسة شهور بعد وفاة يزيد بن معاوية وفك الحصار الأموى . وحرص المختار قبل رحيله الى العراق أن يسأل جميع القادمين من العراق الى الحجاز عن أحوال العراق السياسية حتى يستطيع أن يرسم خطته وطريقه ، ويكيف سياسته حسب ظروف العراق فى تلك الفترة . ولذا علينا أن نتساءل عن أحوال العراق وقتئذ ؟

كان موت يزيد ثم معاوية الثانى صدمة عنيفة لعبيد الله ابن زياد الوالى الأموى بالعراق ، فخفت قبضته ولانت سطوته ، لأن الموقف أصبح مضطربا ، ولم يعد هناك خليفة قوى من بنى أمية يستند اليه فى حكمه وسلطانه . فرأى أن يستند الى حب أهل العراق ، فبدأ يتقرب اليهم ، ولكن مسعاه فى هذا السبيل لم يتحقق لأن البصرة أصبحت مسرحا للعصبية القبلية بين مضر وربيعة والأزد . وانتهز الخوارج فرصة هذا الاضطراب فبدأوا يعيثون فى البصرة فسادا .

ورأى ابن زياد أن يبدأ فى طلب البيعة من أهل البصرة ، اذ كان يعلم أنهم أقل انتصارا لآل البيت من الكوفة . فدعاهم الى الاجتماع فى المسجد ، وافتتح الاجتماع بكثير من الاعتدال خلافا لعادته ، وأشار فى خطبته الى ما قامت به أسرته من خدمات فى العراق ، وخاصة فى البصرة ، وكيف بذل جهده للعمل على رفع شأن أهلها ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر أمور الشام . ولا شك فى أن أهل البصرة انشرحت صدورهم لما أظهره ابن زياد من ضعف ، فبايعوه على أن يلى أمورهم ريثما يتفق

الناس. ولكن أهل البصرة عبروا عن حقيقة شعورهم بعد خروجهم من المسجد ، فقد « مسحوا بأيديهم فى الحيطان وقالوا : أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ؟! » [1]

وظل ابن زياد أميرا على البصرة لفترة قصيرة ، ثم أخذ سلطانه فى الضعف ، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، وكان يصعد المنبر فيحصبونه ويرمونه بالحجارة ويسبونه . ولم يجمع أهل البصرة رأيهم الا على نبذ طاعة ابن زياد ، فقد رأت عامة الناس أن فى بقاء حكم ابن زياد الضعيف مما يهددهم بخطر الخوارج ، وقصدت الشيعة الى الأحنف بن قيس لينهض بهم فأبى . وغضب الموالى على ابن زياد لتفضيله العرب عليهم ، بل ان الخوارج ، ومن ورائهم القراء ، خرجوا لطرد ابن زياد ، ورأى ابن زياد أن ينجو بحياته ، فخرج هاربا الى الشام .

ولكن خروج ابن زياد من البصرة لم يقض على متاعبها ، فقد اشتعلت نيران العصبية بين مضر واليمن . وآثروا أن يعيدوا قصة التحكيم ، فاختارت كل فئة من يمثلها . ولكن الحكمين اختلفا ، فرأى المضرى فى بنى أمية ، ورأى اليمانى فى بنى هاشم ، وفى أقل من ستة شهور أقام البصريون أربعة أمراء .

وبحثت البصرة عن خلاص من هذه الفوضى ، وجدته أخيرا ، فقد ظهر فى سوق البصرة أحد دعاة عبد الله بن الزبير ووقف ينادى فى أهل البصرة : « أيها النـاس ، هلموا الى أدعوكم الى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٥٦ .

ما لم يدعكم اليه أحد ، أدعوكم الى العائذ بالحرم . يعنى عبد الله ابن الزبير » [1] .

فكتب أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير يعلنون ولاءهم له ، ويطلبون منه أن يولى عليهم واليا من قبله ، وأن يعين أحد قواده لقتال الخوارج ورشحوا المهلب بن أبى صفرة لقيادة الجيش ، ووافق ابن الزبير عليه .

ولكن سلطة ابن الزبير ستظل صورية ، فقد كان المختار بن أبى عبيد صاحب السلطة الحقيقية فى البصرة ، الى أن قتل وتولى حكم البصرة مصعب بن الزبير . ولم يراسل البصريون ابن الزبير الا نتيجة تعرضهم لخطر الخوارج والعصبية القبلية [2] . فالخوارج تمتاز بالشجاعة والاقدام ، ولا يمكن اخضاعها الا بجيوش كبيرة منظمة ، ولذا لجأ البصريون الى خليفة الحجاز ابن الزبير . أما المختار فكان لم يقدم بعد الى العراق ، وكان لا يزال مقيما فى الحجاز منضافا الى صفوف ابن الزبير .

أما الكوفة ، وطن المختار الثانى ، فقد أخفق ابن زياد فى أن ينال بيعة أهلها له ، كما أخفق فى البصرة ، ولم يكد رسوله يفد الى الكوفة ويدعو الى البيعة له حتى ألقى الكوفيون به فى غياهب السجن . وقام خطيبهم فقال : « لا حاجة لنا من بنى أمية ، ولا من امارة ابن مرجانة — أى ابن زياد — انما البيعة لأهل الحجاز» [3]

---

(1) الطبرى ج ٧ ص ٢٠ .
(2) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢ .
(3) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١ .

واختار أهل الكوفة عامر بن مسعود وكتبوا بذلك الى عبد الله ابن الزبير فأقرهم على اختيارهم .

ظل ابن مسعود واليـا على الكوفة ، حتى عزله ابن الزبير ، وولى عبد الله بن يزيد . وفى أيامه قدم المختار الى الكوفة ، وبدأ يعمل للسيطرة عليها ، فاصطدم بوالى ابن الزبير ، وبدأت مرحلة من الصراع العنيف ، ستنتهى بالقاء المختار فى السجن .

المختار فى العراق :

رحل المختار من الحجاز الى العراق بعد أن فشل فى تحقيق آماله بالحجاز ، وآمن أن أرض العراق هى الأرض الصالحة ليبذر فيها بذور الآمال والأمانى . وفى طريقه الى الكوفة ، كان يصحبه رجل واحد هو عبد الله بن كامل الهمدانى ، وقد لقيا بالعذيب رجلا من أهل الكوفة ، فسأله المختار عن أخبار الكوفة، فقال : تركت الناس كالسفينة تجول بلا ملاح عليها . فقال المختار: أنا ملاحها الذى يقيمها [1] .

ومضى المختار فى سيره ، حتى اذا اقترب من الكوفة قصد بحر الحيرة ، فنزل فيه ، واغتسل وادهن ، ولبس ثيابه وعمامته ، وتقلد سيفه . ثم ركب راحلته ، فمر بمسجد السكون وجبانة كنده ، فكان لا يمر بمجلس الا سلم على أهله ، وقال : أبشروا

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٧١ .

بالنصر والصلح ، أتاكم ما تحبون . فقد كان المختار حريصا دائما على تحقيق وسائل الدعاية ، وتوفير سبل الاعلام ، وهى من أهم عناصر نجاح الحركات السياسية .

ودخل المختار مدينة الكوفة فى يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٤ هـ (٦ مايو سنة ٦٨٤ م) « والناس يتهيئون للصلاة ، فجعل لا يمر بملأ الا سلم عليه وقال : أبشروا بالنصر . ودخل المسجد فصلى الى سارية هناك حتى أقيمت الصلاة ، ثم صلى من بعد الصلاة حتى صليت العصر ، ثم انصرف فسلم عليه الناس وأقبلوا اليه وعظموه ، وجعل المختار يدعو الى امامة المهدى محمد بن الحنفية ، ويظهر الانتصار لأهل البيت ، وأنه ما جاء الى الكوفة الا ليقيم شعارهم ، ويظهر منارهم ، ويستوفى ثأرهم »[1]

وهكذا أوضح المختار لأهل الكوفة خطته وسياسته ، فهو وزير محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، يدعو الناس الى البيعة له باعتباره اماما للمسلمين ، وأعلن أنه نصير آل بيت الرسول ، وأنه قدم الى الكوفة داعيا لهم ، وأنه سيأخذ بثأر الحسين بن على وآله قتلى كربلاء .

كانت مأساة كربلاء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل الكوفة ، وكان كثير منهم يشعرون بالندم ويعتبرون أنفسهم مسئولين عن دم الحسين وآله ، وباتوا يتطلعون الى الأخذ بثأره ، وأخذوا يبحثون عن زعيم يقودهم لتحقيق هذا الغرض . وأدرك المختار

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٤٩ .

هذه الحقيقة ورأى أن يكون هو ذلك الزعيم المنشود . ويذكر المسعودى [1] أنه بعد استقرار المختار فى الكوفة « جعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث على أخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة اليه ، وانضافوا الى جملته » .

ونجح المختار فيما قصد اليه من جمع الشيعة حوله ، وأصبح زعيمها . وكانوا له أنصارا يصل عن طريقهم الى ما يتمناه من الحكم والنفوذ .

ولكن ما كاد المختار يصل الى العراق حتى وجد سليمان بن صرد قد سبقه الى الشيعة ، فجمعهم حوله بعد أن حرك عواطفهم نحو آل على . ورأى المختار فى سليمان منافسا خطيرا ، فعزم على أن يكيد له ويفرق جماعته .

ووقف المختار وسط الشيعة يخطب فيهم ، فيصرفهم عن الالتفاف حول سليمان بن صرد ، ويدعوهم الى تأييده والوقوف خلفه . وتحدث المختار فى خطبته عن أمرين ، أولهما أنه أجدر من ابن صرد فى تزعم الشيعة ، فقد إختاره ابن الحنفية وزيرا وأمينا ونائبا ، ووصف المختار ابن الحنفية بأنه « ولى الأمر » وأنه « الامام المهدى » . أما الأمر الآخر ، فهو أن ابن صرد لا يصلح للزعامة ، فليس له خبرة بشئون الحكم والسياسة ، جاهل بأمور الحرب ، وأنه يريد أن يقود الشيعة فيهلك ويهلكهم

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

مغه ، ثم طلب المختار من الشيعة فى آخر خطبته أن يستمعوا اليه ويلتفـوا حـوله ، وأن يتفـاءلوا اذ سيحقق لهم كـل آمالهم ورغباتهم [1] .

ونجح المختار فيما كان يهدف اليه ، فانضم اليـه كثير من الشيعة من أنصار سليمان بن صرد « وصاروا يختلفون اليـه ويعظمونه » ، وبدأ المختار يعمل على التخلص تماما من ابن صرد فقد كان « أثقل خلق الله على المختار » [2] .

حزب التوابين منافس خطير للمختار :

بدأ سليمان بن صرد يجمع حوله الشيعة ، وينظم صفوفهم ليكون منهم حزبا شيعيا جديدا يأخذ بثأر الحسين بن على وآله ، وهو حزب التوابين . فكيف تكون هـذا الحزب ، وما موقف المختار منه ؟

قتل الحسين بن على فى سنة ٦١ هـ نتيجة تخلى أهل الكوفة عنـه برغم أن خروجه اليهم كان بدعـوة منهم ، فقد خـدعوه بوعودهم البراقة ، وتعهدهم بنصرته ، ثم تركوه ليلقى مصيره على يد عبيد الله بن زياد فى كربلاء . وقد شعر أهل الكوفة بما أتوه فى حق حفيد الرسـول وابن على بن أبى طالب ، فندموا على

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٧٣ .

فعلتهم ، ولام بعضهم بعضا « ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله ، أو القتل فيه » [1] .

وصاحوا عند قبر الحسين طالبين التوبة والمغفرة من الله ، وسموا أنفسهم التوابين ، فقد كانوا يرددون دائما الآية الكريمة (فتوبوا الى بارئكم . فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) .

تزعم حركة التوابين خمسة من زعماء الشيعة هم : سليمان ابن صرد الخزاعى ، وهو من صحابة الرسول ، والمسيب بن نجبة الفزارى ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى ، وعبد الله بن والى التميمى ، ورفاعة بن شداد البجلى ، وكلهم من خيار أصحاب علىّ بن أبى طالب . ونظرة واحدة الى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التى ساهمت فى هذه الحركة التوابية .

اجتمع هؤلاء الزعماء فى منزل سليمان بن صرد وتناوبوا الخطابة ، وأعلنوا ندمهم على تخاذلهم فى الدفاع عن الحسين ، وأقسموا على الأخذ بثأره ، ولو أدى ذلك الى قتلهم . وخير ما يصور حماسة هؤلاء التوابين خطبة خالد بن سعد بن نفيل التى قال فيها : « أما أنا فوالله لو أعلم أنه ينجينى من ذنبى ويرضى ربى عن قتلى نفسى لقتلتها . وأنا أشهد كل من حضر أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقتل به عدوى صدقة على المسلمين أقويهم به على قتال الفاسقين » [2] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٨ .

بدأت حركة التوابين منذ مصرع الحسين سنة ٦١ هـ ، الا أنهم رأوا كتمان مبادئهم واتفقوا على الخروج الى النخيلة فى آخر ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ ، ولكنهم سرعان ما قدموا هذا الموعد الى شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ حين علم زعماؤهم بوفاة الخليفة الأموى يزيد بن معاوية [١] .

قضى حزب التوابين الفترة بين ٦١ — ٦٤ هـ فى الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة واستمالة الناس . ويصف الطبرى [٢] هذا الاستعداد بقوله : « كان أول ما ابتدعوا من أمرهم سنة احدى وستين وهى السنة التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه . فلم يزل القوم فى جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس فى السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم ، والنفر بعد النفر ، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد ابن معاوية » . وكتب ابن صرد الى شيعة المدائن ، وكانوا قد انتقلوا اليها من الكوفة ، والى شيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين ، فأجابوه جميعهم الى مادعاهم اليه . ثم كانت وفاة يزيد وما تبعه من انقسام بنى أمية فاعتبرها التوابون نصرا لهم ، وآمن ابن اصرد أن وفاة يزيد تؤدى الى التفاف الناس حوله ، مما يكتب لحركة التوابين النصر [٣] .

تمكن حزب التوابين ، الركن المتين من أركان الشيعة ، من لم

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٦ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٥١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٦ .

شعثه والالتفاف حول زعمائهم لسببين : أولهما تبرع الزعماء بالأموال الكثيرة لأجل الدعوة ، فمكنهم هذا من استنفار الناس للجهاد وتشويقهم للقتال ، فقدم خالد بن سعد بن نفيل كل أمواله وأملاكه ومزارعه فى سبيل الحرب . وثانيهما ، استخدام التوابين البلغاء من الرجال فى نشر دعوتهم ، فمثلوا مقتل الحسين تمثيلا محزنا مبكيا . فكانوا أينما حلوا ينالون من أعدائه الذين انتهكوا حرمته فاحتزوا رأسه وداسوا بخيولهم على جسده . وحملوا على قتلته أولئك الذين لا تعرف الشفقة قلوبهم ولا الرحمة نفوسهم . فكانوا يبكون ويستبكون الناس على القتيل حفيد رسول الله . وقد اتبع المختار فيما بعد وسائل مشابهة لمخاطبة عواطف الناس كما كان يخاطب عقولهم بخطبه البليغة وحديثه الرصين .

حدث بعد قدوم المختار الى الكوفة أن بدأ النزاع حول السيادة فى الكوفة بين ثلاثة فئات : حزب التوابين ، وولاة عبدالله ابن الزبير ، وحزب المختار . فقد بعث ابن الزبير على حكم الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصارى ، وولى على خراج الكوفة ابراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله . وكان على هذين الرجلين اللذين يمثلان ابن الزبير مسئوليات جسيمة ، وعليهما أن يحددا موقفهما من حزب التوابين ومن حزب المختار .

أبدى عبد الله بن الزبير سروره لقيام حركة التوابين ، وهى حركة عراقية صميمة ، فقد رأى بعد أن وافقه أهل الحجاز على مناوأة الأمويين ، أن يمد سلطانه الى بلاد العراق وينتزع هذه البلاد الغنية من الأمويين فيحرمهم من أن ينهلوا من مواردها التى

لا تنضب . كما أراد ابن الزبير أن يشغل الدولة الأموية باخماد حركة التوابين فيصرف أنظارهم عنه ، وينتهز هذه الفرصة ليقوى جيشه ويوطد دعائم نفوذه استعدادا للمعركة القريبة الحاسمة .

كان قدوم المختار الى الكوفة من أعظم العقبات التى تواجه ولاة ابن الزبير بالكوفة . فقد فارق المختار ابن الزبير وخرج من الحجاز متظاهرا بجمع الشيعة حول لواء ابن الزبير ، ولكن ممثلى ابن الزبير كانا يدركان طموح المختار وآماله العريضة ، ولذا رأيا أن يقصرا تأييدهما على حزب التوابين دون حزب المختار ، فقد كانت أهداف ابن الزبير والتوابين متقاربة ، فهم جميعا يعملون على زوال الحكم الأموى ، وان كانت الوسيلة التى يتبعها كل فريق تختلف عن الفريق الآخر . ولم يكن التوابون يرمون الى اقامة دولة أو الدعوة الى خلافة أو الوصول الى الحكم ، فقد ركزوا أهدافهم فى أغراض محدودة ، فكل ما يدعون اليه الأخذ بثأر الحسين بن على وآله من قتلته من بنى أميـــة والتكفير عن أخطائهم وتخليهم عن الحسين . أما المختار فكان يدعو الى اقامة خلافة علوية شيعية ، فقد كان يدعو الى امامة محمد بن الحنفية ، ودعا أهالى العراق الى البيعة له بالخلافة ، بينما كان أهل الحجاز قد بايعوا ابن الزبير بالخلافة ، وكان ابن الزبير عدوا تقليديا لعلى بن أبى طالب وأولاده ، فقد وقف ابن الزبير موقفا عدائيا من علىّ فى موقعة الجمل ، بل حرّض خالته عائشة زوجة الرسول على قتال علىّ . كما اضطهد ابن الزبير ابن الحنفية . ولذا كانت

أهداف ابن الزبير تخالف تماما أهداف المختار ، ولا يجمعهما سوى كراهية الحكم الأموى .

أراد عبد الله بن يزيد أن يقف على أخبار المختار والتوابين ، فأرسل عيونه اليهم ، فجاءه أحدهم يقول : « ان الناس يتحدثون بأن هذه الشيعة خارجة عليك مع ابن صرد ، ومنهم طائفة أخرى مع المختار وهى أقل الطائفتين عددا ، والمختار فيما يذكر الناس لا يريد أن يخرج حتى ينظر ما يصير اليه أمر سليمان بن صرد ، وقد اجتمع له أمره وهو خارج من أيامه هذه ، فان رأيت أن تجمع الشرطة والمقاتلة ووجوه الناس ثم تنهض اليهم وننهض معك ، فاذا دفعت الى منزله دعوته فان أجابك حسبه ، وان قاتلك قاتلته وقد جمعت له وعبأت وهو مغتر ، فانى أخاف عليك ان هو بدأك وأقررته حتى يخرج عليك أن تشتد شوكته وأن يتفاقم أمره . فقال عبد الله بن يزيد : الله بيننا وبينهم ان هم قاتلونا قاتلناهم ، وان تركونا لم نطلبهم ، حدثنى ما يريد الناس ؟ قال : يذكر الناس أنهم يطالبون بدم الحسين بن علىّ ، قال : فأنا قتلت الحسين ؟ لعن الله قاتل الحسين ! » (١) .

فى ذلك الحين ثار سليمان بن صرد وأصحابه فى الكوفة ، ورأى عبد الله بن يزيد أن يستفيد منهم ، فلم يكن هناك حاجة ليضعف قوته فى مقاومة فئة لم تقم الا لنضال أعدائه الأمويين . وخرج ابن يزيد الى المسجد فرأى أن يوجههم الى عدوّهم

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٥٣ .

الحقيقى بعيدا عن الكوفة فيأمن بذلك شرّهم ويستفيد من ثورتهم فيخطب فيهم حاثاً لهم على قتال قتلة الحسين وداعيا لهم الى الأخذ بثأره فيقول : « ما أنا قتلت الحسين ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ، فان كان هؤلاء القوم آمنين فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى قاتل الحسين فقد أقبل اليهم وأنالهم على قاتله ظهر » وأنبأهم ابن يزيد أن القائد الأموى عبيد الله بن زياد قاتل الحسين قد قدم بجيشه وأصبح على مقربة من الكوفة ، واقترح ابن يزيد على التوابين أن يخرجوا لقتاله ، فيقتلوه أخذا بثأر الحسين [1] .

كانت هذه الخطة التى رسمها عبد الله بن يزيد فى صالح حركة التوابين والحركة الزبيرية . فالتوابون ما قاموا الا للأخذ بثأر الحسين ، وها هو ذا ابن زياد قد بعثه مروان بن الحكم الخليفة الأموى الجديد لينتزع الكوفة من أيدى ولاة ابن الزبير ، ففى قتالهم له وقتلهم اياه نجاح لأغراضهم . أما ابن يزيد فهو يعلم غرض ابن يزيد فهو قادم لقتاله ورد العراق الى حظيرة الدولة الأموية ، وهو لا يضمن نتيجة قتاله له ، فان الأمور فى الكوفة لم تستقر له بعد ، وخاصة بعد قدوم المختار بن أبى عبيد ذلك المنافس الخطير لكل من الحركة الزبيرية والحركة التوابية . ورأى ابن يزيد فى التوابين قوة يستخدمها فى صد ابن زياد دون أن يحرك هو ساكنا .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٤ .

عزم سليمان بن صرد على الخروج للأخذ بثأر الحسين ، وأخذ يستعرض جيشه ولكنه رآه قليل الجند ، فبعث يدعو النـاس للخروج معه ، فلم يستجب لندائه سوى أربعة آلاف ، فقد نجح المختار فى ضم فريق من التوابين . وأقام سليمان ثلاثة أيام بمكان يسمى النخيلة على مقربة من الكوفة يدعو المتخلفين عنه ، فلم يقدم عليه أكثر من ألف رجل آخرين [1] .

تقدم التوابون حتى بلغوا قبر الحسين ، وهناك استرحموا عليه وبكوا بكاء مريرا وتابوا عن خذلانهم له . ثم ساروا الى الأنبار ومنها الى قرقيسيا وكان بها زفر بن الحارث الكلابى ، عامل ابن الزبير ، فقدّم لهم المال والمؤن وعرض عليهم البقاء فى قرقيسيا وتوحيد جهودهم ليسهل لهم القضاء على ابن زياد ، ولكن ابن صرد أصر على المسير لقتال ابن زياد ، قاتل الحسين بن على .

كان ابن زياد فى طريقه الى قرقيسيا ، فأتته الأنبـاء بوفاة الخليفة مروان بن الحكم وتولية ابنه عبد الملك ، الذى أرسل اليه يقرّه على ما ولاّه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقى التوابين عند عين الوردة ، فطلب منهم أن يبايعوا للخليفة الأموى الجديد عبد الملك ، فرد عليه ابن صرد طالبا منه الاستسلام ، كما دعا جند الشام الى خلع عبد الملك ومساعدة التوابين فى اخراج عمّال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول . وكأن التوابين كانوا يعبّرون تماما فى ذلك الحين عن آراء المختار

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .

ومبادئه ، فقد كان المختار يدعو الى القضاء على كل من النفوذ الأموى والنفوذ الزبيرى بالعراق ، كما يدعو الى اقامة خلافة علوية يتولاها محمد بن الحنفية رأس العلويين حينئذ . ولكن التوابين والأمويين أبوا الا أن يقاتلوا فى سبيل الأغراض التى خرجوا من أجلها . وانتهت معركة عين الوردة بمقتل سليمان بن صرد ومعظم أصحابه [1] .

مدى مسئولية المختار عن مصير التوابين :

كان موقف المختار العدائى من حركة التوابين ومنافسته لهم أول أسباب اخفاقهم ، وما لاقوه من هزيمة ومصير مؤلم . فقد قدم المختار فى نفس الوقت الذى قدم فيه عبد الله بن يزيد عاملا لابن الزبير ، وبدأ كلٌ من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة ، فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ، على حين أراد المختار أن يجمع الناس حوله فيكوّن منهم حزبا قويا يساعده فى الوصول الى النفوذ والسلطان .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد انتشرت سريعا ، فخاف المختار انهيار آماله وضياع جهوده ولكنه كان فى حاجة الى أنصار يشدّ بهم أزره ، وكان يدرك أنه فى العراق موطن الشيعة ، فرأى أن يستعين بهم ويعتمد عليهم ، ولكنه سرعان ما وجدهم قد اندمجوا

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٠ .

فى حركة التوابين ، فكان عليه أن يمزّق شمل هذه الحركة فبدأ يثنى الناس عن عزمهم فى الخروج مع ابن صرد لقتال ابن زياد « فكان المختار اذا دعا الشيعة الى نفسه والى الطلب بدم الحسين قالوا : هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة وقد أطاعته الشيعة وانقادت له وولته أمرها . فيقول : ان سليمان رجل لا علم له بالحروب وسياسة الرجال ، فلم يزل حتى انشعبت اليه طائفة منهم » [1] . ويروى ابن الأثير[2] أن سليمان بن صرد لاحظ قلة جنده خلال المعركة ، مما أثار غضبه ، ولما تساءل عن سبب قلتهم « قيل له ان المختار يثبط الناس عنك ، انه قد تبعه ألفان » ويدافع المؤرخ الألمانى المعروف (فلهوزن) [3] عن المختار ويبرر موقفه من التوابين ويعتبره غير مسئول عن اندحار التوابين ، ويصف خروج التوابين وسليمان بن صرد لقتال الأمويين فى عين الوردة بأنها (مغامرة) تنبأ لها بالاخفاق ، فيقول : كان المختار ينوى أن يتزعم الشيعة ، ولكنه لم يستطع أن ينال هذه الزعامة من سليمان ابن صرد ، رغم ما صادفه من بعض النجاح ، ولكنه تخلص من سليمان بما وقع لهذا الأخير فى حملته المشئومة ضد أهل الشام . وهنالك استطاع أن يرث زعامته وهو مرتاح الضمير ، لأنه طالما حذر من القيام بتلك المغامرة وتنبأ بالمصير السيىء الذى آلت اليه ، وراح فى خطبه يعلن مقدما الاخفاق . فأخذ يمسك بزمام

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) الكامل جـ ٤ ص ٧٣ .

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٠١ .

الأمر بيد قويّة وأراد أولا أن يبدأ بامتلاك ناصية الكوفة فوجّه الشيعة هذا الاتجاه .

وفى رأينا أن مما يخفّف مسئولية المختار عن مصير التوابين ، أنه كانت هناك عوامل كثيرة أدّت الى مصيرهم المؤلم ، فكانت كالمعاول التى اشتركت فى هدم الحركة التوابية ، وكالسوس ينخر فى عظامها ، مما أدّى فى النهاية الى انهيارها .

فأول هذه العوامل ، أن نجاح حركة التوابين كان يتطلب القضاء على بعض أشراف الكوفة الذين انضموا الى جيش ابن زياد فى كربلاء . وقد رأى عبد الله بن سعد أحد زعماء التوابين ذلك فقال لابن صرد : « انما خرجنا نطالب بدم الحسين وقتلة الحسين كلهم فى الكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ورءوس الأرباع وأشراف القبائل ، فأنى نذهب ؟ » [1] . ولكن ابن صرد وأصحابه قد امتنعوا عن قتل هؤلاء الأشراف لأن منهم من كان من بنى عمومتهم ، وأقرب أقربائهم ، فلا عجب أن يتفرق الكثير عن التوابين لأنهم ناقضوا أنفسهم بأنفسهم .

وقد تلافى المختار هذا الخطأ الذى وقع فيه التوابون ، فبعد أن أصبح صاحب النفوذ فى الكوفة ، كان أول ما أقدم عليه هو الأخذ بثأر الحسين وقتل قتلته المقيمين فى الكوفة وهدم دورهم ، وفى مقدمتهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فشفى بذلك غليل الشيعة بالكوفة .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٨ .

وثانى هذه العوامل ضعف التوابين من الناحية العسكرية ونقص عدتهم ، ومرد ذلك الى فقرهم فى المال ، فلم يصمدوا أمام الجيش الأموى الوفير العدد والعدّة ، والذى يعتمد على بيت مال الشام العامر بالأموال ، لم يستطع ابن صرد أن يمدّ جنده بما يحتاجون اليه من سلاح وعتاد ، واعترف حين خرج يستعرض جيشه ، فلم تعجبه عدّتهم ، ويروى الطبرى [1] : « ان سليمان ابن صرد دعا الى ديوانه لينظر فيه الى عدّة من بايعه حين أصبح فوجدهم ستة عشر ألفا ، فقال : سبحان الله ما أرى الاّ أربعة آلاف من ستة عشر ألفا !! » .

وقد صرّح التوابون أنهم فقراء وأنه ليس عندهم مال يهبونه للناس كما تفعل الحكومة الأموية فى دمشق ، وأن لا غاية لهم سوى التوبة بثأرهم للحسين ، وكان هذا الاعتراف دليلا على عجزهم وضعفهم ، والناس لا يستهويهم الكلام الجذّاب الى أمد طويل ، وان استهواهم فالى حين . وعبر ابن صرد عن ذلك بقوله : « .. ومن كان يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتى فيئا نستفيئه ولا غنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله ربّ العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خزّ ولا حرير ، وما هو الاّ سيوفنا فى عواتقنا ورماحنا فى آكفنا ، وزاد قدر البلغة الى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا ! » [2] .

واستفاد المختار من هذا الخطأ أيضا ، فلم يبدأ المختار طلب

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٦٦ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٦٨ .

الأخذ بثأر الحسين الا بعد أن سيطر تماما على الكوفة ، وأصبح له بيت مال عامر بالأموال ، وجيش وافر العدة والعدد .

وثالث العوامل ، رفض التوابين مساعدة ابن الزبير . فقد أراد ابن الزبير أن يستفيد من التوابين ، ، فجرّب أن يقنع زعماءهم فى الانضمام اليه والانتصار له ، فأبوا أن يقاتلوا فى صفوفه لئلا يكونوا سلّما يرقى عليه لمطامعه ، وآلة سهلة ليّنة يديرها كيفما شاء .

ولقد حاول أنصار ابن الزبير أن يؤكدوا للتوابين أن الأمويين أعداء لكل من الطرفين على السواء ، ولقد عرضوا عليهم المساعدات المالية ، فلم يقبلوا اذ كانت دعوتهم انما هى لطلب ثأر الحسين . على أن التوابين وان لم ينضموا الى الزبيريين فانهم رغم ذلك قد شغلوا الأمويين فى العراق عن التفرغ لمناهضة ابن الزبير . وكان التوابون يعتقدون أن القتال مع ابن الزبير ضلال ، ويتضح هذا فى قول ابن صرد : « .. ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالا ، وان نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر الى أهله ، وان أصبنا فعلى نيّاتنا تائبين من ذنوبنا ، ان لنا شكلا ولابن الزبير شكلا » (١) .

واتفق المختار مع التوابين فى رفض التعاون مع ولاة ابن الزبير ، ولكنه تميّز عنهم أنه جعل هذا الرفض يأخذ صورة ايجابية وصداما مسلّحا .

ونحن نعتبر ولاة ابن الزبير مسئولين عمّا لحق بالتوابين ،

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٥ ــ ٦٧ .

فى معركة عين الوردة من هزيمة واندحار ، فقد كان عليهم أن يبعثوا جيشا زبيّريا لنجدتهم ، ويستحثوا الكوفيين والزبيريين على مساعدة التوابين ، فانتصار التوابين يعود حتما على الحركة الزبيرية بفوائد عظيمة . وكنّا نتوقع أن يمدّ ولاة ابن الزبير التوابين ببعض المال ، فكانوا فى أشدّ الحاجة اليه ، وقد عرف زفر بن الحارث والى قرقيسيا حاجتهم فمدّهم ببعض المال والمؤن ، وكان جديرا بابن الزبير أن يحذو حذو عامله زفر .

ونضيف الى العوامل الثلاثة السابق ذكرها ، عاملا رابعا ، هو تخاذل أهل المدائن والبصرة من الشيعة عن مساعدة التوابين والوفاء بوعودهم . وبطبيعة الحال لم يكن المختار مسئولا عن تخاذلهم فقد كان مقيما فى الكوفة ولم يمد نفوذه بعد الى البصرة أو المدائن .

فقد أجمع التوابون أن يكون معسكرهم فى النخيلة ، وموعد اجتماعهم فى ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ (٦٨٤) وذلك لتعبئة صفوفهم ولتهيئة الخطط العسكرية الضرورية قبل الزحف لملاقاة الجيوش الأموية القادمة بقيادة عبيد الله بن زياد . فلم يوافقهم أنصارهم من أهل المدائن والبصرة للميعاد المضروب بينهم . وقد أقعدهم عن اللحاق بهم قلة المال وسوء عدتهم ، فأقاموا مدّة يتجهزون ، فانتهز الأمويون الفرصة وناجزوا التوابين فى عين الوردة قبل قدوم الأمداد لهم فهزموهم هزيمة منكرة .

استفاد المختار من القضاء على التوابين ، بينما الدولة الأموية لم تستفد كثيرا ، ولم يستفد عبد الله بن الزبير كذلك . فقد

استطاع المختار أن يرث سليمان بن صرد وزعماء التوابين . أما الدولة الأموية فان كانت قد تخلصت من حزب ثائر مناوىء الا أنها انشغلت بهم عن أعدائها الأقوياء ابن الزبير والمختار وأنصارهما . أما ابن الزبير فقد كانت نهاية حركة التوابين ايذانا ببداية صراعه مع المختار ومع الأمويين حول النفوذ في العراق .

قضت الدولة الأموية على حركة التوابين في معركة عين الوردة كما قلنا ، ولكنها لم تقض على الأحقاد المتأصلة في نفوس الشيعة . فكانت تغلو مراجل الضغينة في صدورهم اذ لاقوا من المذلة والاهانة بعد معركتي كربلاء وعين الوردة ما جعلهم مستعدين استعدادا تاما لقبول زعيم نشيط يدير دفة سياستهم ويتسلم زمام أمورهم . وقد كان المختار شابا طموحا عالي الهمة لم تفتر همته عن جمعهم تحت لوائه فتكللت مساعيه بالنجاح . ورغم فشل حركة التوابين ، فانها أتت ببعض الثمار التي جناها المختار في سهولة ويُسر . فقد جمع سليمان بن صرد وغيره من الزعماء فلول الشيعة في العراق وكوّنوا منهم حزبا واحدا له نظمه وشعاراته وأصبح لهذا الحزب جيش يبلغ عدد جنده رسميا ستة عشر ألفا ، وفي الواقع أربعة آلاف جندي . ونجح ابن صرد واخوانه أن يبلوروا آراء الشيعة ويجعلوا طلب ثأر الحسين المحور الذي تلتف الشيعة حوله . وقضى التوابون الفترة بين سنة ٦١ هـ وهي السنة التي لقي الحسين فيها حتفه وسنة ٦٤ هـ التي أعلنوا فيها الثورة ، يستعدون للقيام بحركتهم ، فجمعوا الأموال والسلاح والجنود ، وبذلوا في سبيل ذلك كثيرا من الجهود . وقد تسلّم

المختار زمام حزب التوابين بما يضم من جند وأسلحة ومؤن وعدد، واستفاد من جهود التوابين طوال ثلاث سنوات من الاستعداد.

المختار يستفيد من أخطاء ولاة ابن الزبير :

قدم المختار الى بلاد العراق ليصبح فيها الرجل الأول، وصاحب السلطة الوحيد. فوجد من سبقه الى أهل العراق. فقد استطاع ولاة ابن الزبير أن يتخلصوا من النفوذ الأموى ويبسطوا سلطانهم على بلاد العراق. كما وجد المختار التوابين قد سبقوه الى شيعة العراق فضموهم الى صفوفهم. ونجح المختار فى صرف الشيعة عن الانضمام الى التوابين، وانتهت الحركة التوابية كما رأينا بالاخفاق. وبقى للمختار أن يقضى على نفوذ ابن الزبير بالعراق، ولكن لم تكن هذه المهمة سهلة أو يسيرة، فقد استفحل شأن عبد الله بن الزبير وسيطر على جميع الأمصار الاسلامية عدا بلاد الشام، وأصبح له جيوش كبيرة وامتلك بيوت المال. فكان على المختار أن يترقّب الفرصة المواتية، وأن يصبر ويصابر، وأن يستفيد من الأخطاء التى قد يقع فيها ولاة ابن الزبير، وكان من حسن حظ المختار أن تعدّدت أخطاؤهم.

كان عبد الله بن الزبير، خليفة الحجاز، يعلم أنه فى حاجة الى تأييد العراق التى كانت مورد المال والرجال، كما كان يعلم أن معظم أهل العراق شيعة علىّ، وأنهم لم يغضبوا لشىء أكثر من

غضبهم لمصرع الحسين بن على ، وكان هـذا الغضب سببا فى التفاف الشيعة حول التوابين ثم حول المختار .

وما دام ابن الزبير فى حاجة الى تأييد أهل العراق ، ويريد صرفهم عن المختار ، فقد كان عليه أن يُجاريهم فى شعورهم ويوافقهم على أهوائهم ، عملا بالمثل المشهور (دارهم ما دمت فى دارهم) . فكان عليه أن يأمر واليه عبد الله بن يزيد بالتظاهر بالحزن على مصرع الحسين ، وأن يوافق أهل العراق فيما يريدونه من المطالبة بثأره ، وكلما زادت حماستهم زاد عدد الخارجين لقتال عبيد الله بن زياد قائد الجيش الأموى ، وفى ذلك هلاك للفريقين وعلوّ شأن ابن الزبير .

حقا ان عبد الله بن يزيد شجع أهل العراق على الخروج لقتال ابن زياد ، ولكنه لم يذكر لهم أنه على رأيهم ، كما أنه لم يساعدهم ماديّا أو أدبيا ، بل اتبع نحوهم سياسة سلبية [1] . فقد قصر مساعدته على النصح والتحذير . ولكن جهود ابن يزيد ضاعت أمام سياسة ابن الزبير مع بنى هاشم فقد اضطهدهم وآذاهم وأهانهم ، فقد حبس محمد بن الحنفية وابنه الحسن ، وأمر بذم على بن أبى طالب على المنابر وتتبع الهاشميين بالاضطهاد . ولا شك أن هذه السياسة كفيلة بأن تجعل أهل العراق يتخلون عن تأييد ولاة ابن الزبير ، ولا يصدقوهم فى أنهم جادون فى طلب ثأر الحسين. وقد استفاد المختار من تخبط عبد الله بن يزيد والى ابن الزبير

(١) انظر خطبته فى كتاب الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٦٩ .

فى سياسته . فقد كان هذا الوالى لا يستقر على حال . وكان جديرا بابن يزيد أن يتبع نحو التوابين احدى هاتين السياستين : أولاهما : أن يمد التوابين بالمال والجند والسلاح وكانت بيوت المال فى يده ، وبذلك يصبح التوابون فى حالة تمكنهم من الانتصار على عبيد الله بن زياد . وثانيتهما ، أن يحاول اثناء التوابين عن عزمهم فى الخروج وينصحهم بالتريث حتى يصل ابن زياد الى العراق ، فيخرج ابن يزيد بجيوشه يؤازره التوابون وأهل العراق ، فتسهل عليه هزيمة عدوهم . ولكن ابن يزيد تردّد بين هاتين السياستين، فنراه فى أول الأمر يحضّهم على الخروج دون أن يساعدهم حتى اذا بدأوا رحلتهم ، شعر بخطئه فبعث اليهم رسولا يطلب منهم العودة ، لأنه شعر بضعف التوابين وقلة عددهم ، فخاف عليهم من الهزيمة فى وقت هو فى حاجة الى انتصارهم .

بعث ابن يزيد الى التوابين يحثهم على العودة ويحذرهم من المخاطرة بالخروج فقال : « أقيموا معنا حتى تتيسّر وتتهيأ ، فاذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا اليه بجملتنا فقاتلناهم» [1] .

ولكن سليمان بن صرد رفض الاستماع الى هذا الرأى وقال: انا ليس للدنيا خرجنا [2] .

وكان من حسن حظ المختار أن اختار عبد الله بن الزبير ، ابراهيم بن محمد بن طلحة ليتولى خراج الكوفة ، وليتوب عنه فى أخذ البيعة من أهلها . فقد أساء ابن الزبير الاختيار ، حيث لم يكن

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٥ .
(٢) المصدر السابق .

ابراهيم أهلا لثقته . ويرجع خطأ ابن الزبير فى ذلك ، الى أنه كان يعلم تماما أن أهل العراق كلهم شيعة علىّ . وخاصة أن ابراهيم وصل الى العراق فى وقت ظهرت فيه حـركة التوابين الشيعية ، وقدم المختار الى العراق وبدأ يجمع الشيعة حوله وأعلن لهم أنه وزير محمد بن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفرّ من صدام ابراهيم بأهل العراق ، فقد نسى ابراهيم أنه يمثل ابن الزبير خليفة الحجاز ، وأنه من الواجب عليه أن يتناسى أحقاده .

كان المختار يهدف الى هدم النفوذ الزبيرى ، وأتاح ولاة ابن الزبير له هذه الفرصة ، فقد وقع خلاف شديد بين الواليين الزبيريين : ابراهيم بن محمد بن طلحة وعبد الله بن يزيد . فقد أبدى ابراهيم عدم رضاه عن سياسة اللين والتسامح التى اتبعها ابن يزيد نحو أهل العراق والتوابين ، ووقف ابراهيم يهددهم ويتوعدهم ويسبّ زميله ابن يزيد فقال : « أيها الناس ، لا يغرنكم من السيف والغشم مقالة هذا المهادن المخادع — يقصد ابن يزيد — والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن اسـتيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، حتى يدينوا للحق ، ويذلوا للطاعة » (١) .

لم يرض أهل العراق عن تهديد ابراهيم ووعيده ، وهبّوا فى وجهه ، فوقف أحد زعماء التوابين ، وهو المسيب بن نجبة ، يسبّه ويتهمه أنه موتور اذ قتل أهل العراق من قبل جدّه طلحه بن عبيد الله

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٢٥ .

وأباه محمدا في موقعة الجمل في خلافة علي بن أبي طالب ، وامتدح سياسة عبد الله بن يزيد . وهكذا هدم ابراهيم كل جهود ابن الزبير في سبيل نيل تأييد أهل العراق ، ودفع بهم للالتفات حول المختار دون أن يبذل المختار جهدا في حملهم على الانضمام اليه . وكنا نتوقع أن يقف ابن يزيد في وجه ابراهيم فيُحدّ من سياسة العنف التي اتبعها في معاملته لأهل العراق ، ولكن ابن يزيد أبدى خوفه من مرءوسه وهرع اليه يقدم اعتذاره له ويطلب الصفح منه ، فقد « تهدده ابراهيم أن يكتب الى ابن الزبير يشكوه ، فجاءه عبد الله بن يزيد في منزله واعتذر اليه فقبل عذره » [1] . وتمادى ابراهيم في سياسة اضطهاد أهل العراق عامة والشيعة خاصة ، ولم يحرّك ابن يزيد ساكنا ، وابن الزبير في الحجاز جاهل بما يرتكبه ولاته من أخطاء تقضى على نفوذه ، وتتيح الفرصة للمختار أن يبسط سلطانه على بلاد العراق .

استفاد المختار كل الفائدة من أخطاء عبد الله بن يزيد وابراهيم ابن محمد بن طلحة من ولاة ابن الزبير ، فقد أدّت سياستهما الى نفور الشيعة من الحركة الزبيرية ، فأسرعوا الى الالتفاف حول المختار .

المختار في سجن ولاة ابن الزبير :

شعر عبد الله بن يزيد ، وابراهيم بن محمد بن طلحة ، الواليان الزبيريان ، باستفحال أمر المختار ، وخطورته على نفوذ ابن الزبير

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .

بالعراق ، فقبضا عليه وألقياه فى السجن . ولكن المختار لم يكن الرجل الذى يدخل اليأس قلبه ، فقد استمر وهو فى سجنه يمضى فى تنفيذ سياسته المرسومة ، فأخذ يراسل الشيعة والتوابين ويحثهم على تأييده باعتباره نائب ابن الحنفية واستطاع أن يثير عواطفهم نحوه اذ وجدوه قد أُلقى به فى السجن مظلوما ، وكان يحقدون على ابراهيم بن محمد بن طلحة ، « فكتب اليهم — المختار — من الحبس يثنى عليهم ويمنيهم بالظفر ، ويعرفهم أنه هو الذى أمره محمد بن على المعروف بابن الحنفية بطلب الثأر . فلمّا قرأوا كتابه بعثوا اليه عبد الله بن كامل يقولون له : اننا بحيث يسرك ، فان شئت أن نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا . فأتاه فأخبره ، وقال لهم : انى أخرج فى أيامى هذه »[1] .

وهكذا كان المختار على اتصال بأنصاره من الشيعة طوال بقائه فى السجن ، كما كان فى نفس الوقت يبذل جهده من سجنه ، فبعث الى زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب يطلب منه أن يشفع فيه الى عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة . ولبّى ابن عمر رجاء المختار هذه المرّة أيضا ، وكان قد شفع فيه بالأمس عند الخليفة يزيد بن معاوية حين سجنه عبيد الله بن زياد فأمر يزيد واليه بالافراج عنه ، فأطلقه ونفاه الى الحجاز . وكتب ابن عمر الى ابن يزيد وابراهيم يرجوهما اطلاق سراح المختار ، وقبلا رجاءه وأفرجا عن المختار ، فقد كان لابن عمر منزلة كبرى فى قلوب المسلمين جميعا . ونلاحظ أن ابن عمر توجّه برجائه الى الواليين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٨ .

الزبيريين مباشرة دون الرجوع الى خليفتهما عبد الله بن الزبير رغم أنهما كان يقيمان فى بلدة واحدة هى مكة ، فقد كانت العلاقات بين ابن عمر وابن الزبير على غير ما يرام ، نتيجة رفض ابن عمر البيعة لابن الزبير . كما نلاحظ أيضا أن ابن يزيد وابراهيم لم يرجعا الى ابن الزبير قبل الافراج عن المختار فيستأذنا منه فى ذلك . ولم يكن المختار بالرجل الهيّن الأمر أو القليل الشأن ، بل كان أجدر رجالات العرب فى ذلك الحين ، كما كان زعيما سياسيا له خطورته. ولكن ابن يزيد وابراهيم أرادا أن يضمنا ركون المختار الى الهدوء والسلام ، فطلبا منه أن يقسم أغلظ الايمان على طاعتهما ومسالمتهما « ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فان فعل فعليه ألف بدنة ينحرها عند الكعبة ، ومماليكه أحرار ، ذكرهم وأنثاهم » [1] .

غادر المختار سجنه ، وهو يسخر من سذاجة ابن يزيد وابراهيم ابن محمد بن طلحة ، اللذين أصبحا يأمنانه لقسم بسيط لم يكلفه شيئا ، بينما اعتبر هو هذا القسم وسيلة تبررها غايته الكبرى ، وهو حتما سيحنث مستقبلا بيمينه ، فقال ساخرا من رجلى ابن الزبير : « قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنّى أفى لهم ، أمّا حلفى بالله ، فاننى اذا حلفت على يمين فرأيت خيرا منها أن أكفر عن يمينى ، وخروجى عليهم خير من كفّى عنهم ، وأما هدى البدن وعتق المماليك ، فهو أهون على من بصقة ، فوددت أن تم لى أمرى ولا أملك بعده مملوكا أبدا »[2] . وكان المختار

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩ .
(٢) المصدر السابق .

على جانب كبير من الثراء ، اذ يمتلك كثيرا من الموالى وضيعة كبيرة قرب الكوفة ، ممّا يتيسّر له أمر التكفير عن حنثه فى قسمه ، فيعتق رقاب بعض رقيقه .

المختار يغادر السجن ويستعد للثورة على ابن الزبير:

ويخرج المختار من سجنه ليجد آلاف الشيعة فى انتظاره ، فقد قتل سليمان بن صرد فى معركة عين الوردة ،وعادت فلول التوابين تبحث عن زعيم جديد ، ووجدت هذا الزعيم فى شخص المختار . ووقف المختار يتحدث الى التوابين ، فترحّم على سليمان بن صرد وأخبرهم أن روحه مع أرواح الأنبياء والشهداء والصالحين ، ولكنه لم يكن الزعيم المنشود الذى يصلح لهذه المهمة الكبرى ، وأعلن المختار أنه « قاتل الجبارين » ، وطلب منهم الاستعداد للقتال ، ثم أعلن أنه يدعوهم « الى كتاب الله وسنّة نبيّه ، والطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء » .

ورأى المختار أن تستند دعوته الى أحد العلويين ، مما يجعل الشيعة ترتبط به ارتباطا وثيقا ، أعظم من ارتباطهم بسليمان بن صرد . فقد قصر ابن صرد أهدافه على طلب الثأر للحسين ، ولكنه لم يستند فى حركته على أحد العلويّين ولم يرسم خطة عريضة للمستقبل ، فلم يعمل على اقامة خلافة علوية يتولاها أحد أولاد علىّ أى أن أهداف ابن صرد كانت سلبية وليست ايجابية ، تنظر الى الماضى ولا تتطلع الى المستقبل .

ووقع اختيار المختار على عليّ بن الحسين ، فهو من سلالة الرسول وابن شهيد كربلاء الذى يطالبون بثأره . فكتب المختار اليه يقترح عليه أن يأخذ البيعة له من أهل العراق ، وبعث المختار مع رسالته مبلغا كبيرا من المال . ورفض عليّ اقتراح المختار ، فقد كانت مأساة كربلاء ماثلة فى أذهانه ، فقد كان وقتئذ صبيا فى مقتبل العمر وشاهد مصرع أبيه ، ورأى أن يبتعد عن السياسة ومخاطرها .

فتحوّل المختار الى محمد بن الحنفية ، وكان المختار قد التقى به قبل رحيله الى العراق وأخبره بعزمه على الثأر لأخيه الحسين والانتصار لآل بيته ، فقال ابن الحنفية : « انى لأحب أن ينصرنا ربّنا ويهلك من سفك دماءنا ، ولست آمر بحرب ولا اراقة دم » [1] . ولمّا امتنع عليّ بن الحسين عن قبول البيعة ، أعلن المختار للشيعة والتوابين أن ابن الحنفية قد أرسله وزيرا وأميرا لطلب دماء أهل بيته وقتل ابن زياد . ولكن الشيعة شكت فى أمره فخرجوا الى ابن الحنفية يسألونه عن الحقيقة ، فقال لهم : « ما أحب الينا من طلب ثأرنا وأخذ لنا بحقّنا وقتل عدوّنا » [2] . فعادوا ليلتفّوا حول المختار وينضووا تحت لوائه .

وبعد أن استفحل أمر المختار ، قرر عبد الله بن الزبير أن يعزل عامليه عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة ، وولّى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥ .

عبد الله بن مطيع بدلهما على الكوفة . فكأن ابن الزبير أعطى المختار فرصة ليتخلص من يمينه ، فقد أقسم على ألا يقف فى وجه ابن يزيد وابن طلحة ، ولكنه لم يَعِدْ الوالى الجديد ابن مطيع بشىء .

قدم عبد الله بن مطيع الى الكوفة فى يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ٦٥ هـ ، وكان من أشدّ أنصار ابن الزبير حماسة . وكان على ابن مطيع أن يشدّ العنان فى الكوفة أكثر مما فعله سلفاه المتساهلان [١] ! وانتهز ابن مطيع أول فرصة ليعرض من فوق منبر الكوفة برنامجه السياسى ، وأعلن لهم « ان أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مصركم وثغوركم وأمرنى بجباية فيئكم ، وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم ، وأن أتبع وصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته ، وسيرة عثمان بن عفان ، فاتقوا الله واستقيموا .. » [٢] .

ولكن خطاب ابن مطيع مسّ قرحا فىأهل الكوفة فقد كانوا جميعا لا يرضون أن يؤخذ فضل فىء مصرهم ، بل طالبوا دائما بالابقاء عليه فى الكوفة وتوزيعه فيهم ، وهى نفس السياسة التى اتّبعها علىّ بن أبى طالب ، وكانت الكوفة فى عهده عاصمة الخلافة ومقرّ بيت المال المركزى ، لا كما فعل عمر بن الخطاب ، أو كما فعل عثمان بن عفان .

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٠٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٩ .

وقف أحد الشيعة المتحمسين، وهو السائب بن مالك الأشعرى، يعترض على ما رسمه ابن مطيع من سياسة مالية يتبعها مستقبلا ، واستغل هذا الشيعى الفرصة ليـذكر الناس بعظمة الكوفة فى عهد علىّ بن أبى طالب ، وأعلن أن أهل العراق يطالبون ابن مطيع باتباع سياسة علىّ وأنهم يرفضون اتباع سياسة عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان ، كما أنهم يرفضون أن يبعث ابن مطيع فائض فىء العراق الى ابن الزبير بمكة ، ويصرون على انفاق جميع الفىء على مصالح بلادهم . واضطر ابن مطيع أن يعلن أنه يوافق على تحقيق جميع رغبات أهل العراق [1] .

بدأ ابن مطيع يتفرغ لنضال المختار ، فولّى على شرطته اياس ابن مضارب ، وكان خبيرا بأعمال الشرطة ، فبث رجاله فى كل مكان يجمعون له أخبار الشيعة والمختار . وجاء اياس الى ابن مطيع فأخبره أن السائب بن مالك الأشعرى الذى وقف بالأمس يعارض ابن مطيع ويثير مشاعر أهل العراق ضدّه « من رءوس أصحاب المختار » . كما أعلن ابن اياس لابن مطيع أنه لا يأمن المختار ، ونصح ابن مطيع أن يبعث فى استدعاء المختار حتى اذا قدم عليه قبض عليه وألقاه فى السجن « حتى يستقيم أمر الناس ، فان أمره قد استجمع له ، وكأنه قد وثب بالمصر » .

واستجاب ابن مطيع لنصيحة رئيس شرطته ابن اياس ، وبعث برسولين يستدعيان المختار اليه ، وأراد المختـار تلبية دعـوة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٩ .

ابن مطيع ، ولكن واحدا من الرسولين كان من مريدى المختار ، فألمح له من طرف خفىّ بعزم ابن مطيع على الغدر به ، اذ قرأ عليه الآية الكريمة (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) . فتظاهر المختار بالمرض ، وطلب من رسولى ابن مطيع أن يخبراه بأن المرض يمنعه من القدوم عليه [١] .

ثم رأى المختار أن يتخذ موقفا حاسما من عبد الله بن مطيع ، فهو وان كان قد نجا من قبضة ابن مطيع هذه المرة ، فقد يعيد ابن مطيع الكرّة مرة أخرى . ولذا بدأ المختار يستعد لاعلان الثورة فى مستهل العام الجديد ، عام ٦٦ هـ ، ورأى أن تستند الثورة على تأييد زعيم الشيعة وقتئذ محمد بن الحنفية .

قام المختار يدعو باسم محمد بن الحنفية ويسميه (المهدى) ويسمّى نفسه (وزير المهدى وأمينه) . وشكّ نفر من الشيعة فى صحة هذه الدعوى ، فراحوا الى المدينة ليتبيّنوا جلية الأمر من محمد بن الحنفية ، فقال لهم : « أمّا ما ذكرتم ممن دعاكم الى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه » [٢] .

كانت هذه الاجابة العامة المجملة تكفى أولئك الشيعة ، فعادوا بعد شهر الى الكوفة ، وأخبروا المختار بجواب ابن الحنفية ، فشعر المختار بأنه استراح من همّ ثقيل ، ودعا فى الحال الى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من المرتابين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٠ .

وكان على المختار أن يكسب الى صفه رجلا آخرا يُقيم فى الكوفة نفسها ، ولا يستطيع المختار دونه أن يلقى رؤساء الشيعة نجاحا ضدّ الأشراف بالكوفة ووالى ابن الزبير . هذا الرجل هو ابراهيم بن الأشتر زعيم قبيلة النخع من مذحج ، وكان بارعا ماكرا مستقل الرأى ، وكان كأبيه مخلصا لعلىّ بن أبى طالب ، وكان على اتصال بمحمد بن الحنفية ، ولكنه لم يكن يؤمن بالتشيع على الصورة التى استحال اليها فى ذلك العهد ، ولم يشأ الانضمام الى سليمان بن صرد فى حركة التوابين ، كما لم يشأ الانضمام الى صفوف المختار رغم بذله عدة محاولات [1] .

كان المختار يدرك أهمية انضمام ابراهيم بن الأشتر اليه ، فقد شرح له أنصاره أهمية تأييد ابن الأشتر ، فقالوا : « ان أشراف أهل الكوفة مجمعون على قتالكم مع ابن مطيع ، فان أجابنا الى أمرنا ابراهيم بن الأشتر رجونا القوة على عدونا ، فانه فتى رئيس ، وابن رجل شريف ، له عشيرة ذات عزّ وعدد » . وخرج أنصار المختار الى ابن الأشتر فأعلموه بحالهم وطلبوا منه الانضمام اليهم وتأييدهم ، وذكروه بما كان أبوه عليه من ولاء علىّ ابن أبى طالب وأهل بيته ، فقال ابن الأشتر : انى قد أجبتكم الى الطلب بدم الحسين وأهل بيته على أن تولونى الأمر . فقالوا له : أنت لذلك بأهل ولكن ليس الى ذلك سبيل ، هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المهدى ، وهو المأمور بالقتال وقد أُمِرنا بطاعته . فسكت ابراهيم ولم يُجبهم فانصرفوا عنه .

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٠٥ .

وبعد أيام ثلاثة ، قصد المختار وأنصاره الى ابراهيم بن الأشتر ، فرحّب بهم ، وجلس المختار الى جانب ابن الأشتر ، وما لبث أن سلّمه رسالة من ابن الحنفية وقال : هذا كتاب من المهدى محمد بن علىّ أمير المؤمنين وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهلها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا .

قرأ ابراهيم بن الأشتر رسالة محمد بن الحنفية ، والتى جاء فيها : « من المهدى الى ابراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الاّ هو . أما بعد ، فانى قد بعثت اليكم وزيرى وأمينى الذى ارتضيته لنفسى وأمرته بقتال عدوّى والطلب بدماء أهل بيته ، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فانك ان تنصرنى وأجبت دعوتى كان لك بذلك عندى فضيلة ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام »[1] .

أبدى ابراهيم بن الأشتر شكه فى صدور هذه الرسالة من محمد بن الحنفية ، لأنه بدأها بعبارة « من محمد المهدى » ، فقال : قد كتب الى ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت ، فلم يكتب الاّ باسمه واسم أبيه . وأسرع المختار يبرّر ما فعله ابن الحنفية اذ قال : ان ذلك زمان وهذا زمان . ويقصد المختار أن ابن الحنفية بدأ يتطلع لتولّى الخلافة ، ودخل غِمار السياسة ، ولذا اتخذ ألقابا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

جديدة . ولكن ابن الأشتر طالب المختار بأدلة دامغة على صدور الخطاب من ابن الحنفية . ولكن الذين قدموا بالكتاب ، والمختار نفسه أكدوا صحة الكتاب ، الا اثنين لفتا نظره بتحفظهما ، فانتحى بعامر الشعبى ناحية وسأله هل يشك فى أمانة هؤلاء الشهود على صحة الكتاب . فقال عامر الشعبى : معاذ الله فانهم سادة القرّاء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون الا حقا . فسأله ابن الأشتر أن يكتب له أسماءهم ، وكتب محضرا بما وقع . فلما اطمأن قلبه بهذا امتثل لما ورد فى الكتاب ووضع نفسه فى خدمة المختار بن أبى عبيد « ودعا ابراهيم عشيرته ومن أطاعه ، وأقبل يختلف الى المختار كل عشيّة عند المساء يدبّرون أمرهم ، واجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ »[١] .

كان انضمام ابراهيم بن الأشتر الى المختار كسبا عظيما لحركته ، فقد كان ابن الأشتر من أبرز شخصيات عصره ، كما كان له عصبية قوية أصبحت تضمّها صفوف المختار . وقد انتهى بانضمام ابن الأشتر ورجاله الى المختار دور الاستعداد للثورة ، وبدأ الدور الايجابى ، دور الثورة .

المختار يعلن الثورة فى الكوفة :

تناهى الى أسماع عبد الله بن مطيع خطة المختار وابن الأشتر ، وعزمهما وأنصارهما اعلان الثورة ، وان كان لم يعرف الموعد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

المضروب بالدقة ، وكان الموعد الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ومنذ يوم الاثنين احتلت الشرطة الميادين العامة والسوق القريبة من المسجد الجامع ، وكان على رأس الشرطة اياس بن مضارب الذى أقبل على ابن مطيع يرسم له خطة مقاومة المختار وأنصاره فقال : ان المختار خارج عليك باحدى هاتين الليلتين ، وقد بعثت ابنى الى الكناسة [١] ، فلو بعثت فى كل جبانة [٢] عظيمة بالكوفة رجلا من أصحابك فى جماعة من أهل الطاعة لهاب المختار وأصحابه الخروج عليك [٣] . واحتل أنصار المختار من بنى تميم السبخة وكانوا بقيادة شبث بن ربعى ، الذى بعث الى كل جبانة بجماعة من جنده .

تقدم قائد المختار الكبير ابراهيم بن الأشتر على رأس فرقة من مائة جندى مسلّح ، والتقى فى طريقه باياس بن مضارب رئيس الشرطة ، وقام صدام مسلّح بين الفريقين انتهى بمصرع اياس . وكان هذا الحدث ايذانا ببداية ثورة أنصار المختار فى كل مكان بالكوفة ، رغم أن الموعد المحدّد للثورة لم يحن بعد ، ولكن أصبح بعد مصرع رئيس الشرطة لا مفرّ من المضّى فى طريق الثورة ، ووضع رجال المختار رأس اياس على رمح وطافوا به فى الطرقات

(١) الكناسة : مكان خارج الكوفة يتخذ سوقا وللمباريات الادبية ، وكان يشبه فى ذلك مربد البصرة .

(٢) كان لكل قبيلة جبانة خاصة بها ، كما كان لكل قبيلة ايضا حى ومسجد وهذا مظهر من مظاهر العصبية القبلية حينئذ.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩١ .

كاعلان عن بداية الثورة . وبدأ احتشاد جنود المختار وأنصاره في ميادين الكوفة منذ الليل ، وتوافرت جميع مقومات نجاح الثــورة .

وفي صبيحة يوم الأربعاء ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، كان المختار قد نظّم أتباعه ، ونزل في ظهر دير هند ممّا يلي بستان زائدة في السبخة ، وهناك صلّى صلاة الصبح مع أتباعه ، وما كان هناك امام يحسن الوعظ مثله ، فقد كان على نصيب كبير من البلاغة والفصاحة ، قادرا على الاقناع . وكان في جيش المختار كثير من الموالي ، الفرس المسلمين ، وقد أخلصوا له كل الاخلاص .

كان مصرع رئيس الشرطة أول نصر حازه المختار ، فقد كان يبدى عداء شديدا للحركة المختارية ، ولذا اعتبر المختار مصرعه « أول الفتح » . وتقدم ابراهيم بن الأشتر على رأس جيش المختار ليستولى على أحياء مدينة الكوفة وجباناتها . وتولى جند ابن مطيع قائد جديد هو راشد بن اياس الذى قاد أربعة آلاف جندى ، ولكن ابن الأشتر تمكن من هزيمته وقتله [١] . مما أدّى الى رفع الروح المعنوية في نفوس جند المختار فتعالت أصواتهم بالتكبير والتهليل .

كان قائد ابن الزبير في منطقة السبخة شبث بن ربعى ، الذى تقدم لقتال المختار ، ولكن سرعان ما أرغمه المختار على التقهقر . وكان معظم جند شبث من العرب ، بينما انضم الى المختار كثير من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٢ – ٩٣ .

الموالى ، وأراد شبث أن يثير مشاعر جنده من العرب ويحرّضهم على قتال مواليهم فصاح فيهم : يا حماة السوء ، بئس فرسان الحقائق أنتم ، أمن عبيدكم تهربون ؟!. وكان لهذا الكلام أثره ، فقد هزّ فيهم وتر الشرف ، وأثار فيهم الحفيظة على الموالى ، الذين كانوا يحاربون فى صفوف المختار . فكان اذا هوجم أحد الموالى سقط صريعا مقتولا ، بينما كان الأسرى العرب يُتركون يفرون .

وأضحى جيش المختار فى مركز حرج ازاء تفوق جند عدوه ابن مطيع . وكان قائد فرسان جيش المختار وقت ذاك يزيد بن أنس الأسدى وقد أوشك على الهزيمة رغم استماتته فى الدفاع ، لولا أن أنجده ابراهيم بن الأشتر . وكان هذا فى خلال المعركة مشغولا بقتال فرقتين من فرق العدو فى المدينة آثر التفرغ لقتالهما ، حتى اذا فرغ من قتالهما وتمّ له النصر عليهما ، أسرع لنجدة المختـــار .

ولم يكد يظهر ابراهيم بن الأشتر حتى فرّت جنود شبث ابن ربعى من الميدان . ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى الاحتشاد فى المدينة مرة أخرى ، وانضم اليهم آخرون . ولكن ابراهيم بن الأشتر فرّق شـــملهم . وفرّ الأشراف وابن مطيع الى القصر فحوصروا فيه ، وبعد هذا النصر زاد عدد الشيعة وجند المختار زيادة كبيرة ، فقد أدركوا أن كفة المختار هى الراجحة ، وأنه أصبح رجل الساعة .

رجع الناس من السبخة منهزمين الى ابن مطيع ، وجاءه نبأ قتل راشد بن اياس فسقط فى يده . ودخل أنصار المختار السوق

والمسجد وحصروا ابن مطيع ومعه الأشراف من الناس ، واشتد الحصار عليهم ، فقال شبث لابن مطيع : إنظر لنفسك ولمن معك فوالله ما عندهم غنى عنك ولا عن أنفسهم . فقال : أشيروا علىّ . فقال شبث : الرأى أن تأخذ لنفسك ولنا أمانا ، وتخرج ولا تهلك نفسك ومن معك . فقال ابن مطيع : انى لأكره أن آخذ منه أمانا والأمور لأمير المؤمنين مستقيمة بالحجاز والبصرة . قال : فتخرج ولا يشعر بك أحد فتنزل بالكوفة عند من تثق اليه حتى تلحق بصاحبك [1] .

وبعد ثلاثة أيام تسلّل ابن مطيع من القصر هاربا فاستتر ، أما الأشراف فأذعنوا وبايعوا المختار ، فقد أدركوا أنه بطل الموقف ، وأنه لا جدوى من الاستمرار فى المقاومة بعد فرار والى ابن الزبير بالكوفة ، عبد الله بن مطيع ، وتفرق جنده .

وفى صباح اليوم التالى ، جاء المختار من القصر بعد أن بات فيه ، فتلقى البيعة من الأشراف وغيرهم « على كتاب الله وسنّة نبيّه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم » . وكانت هذه البيعة فى ذلك الوقت بمثابة الدستور ، أو الميثاق الذى يحدد الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكومين ، وكان كل من يعطى بيعة يصبح ملتزما بها ، ومن ينكث انما ينكث على نفسه .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٤ .

وكان فى بيت مال الكوفة وقت ذاك تسعة ملايين درهم ، أخذها المختار فكافأ بها أصحابه. وأنصاره الذين كانوا معه فى حصاره لقصر عبد الله بن مطيع . فقد كان المختار يدرك تأثير المال فى النفوس ، وكان بطبعه جوادا كريما ، ولذا تمّ له الأمر بالكوفة .
أما عبد الله بن الزبير فقد اشتهر بالحرص والبخل ، وكان ولاته بالعراق على مثاله ، فانصرف الناس عنهم .

حكومة المختار في العراق

سيطرة المختار على العراق وأطراف الدولة الاسلامية الشرقية ـ عوامل نجاح سياسة المختـــار فى العراق : (طلب المختار ثأر الحسين ودعوته لابن الحنفية ، المختار يؤمن الأشراف ويعدل بين الناس ، نجاح المختـــار فى استمالة الزعماء الى حزبه ، قضاء المختـــار على قتـــلة الحسين ، خطأ الأمويين باختيار ابن زياد لفتح العراق ، استفادة المختار من العصبية القبلية ، المختـــار يدارى ابن الزبير ، ميل أهل العراق الى الاستقـــلال ، تأييد الموالى للمختار) ـ حكومة المختار فى العراق .

الفصل الخامس

حكومة المختار فى العراق

سيطرة المختار على العراق وأطراف الدولة الاسلامية الشرقية :

رأى المختار حبل الأمن مضطربا فى الأمصار العربية الاسلامية ، ومطامع الزعماء تنخر فى عظام الدولة الأموية ، فقد غلب عبد الله ابن الزبير على الحجاز والعراق ، وتغلّب نجدة الحروري على العروض ، وقام عبد الله بن حازم فى خراسان ، فطمحت نفس المختار الى السلطة والسيادة ، فدعا القوم فى العراق الى الثورة فأجابوه ، واستطاع أن يسيطر تماما على الكوفة بعد القضاء على نفوذ عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز .

حقا قضت الدولة الأموية على حركة التوابين فى معركة عين الوردة ، ولكنها لم تقض على الأحقاد التى تأصلت فى نفوس الشيعة ، فكانت مراجل الضغينة تغلى فى صدورهم ، لما لاقوه من المذلة والاهانة بعد معركة كربلاء وعين الوردة مما جعلهم مهيئين لدعوة زعيم يدير دفّة سياستهم ويتسلّم أمورهم . وقد كان المختار شابا

طموحا عالى الهمة لم تفتر همته عن جمعهم تحت لوائه ، فتكللت مساعيه بالنجاح .

كانت سيطرة المختار على الكوفة نقطة الارتكاز التى ارتكن عليها ليمدّ نفوذه شرقا وغربا . فقد كانت الكوفة قلب بلاد العراق النابض فى ذلك الحين ، ومركز الأحداث السياسية فى الجانب الشرقى من الدولة العربية الاسلامية . وكان ولاة العراق عادة يحكمون الأجزاء الشرقية من الدولة . ولذا دانت لطاعة المختار ولايات اسلامية عديدة ، مثل أرمينية ، وأذربيجان ، والموصل ، والمدائن ، وأرض جوخى ، وبهقباذا ، وحلوان ، وأصبهان ، وقم والماهين ، وهمذان وغيرها [١] . وأصبح المختار يسيطر على جميع أرجاء الدولة العربية الاسلامية ما عدا قطرين هما الشام ومصر التى ظل الأمويون محتفظين بنفوذهم فيهما . وبعث المختار بولاته يحكمون هذه البلاد ، وكان هؤلاء الولاة من رجالات العرب المعروفين فى ذلك العصر ، ويمثلون عدة قبائل قوية مثل همدان وبكر والنخع وباجله وتميم [٢] .

كانت مدينة الموصل هى المدينة الثانية فى بلاد العراق التى وجّه المختار اهتمامه اليها للسيطرة عليها والقضاء على النفوذ الزبيرى فيها تماما ، فقد كانت الموصل المفتاح الشمالى لبلاد العراق . وكان عبد الله بن الزبير قد ولىّ على الموصل محمد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

ابن الأشعث بن قيس ، فلما تمّ الأمر للمختار فى بلاد العراق ، بعث عبد الرحمن بن سعيد الى الموصل واليا ، وخرج ابن الأشعث هاربا الى تكريت ، فبعث اليه ابن الزبير يلومه ويوبخه ، فقد كان يُدرك أهمية هذه المدينة ، ويخبره أن « لا عُذر لك عندى فيما فعلت ، أتُخلّى أرض الموصل وخراجها وحصونها من غير جهاد ولا اعداد ، فوالله لو لم تقاتل مناصحة لامامك ولا طلبا لثواب ربك لكنت حريّاً بأن تقاتل عن بلد أنت أميره لك خيره وعليك عيبه !! » [1] .

ولكن المختار وان كان قد نجح فى السيطرة على الموصل والتخلص تماما من نفوذ ابن الزبير ، الاّ أن الموصل سرعان ما تعرّضت لخطر آخر ، فقد قدم الجيش الأموى بقيادة عبيد الله ابن زياد يحاول الاستيلاء على الموصل ، وكان ابن زياد قد بعثه الخليفة الأموى مروان بن الحكم لينتزع بلاد العراق من أيدى ولاة ابن الزبير ، فالتقى كما رأينا بجيش التوابين فى عين الوردة . وانتظر ابن زياد حتى انتى ذلك الصراع المرير الذى دار بين المختار والزبيريين ، وانتهى بانتصار المختار ، فبدأ ابن زياد يحاول انتزاع مدن العراق من أيدى ولاة المختار ، وبدأت مرحلة جديدة من الصراع : صراع المختار للأمويين وقائدهم ابن زياد ، وصراعه للزبيريين . وسنفصل الحديث عن صراع المختار لكلٍّ من الفريقين فى الفصلين القادمين .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

دافع المختار عما حازه من انتصار ، وخاصة عن مدينة الموصل . فقد بعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى والى المختار بالموصل ، الى المختار يستنجد به على عبيد الله بن زياد ويخبره بأن خيله قد أشرفت على الموصل ، وأنه ليس معه خيل ولا رجال يقف بها فى وجه ابن زياد . فبعث المختار بيزيد بن أنس واليا على الموصل ومعه جيش أعدّه لقتال ابن زياد ، ولكنّه مات فى الطريق ، وتفرّق جيشه ، فأمر المختار قائده الكبير ابراهيم بن الأشتر أن يخرج الى الموصل ليجمع جيش يزيد بن أنس ويصحبه الى الموصل . ولكن بعض الفتن قد ثارت فى الكوفة فعدل المختار عن انفاذ ابن الأشتر .

عوامل نجاح سياسة المختار فى العراق :

نجح المختار فى أن يمدّ سلطانه ونفوذه على جميع بلاد العراق ، وكانت هناك عدة عوامل أدت الى نجاح سياسة المختار فى العراق ، والى ما وصل اليه من فوز وانتصار .

أول هذه العوامل ، اهتمام المختار بطلب ثأر الحسين ، ودعوته لابن الحنفية . فقد أدرك المختار منذ اللحظة الأولى أنه اذا أراد أن يسيطر على العراق ، فعليه أن ينال رضا الشيعة وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من أهل العراق . ولذا جعل المختار طلب الثأر للحسين واعادة الأمر والحكم الى آل بيت الرسول الركن الأول فى سياسته . فقد كانت شيعة علىّ ترى أنه أحق الصحابة

بالخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، باعتباره وصّى الرسول ، فقد أوصى له يوم غدير خم بالخلافة ، كما رأوا أن الخلافة ليست اختيارا من الأمة ، بل يتولاها بعد علىّ أعقابه ، فيتولى بعده الحسن ثم الحسين . وأثار مصرع الحسين فى كربلاء مشاعر الشيعة وباتوا يترقبون الفرصة للأخذ بثأره ، وأدرك المختار هذه المشاعر عند الشيعة ، فكان يعلن دائما فى كل مناسبة أنه عازم على الانتقام لقتلى كربلاء ، مما أدّى الى تأييد أهل العراق عامة والشيعة خاصة للمختار .

كانت الحركات السياسية فى ذلك الوقت فى حاجة الى صبغة دينية لتوفر لها سبل النجاح والنصر . والمختار رجل سياسى بارز له شأن بين العرب والمسلمين ، ولكن زعامته السياسية كانت فى حاجة الى جانب روحى ، ولذا رأى المختار أن يسانده زعيم روحى ، فحاول اكتساب رضاء علىّ بن الحسين بن علىّ ، حتّى اذا أخفق تحوّل الى محمد بن علىّ بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، ويرجع تفضيل المختار لعلى بن الحسين على ابن الحنفية ، أن الأول كان من حفدة الرسول كما كان ابن شهيد كربلاء ، أما ابن الحنفية فكانت أمه من بنى حنيفة وليس من أولاد فاطمة بنت الرسول .

كانت الخلافة يتنازعها فى ذلك الوقت بيتان عربيان كبيران : البيت الأموى ، والبيت الهاشمى . وقد بدأ تنافس هذين البيتين فى العصر الجاهلى حول السيادة فى الحجاز واستمر فى العصر الاسلامى . وكان الصراع بين عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب ،

والصراع بين معاوية وعلىّ ، هو فى الحقيقة صراع بين الأمويين والهاشميّين . وكان البيت الهاشمى يضم فرعين كبيرين ، العلويين والعباسيين ، وقد ركن العباسيون الى الهدوء الى حين ، واستمر كفاح العلويين للأمويين من أجل الخلافة ، ولكن تنازل الحسن ابن علىّ لمعاوية بن أبى سفيان ، ثم قيام الدولة الأموية ، ثم مصرع الحسين بن على فى كربلاء ، خيّب آمال العلويين . وتولّى زعامة البيت العلوى الهاشمى محمد بن الحنفية ، ولكنه لجأ الى المقاومة السلبية دون الكفاح الايجابى . ورأى المختار أن يقوم هو بالدور الايجابى فيتولى الزعامة السياسية والقيادة العسكرية ، على أن يكون ابن الحنفية الزعيم الروحى .

ويؤكد الشهرستانى (1) أن أمر المختار لم ينتظم الاّ باتسابه الى محمد بن الحنفية أخى الحسين علما ودعوة ، وحين بدأ المختار يدعو لقتال من أقدموا على قتل آل بيت الرسول .

ونشط المختار فى بث دعوته نشاطا عظيما بعد مقتل سليمان ابن صرد ورجوع فلوله الى أوطانهم ، فكتب للتوابين يعزّيهم بمصرع أبطالهم ، ويهنئهم بما نالوه من الأجر والفوز عند ربهم ، ويدعوهم الى الانضمام اليه ليجرّد فى عدوّهم السيف ويثأر لحفيد الرسول شهيد كربلاء . فانضم اليه فريق كبير من التوابين وأصبحوا من أشد أنصاره اخلاصا وأعظم جنده استبسالا فى الحروب التى شنّها .

---

(1) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

كان المختار فى دعوته أعظم خطرا وشأنا من سليمان بن صرد ، فقد اجتمعت فيه صفات الزعامة ، فخافه ولاة ابن الزبير فى الكوفة ، فقبضوا عليه وأودعوه السجن . وكان المختار يهدف دائما الى السيادة فى بلاد العراق بحيث يصبح الرجل الأول فيها ، بعد القضاء على نفوذ ابن الزبير فيه . أمّا سليمان بن صرد فكان يسعى لقتال بنى أمية أعداء ابن الزبير .

اتفقت الشيعة على القيام بتأييد المختار ، فصار دعاته يبايعون له وهو فى سجنه الى أن أخلى سبيله . ثم بدأ المختار يدعو لابن الحنفية ، ولم يعارض ابن الحنفية فى الدعوة له ، فقد كان يميل الى الدعة والهدوء ، وقد وفّر المختار عليه جهد الدعوة له ، وقد استفاد المختار من طباع ابن الحنفية هذه ، كما استفاد من تصريحاته التى صرّح بها ابن الحنفية بعد مقتل الحسين ، وأخذ يقول للناس ان امامكم ابن الحنفية يدعوكم لطلب الثأر لآل بيت نبيّكم . كما استفاد المختار من بعض أقوال ابن الحنفية المجملة العامة ، ففسّرها حسب مقتضى الأحوال .

ومن عوامل نجاح سياسة المختار فى العراق تأمينه الأشراف العرب على أرواحهم وممتلكاتهم ، وعدله بين الناس ، وانشاء حكومة لها نظمها الثابتة . كان معظم شيعة العراق من الموالى الفرس ، وأصبح معظم جند المختار من غير العرب . ولكن المختار رغم ذلك ، لم يتعصب لهؤلاء الفرس ضد الأشراف العرب ، فأعلن تأمينه لهؤلاء الأشراف على حياتهم ، وأنه يساوى فى المعاملة بينهم وبين مواليهم . كما ولّى حكم الولايات كثيرا من رجالات العرب

المشهورين وقتئذ [١] . واهتم المختار أن يشعر جميع رعاياه بالأمان والطمأنينة والاستقرار ، فقعد للقضاء بنفسه ، وكان يقف على المنبر دائما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان استقرار الأمور الداخلية من العوامل التى أتاحت الفرصة للمختار ليتفرغ للمشاكل الخارجية ، وقتال أعدائه من الأمويين والزبيريين .

وثالث عوامل نجاح المختار ، نجاحه فى استمالة الزعماء الى حزبه . وكان المختار يعلم حق العلم أن لا سبيل الى اجتذاب قلوب الزعماء أرباب المصالح الاّ بمنحهم ما تصبو اليه نفوسهم ، من المناصب ، وما تتوق اليه ذواتهم من الكسب المادّى . فاستطاع أن يستميل اليه ابراهيم بن الأشتر ذلك القائد المشهور والرجل الذى له شأنه فى قومه وفى بلاد العراق خاصة ، كما استطاع أن يستميل ولاة ابن الزبير الى جانبه ، وفى مقدمتهم عبد الله بن مطيع الذى منحه مائة ألف درهم حتى يتنازل عن الحكم ، فأخذها ابن مطيع وأقام فى البصرة ولم يرجع الى خليفته عبد الله بن الزبير بمكة . فأرسل ابن الزبير واليا جديدا على الكوفة مكان ابن مطيع هو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث وأعطاه ابن الزبير ما بين ثلاثين وأربعين ألف درهم ليستعين بها فى عمله ، ولكن المختار منحه سبعين ألف درهم أى ضعف ما أعطاه خليفته ، فسار هذا الى البصرة ، وركن الى الهدوء كما فعل سلفه ابن مطيع [٢] .

---

(١) انضم الى المختار كثير من القبائل العربية مثل باجلة وتميم وهمدان والنخع وغيرها • وكثير من العشائر مثل : نهد وخارف وثور وشاكر وشبام ، وكان معظم أنصاره من العرب اليمنية •

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٣ •

كان ابن الزبير شحيحا بالمال ، بينما اشتهر المختار بالكرم والجود ، ولذا انصرف كثير من أنصار ابن الزبير عنه الى تأييد المختار . ونرى كرم المختار بعد نجاحه فى انتزاع الكوفة من ابن مطيع عامل ابن الزبير ، فقد فرّق جميع الأموال التى وجدها فى بيت مال الكوفة على رجاله ، فلهبت ألسنتهم بالثناء عليه .

ومن عوامل نجاح المختار فى بلاد العراق كذلك اقدام المختار على القضاء على قتلة الحسين بن علىّ فبعد أن سيطر المختار على الكوفة ، واستقرت له الأمور فى العراق ، بدأ ينفّذ ما وعد به الشيعة من الأخذ بثأر الحسين بن على وسائر قتلى كربلاء ، فوجّه المختار رئيس شرطته ومعه ألف رجل يحملون المعاول لهدم دور كل من خرج لقتال الحسين يوم كربلاء . وبعث المختار بعض جنده ليأتوه برأس عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى قاد الجيش الأموى الذى قاتل الحسين . ثم سمع المختار باقتراب عبيد الله ابن زياد المسئول الأول عن مصرع الحسين من الموصل بعد هزيمة التوابين ، فأرسل المختار قائده يزيد بن أنس لقتال ابن زياد ، وأمدّه بفرقة أخرى بقيادة ابراهيم بن الأشتر ، فدارت الدائرة على ابن زياد وقتّل [١] . كما سنبيّن ذلك فى الفصل القادم .

ومما أدى الى ما لاقاه المختار من نجاح وانتصـــار فى بلاد العراق ، ما وقع فيه الأمويون من خطأ حينما اختاروا عبيد الله ابن زياد لقيادة الجيش الأموى الذى بعثوه لفتح العراق .

ولعلنا نذكر سياسة الشدّة والاضطهاد والتعذيب التى اتبعها

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٤٤ .

زياد بن أبيه ثم ابنه من بعده عبيد الله بن زياد فى حكم العراق ، واقدام ابن زياد على قتل الحسين بن علىّ وأهله فى كربلاء . ولهذا لم يكن العراقيون أشدّ سخطا فى تاريخهم على رجل مثل سخطهم على ابن زياد ، ولقد أرادوا الفتك به بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ، لولا أن خرج هاربا والتجأ الى الأزد ، وقد أتى به هؤلاء الى الشام آمنا . كما أن ابن زياد استعمل الدهاقين من الفرس [1] لجباية الأموال على زعم أنهم أبصر بالمسائل المالية من العرب وأوفى بالأمانة وأهون بالمطالبة ، وكان العراقيون يكرهون هؤلاء ويعانون منهم الكثير . وكان ابن زياد شحيحا بالمال لا يبذل العطاء ، ممّا أدّى الى التفاف العراقيّين حول المختار ليصمد أمام ابن زياد .

ونضيف الى العوامل السابق ذكرها ، عاملا سادسا ، هو استفادة المختار من العصبية القبليّة . وكانت هذه العصبية تمزّق شمل البيت الأموى وتفرّق صفوفه ، وكانت معركة مرج راهط التى دارت بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية مرآة انعكست فيها العصبية القبلية بين اليمنيين والقيسيين ، وكلهم من العرب فقد أنزل اليمنيون بأعدائهم القيسيين صنوفا من المذلة والاهانة . فلمّا قدم عبيد الله بن زياد الى العراق ، من قبل مروان بن الحكم لاخضاع العراق ، ومرّ بالجزيرة ، أصلاه أهلها القيسيّون نارا حامية ، فقد كانوا يكرهون آل مروان ، كما رأوا أن يأخذوا بثأر هزيمتهم فى مرج راهط .

فهذه الحرب التى أشعلها القيسيون على اليمنيّين من أنصار

(١) الدهاقون الفرس هم كبار الملاك الاقطاعيين .

مروان بن الحكم ، كلفت عبد الله بن زياد ثمنا باهظا ، فقد سفكت فيها دماء غزيرة وأبطأت بقدومه الى العراق عاما كاملا ، فأفاد المختار من هذا الابطاء فائدة كبيرة .

وسابع عوامل نجاح المختار ، أنه كان يدارى عبد الله بن الزبير ويتجنب الاصطدام به على قدر المستطاع وكان المختار قد ثار فى العراق وطرد الحامية الزبيرية وأعلن استقلاله عن خلافة عبد الله ابن الزبير ، وهو واثق أنه لابدّ له من مناجزة عدوين قويين طامعين فى تثبيت سلطانهما فى بلاد الرافدين ، وأول هؤلاء بنو أمية فى الشام ، وثانيهم ابن الزبير فى الحجاز . فأما بنو أمية ، فمن العسير مفاوضتهم لكره الشيعة لهم وما ارتكبه ولاتهم من المظالم فى بلاد العراق .

وأما ابن الزبير فقد تسهل مهادنته ومداراته ، لأن المختار سيقوم بقتال أعدائه الألدّاء الأمويين ، فان انتصروا على المختار وأتباعه كان ابن الزبير قد تخلّص منهم ، وان انتصر المختار على الأمويين كان أهون شوكة منهم عليه . ولذا تهادن المختار وابن الزبير حتى يتجمع لأحدهما الأمر فيثب بصاحبه ، فقد كتب المختار لابن الزبير : « أما بعد ، فقد عرفت مناصحتى ايّاك وجهدى على أهل عداوتك ، وما كنت أعطيتنى اذا أنا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وَفيْت لك وقضيت الذى كان لك على حنث بى ولم تَفِ بما عاهدتنى ، ورأيت منى ما قد رأيت ، فان ترد مراجعتى أراجعك ، وان ترد مناصحتى أنصح لك » (1) .

(1) الطبرى جـ ٧ ص ١١٠ .

وكان ميل أهل العراق الى الاستقلال وتحقيق المختار رغبتهم ، من عوامل نجاحه . فقد كان أهل العراق طوال تاريخهم ، قبل الاسلام وفى العصر الاسلامى ، يميلون الى تحقيق نوع من الاستقلال الذاتى ، عن الدولة الاسلامية ، بحيث يظهرون بشخصية مستقلة تميّزهم عن سائر الأمصار الاسلامية . وكانوا يكرهون أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن تكون حاضرة الدولة فى غير مصرهم . كما كره أهل العراق أن يُحمل فائض موارد بلادهم الى الحاضرة ، ولا ينفق على مصالح بلادهم .

ولذا أبدى العراقيون سرورا ورضاء حينما اتخذ علىّ بن أبى طالب الكوفة حاضرة للدولة العربية الاسلامية ، فأصبحت بلاد العراق قلب العالم الاسلامى . حتى اذا قُتِل علىّ بايع أهل العراق ابنه الحسن ليحتفظوا بالعاصمة فى بلدهم ، ولينافسوا بالحسن خليفة العراق ، معاوية خليفة الشام . ولكن تنازل الحسن وقيام الدولة الأموية خيّب آمالهم .

وظل العراقيّون يحاولون دائما الثورة والوصول الى الاستقلال ، فكانوا يؤيدون كل ثائر وخارج على الدولة الأموية . وحفلت بلاد العراق فى صدر الدولة الأموية بالثورات والفتن ، حتى اذا ظهر عبد الله بن الزبير فى الحجاز وبايع لنفسه خليفة أقبلوا يبايعونه ، لا اقتناعا بأحقيّته بالخلافة ولكن ليتحرّروا من الخضوع لسلطان خليفة الشام مروان بن الحكم ، وقد يكون ابن الزبير أكثر رأفة بهم واكراما لهم من مروان . ولكن المختار ابن أبى عبيد الثقفى ما كاد يظهر فى بلاد العراق ، ويُعلن تحرير

العراق من كل نفوذ ، أموى وزبيرى ، وما كاد يعلن اتخاذ الكوفة مركزا لدعوته ، حتى أقبل العراقيون يبايعونه ويعلنون نصرتهم وتأييدهم له .

ومن أبرز عوامل نجاح المختار فى سياسته بالعراق تأييد الموالى له . وكانت حال الموالى طوال العصر الأموى سلسلة من الظلم والاضطهاد . فقد كان الولاة يحرمونهم من الوظائف الكبرى والعطاء والأرزاق . ولهذا كانوا ينتهزون الفرص للثورة على الدولة الأموية ، أو العمل على اضعافها ، فينضمّون الى كل خارج على هذه الدولة ، وكانت كثرتهم وقلّتهم فى تأييد تلك الأحزاب الخارجة تتبع الى حدّ كبير شخصية الداعى .

وكان المختار بعيد النظر ، فقد أدرك أن نصف سكان الكوفة من الموالى وأن فى أيديهم موارد الثروة ، فهم أصحاب الحرف والمهن والتجارة ، فعمل على استمالتهم اليه (١) . ولكن المختار لم ينس أن يتقرّب الى العرب الأشراف ، فاتخذ من الفريقين أسسا لحركته (٢) .

كذلك رأى الموالى بدورهم أن يتخذوا المختار وسيلة للانتقام من الدولة الأموية التى تعصّبت للعرب واضطهدت الموالى ، ووسيلة لتحقيق مآربهم بارجاع السيادة القومية ، وسنفرد فصلا خاصا عن علاقة الموالى بالمختار .

---

(١) Nicholson : Lit. History of the Arabs P. 218

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .

امتزجت هذه العوامل التسعة ، وتبلورت وأدت الى نجاح سياسة المختار فى بلاد العراق ، وأصبح المختار الرجل الأول ، وصاحب السيادة والنفوذ ، وأراد المختار أن يدعّم هذا النجاح باقامة حكومة عادلة منظمة فى العراق .

حكومة المختار فى العراق

كان المختار على جانب كبير من سعة الأفق والذكاء . فقد رسم طريقه بدقة واحكام ، وخطى خطواته نحو المجد فى تعقّل وثبات ، ومضى من نجاح الى فوز ، حتى أصبح له السلطان فى العراق ، وأجمع أهل العراق على تأييده ومودته . ولم يكن ما وصل اليه المختار من نجاح نهاية لحركته السياسية ، بل أراد أن يكون نجاحه بداية لحياته السياسية . فرأى أن يقيم فى العراق حكومة ثابتة الأركان ، وطيدة الأسس ، لها نظمها المقررة المحددة ، تعدل بين الجميع ، وتساوى بين أهل العراق على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم السياسية والدينية ، ونجح المختار فى ذلك نجاحا كبيرا ، ولم يكن يعكر عليه صفوه سوى المشاكل الخارجية ، وخاصة صراع ابن الزبير والأمويّين ،ممّا كان يشغله عن السياسة الداخلية .

استولى المختار على الكوفة دون اراقة دماء كثيرة ، وسعى لاشاعة العدل والرحمة والطمأنينة فى النفوس ، وعمل على التوفيق أو المهادنة بين الأحزاب . وتولّى المختار القضاء بمهارة ، حتى

أرهقه المنصب عيّن قضاة يختصّون بالقضاء ، وأمرهم بالعدل والمساواة ، وكان لا يفتأ عن مراقبتهم وتوجيه النصح لهم .

اتبع المختار سياسة تسامح ، فكان يعفو دائما عن خصومه وأعدائه ، واذا اضطر الى انزال العقاب ببعضهم كان متساهلا معتدلا . فقد ترك المختار والى ابن الزبير فى الكوفة ، عبد الله ابن مطيع ، يرحل فى سلام ، ومنحه مالا وفيرا يستعين به فى سفره . واذا كانت دعوة المختار تقوم على أسس طلب ثأر الحسين ، فقد منع المختار أنصاره من القتل وارتكاب المظالم . وعفا المختار عن خصم له أساء اليه ، وكان جزاؤه عن هذا الصفح أن مدحه خصمه بقصيدة يشكره فيها . ووفى المختار بعهده للأشراف بالأمان ، بل رغب اليهم أن يجالسوه وينصحوه كما كانوا يفعلون من قبل مع من سلفه من الولاه .

اتخذ المختار من مدينة الكوفة مركزا لدعوته وحركته السياسية ، وعاد الى الكوفة مجدها القديم المسلوب . وفكّر المختار فى جعل الكوفة مركزا للخلافة الاسلامية مرّة أخرى ، كما كانت فى عهد على بن أبى طالب وابنه الحسن ، وأراد أن يقيم خلافة علوية يتولاها أحد أبناء علىّ بن أبى طالب وهو محمد ابن الحنفية . وظهر المختار دائما بمظهر الحريص على مصالح الكوفيّين .

اهتم المختار باختيار ولاته وقواده وموظفيه ، وانتقاء الشخص المناسب لكل منصب . ورغم عطف المختار على الموالى وتحسينه

أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، فقد اختار جميع ولاته وقواده من العرب ، وكانوا كلهم من طبقة النبلاء أو كما يسميهم فلهوزن[1] « الطبقة العالية من النبالة الحربية العربية » .

وولّى المختار على الولايات التى امتد اليها نفوذه ولاة اشتهروا بالعدل والاخلاص . فقد ولّى زفر بن الحارث على قرقيسيا ، وولّى حاتم بن النعمان الباهلىّ على حران والرها وسميساط ، وولّى عمير بن الحباب على كفر توثا وطور عبدين[2] ، وولّى عبد الرحمن بن سعيد الهمدانى على الموصل ، ومحمد ابن عثمان التميمى على أذربيجان ، وعبد الله بن الحرث أخا الأشتر على همذان والماهين ، ويزيد بن معاوية البجلى على أصبهان ، وابن مالك البكراوى على حلوان . وكلهم من رجالات العرب ، وينتسبون الى أكبر القبائل فى ذلك الحين[3] .

ويتحدّث البلاذرى[4] عن سياسة المختار فى حكم الكوفة ، فيقول : « وكان المختار قد وجد فى بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف درهم — أى ٩ مليون درهم — فأعطى أصحابه ومن بايعه . وأحسن المختار مجاورة أهل الكوفة والسيرة فيهم وأكرم الأشراف وولّى شرطته عبد الله بن كامل الشاكرى وولّى حرسه كيسان

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٢١١ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٣١ .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

(٤) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

مولى عرينة ويكنى أبا عمرة وهو صاحب الكيسانية ، وولّى المختار عمّا له ، وولّى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الموصل » .

وكانت العناية بالمستضعفين مسألة رئيسية فى برنامج المختار السياسى والاجتماعى ، وكان يُقصد بالمستضعفين فى ذلك الوقت الموالى ، أى المسلمون من غير العرب ، وكانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة كما ذكرنا ، وكان معظمهم فُرسا ، أصلا ولغة ، وقد حرمهم العرب من حقوقهم السياسية والاجتماعية .

وكوّن المختار جيشا نظاميا ، اشتهر بالنظام والشجاعة والطاعة . وقد انتصر فى معظم المعارك التى خاضها على جيوش تفوقه عددا وعدّة . واذا كان هذا الجيش قد لحقت به الهزيمة فى نهاية حياة المختار السياسية فقد كان ذلك نتيجة عوامل أخرى ، وليس نتيجة عيوب تشوب جيش المختار . واشتهر جند المختار باسم « الخشبية » ، فقد كان معظمهم يقاتلون بالخشب . ويُقال أنهم سُمّوا بالخشبية « لأن الذين وجههم المختار الى مكة لنصرة ابن الحنفية أخذوا بأيديهم الخشب الذى كان ابن الزبير جمعه ليحرق به ابن الحنفية وأصحابه فيما زُعم ، ويُقال : بل كرهوا دخول الحرم بسيوف مشهورة فدخلوه ومعهم الخشب ولم يسلّوا سيوفهم من أغمادها » [1] .

كان معظم جند المختار من الموالى الفرس ، وقد اشتهروا بالشجاعة والاستبسال فى القتال من أجل تحقيق أهدافهم ، كما

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٣١ .

اشتهروا بكمال الأجسام وحسن المظهر . والى جانب هؤلاء الموالى كانت قلّة من الجند العرب . ولا عجب فى ذلك فقد كان الموالى الفرس يمثلون غالبية السكان فكان طبيعيا أن يكون تمثيلهم فى جيش المختار على صورة أوسع من تمثيل العرب . ولكن معظم قواد المختار كانوا من العرب .



موقف المختار من الدولة الأموية

موقف العراق من المختار والحكم الأموى ـ اول صدام حربى بين المختار والجيش الأموى ـ موقف العرب اشراف الكوفة من صراع المختار والأمويين ـ المختار يقضى على الأمويين قتلة الحسين ـ موقف البصرة من المختار ـ المختار يهزم الجيش الأموى ويقتل ابن زياد ٠

الفصل السادس

موقف المختار من الدولة الأموية

موقف العراق من المختار والحكم الأموى :

كان للمختار أهداف يسعى الى تحقيقها ، كما كان لبلاد العراق آمال ترمى الى الوصول اليها . فهل كانت أهداف المختار تنطبق على آمال أهل العراق ؟ وكانت الدولة الأموية ترمى الى السيطرة على بلاد العراق ، فهل استكان العراقيون لهذه الرغبة ؟ وقد أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى بلاد الحجاز وأراد بسط سلطانه على بلاد العراق فهل استجاب أهل العراق لبيعته ؟

سعى المختار الى أن ينال حظه من المجد والنفوذ ، مثله فى ذلك مثل رجالات العرب فى ذلك الحين الذين شعر المختار أنه يدانيهم فى مركزهم ، مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن خازم ونجدة بن عامر الحنفى ومروان بن الحكم ، وغيرهم . واعتنق المختار مبادىء الشيعة ، وآمن أن العلويين أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، ورأى أن يقيم خلافة علوية يتولاها علوىّ وهو محمد بن الحنفية . ولذا كانت بلاد العراق هى الأرض الصالحة التى يبذر فيها المختار بذوره .

أما بلاد العراق ، فكانت تهدف دائما كما ذكرنا الى تحقيق نوع من الاستقلال الذاتي وأن تكون لها شخصية مستقلة مميزة ، وأن تكون لبلاد العراق مركز الصدارة بين الأمصار الاسلامية ، وتصبح قلب العالم الاسلامى . كما أن معظم أهل العراق قد اعتنقوا مبادىء الشيعة وصاروا لا يرضون عن آل علىّ بن أبى طالب بديلا ، فقد نقل علىّ عاصمة الدولة الى العراق ، وظلت الكوفة الحاضرة طوال خلافة علىّ وابنه الحسن . وتطلعت بلاد العراق الى زعيم جديد يعيد الى العراق مجدها الضائع ، فتقوم خلافة علوية فى العراق ، وتنتقل العاصمة الى الكوفة . ووجدت بلاد العراق فى شخص المختار الزعيم المنشود الذى يحقق آمالها ، فهرعت الى تأييده ، ومنابذة الأمويين والزبيريين على السواء .

قبل قدوم المختار الى العراق ، كان على أهل العراق أن يختاروا بيعة مروان بن الحكم خليفة الشام أو بيعة عبد الله ابن الزبير خليفة الحجاز . وقد كرهوا فى الحقيقة البيعة للخليفتين ، ففى بيعتهم لابن الزبير اعتراف منهم ببقاء العاصمة فى الحجاز ، فتظل الحالة كما كانت فى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وفى بيعتهم لمروان استمرار للحكم الأموى فى العراق ، ذلك الحكم الذى عانوا منه الكثير على يد زياد بن أبيه وابنه عبيد الله . ورأى العراقيّون أن يختاروا أهون الشرين ، ولا شك أن البيعة لابن الزبير أهونهما ، فسيعتبر ابن الزبير بيعتهم له تفضّلا يمتنّون به عليه ، بينما يعتبر مروان بيعتهم أمرا واجبا طبيعيا لأن خلافته تعد استمرارا للدولة الأموية .

بعث مروان قائده عبيد الله بن زياد على رأس جيش ليقاتل زفر بن الحارث ، الذى كان عاملا لابن الزبير على قنسرين ثم هرب من مروان الى قرقيسيا . وطلب مروان من ابن زياد أن يقتل زفر ومنّاه بأنه سيستعمله على كل ما يفتحه ، وأمره بأنه اذا فرغ من زفر توجّه الى العراق لينتزعه من عمّال ابن الزبير .

وفى طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان وتولية ولده عبد الملك ، الذى أرسله اليه يقره على ما ولاّه عليه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقى التوابين عند (عين الوردة) وكانوا قد خرجوا لقتال ابن زياد وقتله لأنه هو الذى قتل الحسين ، وانتهت معركة عين الوردة بهزيمة التوابين وقتـل معظمهم كما ذكرنا ، أما ابن زياد فقد لقى حتفه على يد المختار كما نبيّن بعد حين .

أرسل مروان فى عام ٦٥ هـ جيشين الى العراق ، أحدهما بقيادة ابن زياد ، والثانى بقيادة حبيش بن دلجة لاستعادة المدينة المنوّرة من جابر بن الأسود نائب ابن الزبير ، وشـعر عامل ابن الزبير بالبصرة ، وكان الحارث بن أبى ربيعة ، بحـرج الموقف فبعث بجيش استطاع أن يشغل حبيش بن دلجة عن فتح المدينة ، وولّى ابن الزبير عباس بن سهل على المدينة وأمره بقتال ابن دلجة ، واستطاع الزبيريون القضاء على الجيش الأموى [1] .

وقد استفاد المختار من هـذه الأحداث جميعا ، فقد كان انقسام كلمة الأمويين وتفرقهم قد أخّر تفكيرهم فى السيطرة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

على العراق ، الأمر الذى مكّن المختار من أن يبسط نفوذه على هذه البلاد ، فقد لاقى المختار الجيش الأموى بقيادة ابن زياد ، بعد أن أصبح المختار الرجل الأول فى العراق وصاحب السيادة الحقيقية فيه . كما أن العصبية القبلية بين القيسيّة واليمنيّة قد جعلت ابن زياد لا يلقى المختار فى الوقت المناسب بعد قضاء الأمويين على التوابين فى معركة عين الوردة ، فقد شغلت الحروب القبلية ابن زياد عن لقاء المختار مدة عام كامل ممّا أتاح الفرصة للمختار للقاء الأمويين وقد استعد استعدادا كاملا ، وأن يتمكن من القضاء على الجيش الأموى ، ويلقى ابن زياد حتفه فى هذه المعركة .

استفاد المختار من قضاء الأمويين على حركة التوابين ، فقد كان التوابون يعتمدون فى حركتهم على الشيعة ، فى الوقت الذى سعى فيه المختار الى الاستعانة بالشيعة فى حركته . واصطدمت الحركتان لوجود كثير من وجوه التشابه ، وأصبحت بلاد العراق لا تتسع لهما معا ، وكان لابدّ أن تتخلى أحداهما للأخرى الميدان . ولم يكن المختار يستطيع أن يصطدم بالتوابين صداما مسلّحا ، وحاول جهده أن يصرف الشيعة عن التوابين بالوسائل السلمية . ولذا أراحه الأمويون — بغير قصد منهم — من منافس كبير .

أمّا الصراع العنيف الذى دام حينا بين الأمويين والزبيريين ، فقد شغل عبد الله بن الزبير عن تركيز جهوده للقضاء على المختار ،

واضطر الى مهادنته ومداراته ، ويروى ابن الأثير [1] أن المختار « كان قد وادع ابن الزبير ليكفّ عنه ليتفرغ لأهل الشام » . فكان ابن الزبير يُدرك تماما أن المختار أقل خطرا من الأمويين ، فنفوذ المختار نفوذ محدود لا يقاس بنفوذ الأمويين الذى هو مظهر لسيادة دولة قوية قامت منذ سنة ٤٠ هـ وكانت قائمة فعلا ، وتعتبر ابن الزبير خارجا عن طاعتها يجب القضاء عليه .

أول صدام حربي بين المختار والجيش الأموي :

يرى المؤرخ الألمانى (فلهوزن) [2] أن المختار كان قد سعى الى فرصة تهيىء له القتال ضدّ أهل الشام ، سعى اليها فى بلاد العرب ، ولكنه وجدها — دون أن يتوقعها — فى بلاد العراق .

اعتقد الخليفة الأموى مروان بن الحكم أن الأمور قد استقرت له فى بلاد الشام ، فبعث بجيشين ، أحدهما الى المدينة المنورة ، وقد مرّ بنا كيف انتهى أمره بالهزيمة . أما الجيش الثانى فقد وجّهه مروان الى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد ، وأمره بانتزاع الكوفة كما أمره أن ينهبها ثلاثة أيام . وكان لقاء ابن زياد بالتوابين فى معركة عين الوردة عرضا وبدون قصد ، فقد فوجىء التوابون بقدوم ابن زياد ، وكانوا يعملون على الأخذ بثأر الحسين من قتلته ، ففوجئوا بقدوم قاتل الحسين الى مصرهم .

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢١٧ .

وانشغل ابن زياد عن مهمته الأولى ، وهى استرداد الدولة الأموية لبلاد العراق ، بقتال التوابين ، ثم انشغل بالعصبية القبلية فى اقليم الجزيرة فاضطر الى قتال قبيلة قيس عيلان ، وكان زفر بن الحارث قد أعلن ولاءه لابن الزبير ، فقاتله عاما كاملا ، توفى فى خلاله الخليفة مروان ابن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك الذى أقرّ ابن زياد على ما كان أبوه قد ولاه ، وأمره بالمضىّ فى تحقيق مهمته ، واسترداد العراق . وشعر ابن زياد بعجزه عن اخضاع زفر ومن معه من القيسيين ، فتقدّم الى مدينة الموصل .

كان يتولّى حكم الموصل وقت ذاك عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار ، فبعث هذا الى المختار يخبره باقتراب ابن زياد من الموصل ، وأنه قد اضطر الى الانسحاب منها الى تكريت . فدعا المختار بيزيد بن أنس الأسدى وأمره بنجدة عبد الرحمن ، وأمّره على جيش قوامه ثلاثة آلاف من الفرسان لانقاذ الموصل من هجوم ابن زياد .

والتقى الجمعان فى ٩ ذى الحجة سنة ٦٦ هـ (٧ يوليو سنة ٦٨٦ م) عند الفجر قرب الموصل ، وكان جيش أهل الشام ضعف جيش المختار ، ومع ذلك فقد انتصر جيش المختار بعد قتال دام يومين . وكان يزيد بن أنس قد خرج للقتال وهو مريض ، فقاد المعركة وهو مشرف على الموت ، وما لبث أن فارق الحياة . فتولى أمر الجيش بعده القائد ورقاء بن عازب الأسدى الذى ما لبث أن جمع أصحابه وقال لهم : ماذا ترون ، انه قد بلغنى أن ابن زياد

قد أقبل اليكم فى ثمانين ألفا ، وانما أنا رجل منكم فأشيروا علىّ فانى لا أرى لنا بأهل الشام طاقة على هذه الحال ، وقد هلك يزيد وتفرّق عنا بعض من معنا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا قالوا انما رجعنا عنهم لموت أميرنا ولم يزالوا لنا هائبين ، وان لقيناهم اليوم كنا مخاطرين ، فان هزمونا اليوم لم تنفعنا هزيمتنا اياهم بالأمس . فقالوا : نِعْم ما رأيت . وتفرق جند جيش المختار [1] .

وعلم المختار وأهل الكوفة بما حلّ بهذا الجيش ، وانتشرت فى الكوفة اشاعة تقول ان الشيعة هزمهم أهل الشام « فأرجف الناسَ بالمختار وقالوا ان يزيد قُتل ولم يصدّقوا أنه مات » [2] . ولكن المختار لم يستسلم الى الأحداث ، فظل ثابت الجنان ، وأصرّ على انزال الهزيمة بالجيش الأموى ، فأسرع فى اعداد جيش جديد تألّف من سبعة آلاف جندى ، وولّى على قيادته قائده العربى المشهور ابراهيم بن الأشتر ، وأمر بأن يسرع السير الى ميدان المعركة لانقاذ الموصل .

موقف العرب أشراف الكوفة من صراع المختار والأمويين :

فى هذه الظروف الحرجة ، ازدادت جرأة العرب الأشراف على المختار ، وكانوا يعتبرون أنفسهم قادة (حزب العصبية العربية) ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق .

وأخذوا يعتبون على المختار أنه تأمّر عليهم بغير رضى منهم ، ولا اذن من محمد بن الحنفية ، وأنه أدنى مواليهم فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم من فيئهم ، فسلبهم بذلك حقوقهم ، لأنهم أعتقوا عبيدهم على أمل أن يتقربوا من الله سبحانه وتعالى فينالوا ثوابه ، ولكن المختار منحهم حقوقهم وجعلهم شركاء لأسيادهم القدامى فى الفيء ، ثم جنّد هؤلاء الموالى فأصبحوا عدّة جيشه ، وحارب بهم العرب .

هذه هى الاتهامات التى وجهها العرب الأشراف فى الكوفة الى المختار ، وهى تمثل صورة من صور العصبية بين العرب والموالى فى ذلك العصر . وقد كان المختار فى نظر الموالى محرّرا لهم من عبوديتهم ، ومنقذا لهم من الظلم والاستبداد . بينما كان فى نظر الأشراف العرب سالبا لحقوقهم التى أعطاها للموالى . والحقيقة أن المختار أعاد الى الموالى حقوقهم المسلوبة ، وعمل على تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكان على حق فى كل ما فعله . وحفظ التوازن بين العرب والموالى ، وكان بمثابة (صمام الأمن) الذى أجّل انفجار الموالى الى حين ، وتمثل هذا الانفجار فيما بعد فى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

انتهز العرب الأشراف فرصة خلّو الكوفة من جند المختار ، وخروج الجيش الى الموصل ، وبدأوا حركة تمرّد وعصيان ، وكان الشيخ العجوز شبث بن ربعى التميمى يتحدث باسم هؤلاء العرب الأشراف ، فذهب الى المختار يتحدث معه فى موقفه من كلٍّ من العرب والموالى . وكانت الظروف حرجة ، فوعد المختار

بالنظر فى مظالمهم ومطالبهم ، وتعهد بالعمل على ارضائهم كلما استطاع الى ذلك سبيلا . وسأله المختار : ان أنا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم فيكم ، أتقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير ، وتقطعون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن له من الايمان ؟ . ورفض الأشراف العرب الموافقة على اقتراح المختار ، وأبوا الا المضى فى موقفهم العدائى ، فقد دفعتهم كراهيتهم لانصاف مواليهم الى كراهية منصفهم المختار ، ورأوا أن ينتهزوا فرصة وجود المختار بعيدا عن جنده للقضاء على المختار ، ليعود اليهم زمام مواليهم ، وظنوا أن رغبة المختار فى الموادعة والمهادنة ، نتيجة لموقفه الحرج ، وأنه حتما سيتحرر من وعوده حينما يشعر بالطمأنينة . وفى الحقيقة كان هؤلاء العرب والأشراف على غير حق ، فقد كانوا يشغلون المختار بموقفهم العدائى عن عدوهم وعدوه الجيش الأموى ، وكانوا — كما يرى فلهوزن [1] — يخونون العراق لصالح أهل الشام .

ظهر من بين الأشراف العرب ، رجل ذو عقل مستنير هو عبد الرحمن بن مخنف ، أدرك حقيقة الموقف ، وتفهم الأمور على حقيقتها ، فأعلن معارضته لقرار اخوانه الأشراف ، وأخبرهم أن المختار لم يناصره العبيد والموالى فحسب ، بل يؤيده شجعان العرب وفرسانها ، وكلهم صف واحد وكلمة واحدة « فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم — أى الموالى الفرس —

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٢١٩ .

وان انتظرتموه قليلا كفيتموه بقدوم أهل الشام أو بمجيء أهل البصرة ، فتكونوا كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم » .

ولكن ابن مخنف [1] لم ينجح فى اقناع غيره من العرب الأشراف بهذا الرأى ، فاضطر الى أن ينزل عند رأى الأغلبية .

ولمّا مضى ابراهيم بن الأشتر للقاء جيش الشام ، احتل هؤلاء الأشراف المراكز الرئيسية فى الكوفة ، وحصروا المختار فى القصر والمسجد وقطعوا الاتصال بينه وبين الخارج . ولكن المختار أفسد عليهم تدبيرهم ، فاقترح عليهم أن يبعثوا من قِبَلهم وفدا الى محمد بن الحنفية ، ويرسل هو من قِبَله وفدا اليه ، ويشترك الوفدان فى سؤال ابن الحنفية عن موقفه من المختار ومدى تأييده للمختار . وكان هدف المختار من هذا المختار كسب الوقت ، فكان كما روى ابن الأثير [2] « يريد أن يريثهم بهذه المقالة حتى يقدم عليه ابراهيم بن الأشتر » .

وبعث المختار من فوره برسول أمره أن يهرع الى ابراهيم ابن الأشتر ويخبره بكل ما حدث ويطلب منه العودة فى الحال . ولم يحتج الرسول الا ليوم واحد ليصل الى ساباط على نهر دجلة وابلاغ ابراهيم بالأمر . وفى مساء اليوم التالى كان ابراهيم وجنوده فى الكوفة يعسكرون بها الى قريب من مسجدها .

وفى صباح الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، استؤنف القتال الذى وقع من قبل فى شهر ربيع . وتداخلت الأضداد بين

---

(١) وهو من أقرباء أبى مخنف الراوى المعروف .

(٢) الكامل جـ ٤ ص ٩٧ .

الأحزاب ، وكل منها يحاول ضمّ العرب الى صفوفه ، وانضم بعض الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت فى صف المختار ، الى صفوف الأشراف . نخص منهم بالذكر القارىء الشهير رفاعة ابن شداد الفتيانى ، وهو صديق قديم لسليمان بن صرد ، بيد أنه انزعج انزعاجا شديدا حينما سمع صيحة الأشراف : « يا لثارات عثمان ! » تدوى فى جانب ، بينما كانت صيحة الشيعة تدوى فى الجانب الآخر : « يا لثارات الحسين ! » . فاندفع يائسا الى هوة الموت . بينما وقف أحد زعماء العرب الأشراف موقفا وسطا ، وان كان يدل على الحيرة والتردد ، وهو عبد الله بن قراد الخثعى ، فقد آذاه أن يُسفك دم اخوانه من العرب الأشراف ، ولكنه ظل مخلصا للمختار ، ورأى أن يقف على الحياد دون الاشتراك فى هذا الصراع . ونرى عربيّا ثالثا يتخذ موقفا مخالفا فقد انضم ابن زعيم الأشراف شبث بن ربعى الى المختار ، وقاتل جند أبيه بشجاعة وعنـاد .

وقد اتخذ الأشراف وقبائلهم مراكزهم فى ثلاثة مواضع من الكوفة ، فاتخذت مضر موضعها فى الكناسة ، وأهل اليمن فى جبانة السبيع (المتصلة بالسبخة) ، ووقفت ربيعة فى الخارج عند السبخة . وحمى وطيس القتال فى جبانة السبيع حيث وقف المختار بنفسه يقاتل أهل اليمن ، وكان هؤلاء من قبيلة همدان ، لأن مذحج — واليهم ينتسب ابراهيم بن الأشتر — اعتزلت القتال . وكانت الضربة الحاسمة حينما قام بنو شبام فأتوا القوم من ورائهم وكانوا من بنى جلدتهم ، أعنى من قبيـلة همدان ، واستطاع ابراهيم

(الذى لم يشأ أن يقاتل أهل اليمن) أن يمزّق شمل مضر بغير صعوبة ، وتشتت شمل ربيعة قبل أن يشهروا سيفا . وكان أهل اليمن فريقين : فريق العصبية العربية ، وفريق الشيعة — أشد القوم قتالا ، على أنهم أقوى القبائل فى الكوفة عددا وبأسا [1] .

كان الأمويون ، وخاصة قتلة الحسين منهم ، سبب هذه الفتنة ، فقد حرّضوا أهل الكوفة على الثورة على المختار ، فيروى الدينورى [2] : « وان شمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد ومحمد ابن الأشعث وأخاه قيس بن الأشعث قدموا الكوفة ، عندما بلغهم خروج الناس على المختار وخلعهم طاعته ، وكانوا قد هربوا من المختار طول سلطانه ، لأنهم كانوا الرؤساء فى قتال الحسين ، فصاروا مع أهل الكوفة ، وتولّوا أمر الناس ، وتأهّب الفريقان للحرب ، واجتمع أهل الكوفة جميعا فى جبانة الحشاشين ، وزحف المختار نحوهم ، فاقتتلوا ، فقتل بينهم خلق كثير فنادى المختار : يا معشر ربيعة ألم تبايعونى ، فَلِم خرجتى علىّ ؟ ! قالت ربيعة : قد صدق المختار لقد بايعناه وأعطيناه صفقة ايماننا فاعتزلوا وقالوا لا نكون على واحد من الفريقين وثبت سائر القبائل فقاتلوا ، وان أهل الكوفة انهزموا ، وقد قتل منهم نحو الخمسمائة رجل ، وأُسر منهم مائتا رجل ، فهرب أشراف الكوفة ، فلحقوا بالبصرة ، وبها مصعب بن الزبير ، فانضمّوا اليه » .

وهكذا أسدل الستار عن مرحلة من مراحل صراع المختار

---

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٢٢ .
(٢) الأخبار الطوال ص ٣٠٦ .

والعرب أشراف الكوفة ، وانتهت بانتصار المختار . وقد قطع المختار ذيل الحيّة لكنه لم يحطم رأسها . فقد هرب كثير من الأشراف الى البصرة وانضموا الى مصعب بن الزبير ، وأخذوا يحرّضون مصعبا على الدوام على قتال المختار ، ولعب الأشراف كما سنرى فى الفصل القادم دورا كبيرا فى اثارة مشاعر العداء بين الحركة المختارية والحركة الزبيرية ، فتناست الحركتان عداءها للدولة الأموية واشتبكتا فى صراع عنيف انتهى بانتصار الحركة الزبيرية . ولكن خرج الزبيريون من المعركة بجراح كثيرة أليمة فالتقوا بجيوش الدولة الأموية . وقد أنهكهم صراع المختار ، فدارت الدائرة على الحركة الزبيرية ، وعاد الأشراف فى الكوفة الى الخضوع مرة أخرى للحكم الأموى الذى كانوا يناهضونه بالأمس ، فكانوا من الخاسرين .

المختار يقضي على الأمويين قتلة الحسين :

رأى المختار أن يعجّل بالقضاء على أعدائه بالكوفة حتى لا يكونوا بمثابة (طابور خامس) فيقع بين نارين ، فى الداخل والخارج . فقد نجح عبيد الله بن زياد فى الاستيلاء على الموصل ، وأخذ يستعد للتقدم نحو الكوفة لينزعها من المختار . وتحالف المضريون واليمنيّون لأول مرّة ، واتفقوا على أن ينجد كل فريق منهم صاحبه اذا هاجمه المختار .

وعلم المختار بهذا التحالف فرأى أن يعجّل بقتالهم ، وسأل

قائده ابراهيم بن الأشتر أى الفريقين — المضريين أم اليمنيين — يختار لقتاله ، ولكن ابن الأشتر فوّض المختار فى أمر الاختيار بين مضر واليمن « فنظر المختار وكان ذا رأى فكره أن يسير — أى ابن الأشتر — الى قومه فلا يبالغ فى قتالهم ، فقال : سر الى مضر بالكناسة وعليهم شبث بن ربعى ومحمد بن عمير ابن عطارد ، وأنا أسير الى أهل اليمن » [1] .

ونادى منادى المختار ، أن من أغلق بابه فهو آمن الا من اشترك فى دم آل محمد ، فاستثنى من الأمان من اشتركوا فى قتل الحسين ، وأطلق العنان للشيعة لينتقموا من قتلة الحسين بعد أن كان قد منع هذا الانتقام .

والتقى جيش المختار بأنصار الأمويين بمكان يعرف بجبانة السبيع يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وأمر المختار رجاله بتتبّع قتلة الحسين ، فقال : اطلبوا لى قتلة الحسين فانه لا يسوغ لى الطعام والشراب حتى أطهّر الأرض منهم وأنقى المِصْر منهم [2] .

صاح جند المختار (يا لثارات الحسين) ، وصاح الجند الأمويون (يا لثارات عثمان) ، وكان هذا النداء الأخير سببا لتفرق بعض أنصار الأمويين ، وفى مقدمتهم رفاعة بن شداد الذى قال « ما لنا ولعثمان ، لا أقاتل مع قوم يبغون دم

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٢١ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٩ .

عثمان »[1] . فقد كان معظم أهل العراق يكرهون عثمان وسيرته فيهم ، نتيجة ما لاقوه من عنت ولاة عثمان من بنى أمية .

وقد استطاع أنصار المختار أن يأسروا خمسمائة رجل فى اليوم الأول من المعركة ، واستعرضهم المختار فأخرج منهم من شهد قتل الحسين فأعمل فيهم القتل وكانوا مائتين وثمانية وأربعين رجلا ، وأطلق سراح باقى الأسرى بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق ألا يساعدوا أعداءه .

بحث رجال المختار عن قتلة الحسين فى كل مكان ، وكان كل منهم قد بحث عن مخبأ اختفى فيه عن عيون المختار ، فأخرجهم رجاله من مكانهم ، وكان الموالى كالكلاب البوليسية فى تتبع قتلة الحسين وكان جميعهم من العرب ، وكانت النسوة يخبرن عن أزواجهن .

من هؤلاء النسوة ، زوجة خولىّ بن يزيد الأصبحى ، وهو الذى اجتز رأس الحسين يوم كربلاء ، وكان قد أسرع يختبىء فى داره . وقدم أنصار المختار يطلبونه فى داره « فخرجت امرأته اليهم ، فقالوا لها أين زوجك ؟ فقالت : لا أدرى أين هو . وأشارت بيدها الى المخرج ، فدخلوا فوجدوه . فأقبل المختار نحوهم فاستقبل به فردّوه حتى قتله الى جانب أهله ، ثم دعا بنار فحرقه ، ثمّ لم يبرح حتى عاد رمادا ثم انصرف عنه ، وكانت امرأته من حضرموت ، وكانت نصبت العداوة حين جاء برأس الحسين »[2] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٣ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٢٩ .

نجح المختار فى قتل عمر بن سعد بن أبى وقاص قائد جيش الأمويين فى كربلاء ، وأحضر المختار ابنه حفص بن عمر ، وأطلعه المختار على رأس أبيه وسأله عمّا اذا كان يعرف من هو صاحب الرأس ، قال : نعم ولا خير فى العيش بعده . فقال له : صدقت فانك لا تعيش بعده . وأمر المختار بقتل حفص ، ووضع رأسه الى جانب رأس أبيه عمر بن سعد ، وأشار المختار الى الرأسين وقال : هذا بحسين وهذا بعلىّ بن حسين ، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله !! [1] .

وبعث المختار برأس عمر بن سعد وابنه حفص الى محمد بن الحنفية مع رسالة جاء فيها : « للمهدى محمد بن علىّ من المختار ابن أبى عبيد . أما بعد ، فان الله بعثنى نقمة على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم ، وقد بعثت اليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شرك فى دم الحسين وأهل بيته رحمة الله عليهم كل من قدرنا عليه ، ولن يعجز الله من بقى ، ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغنى أن على أديم الأرض منهم آدميا ، فاكتب الىّ ايها المهدى برأيك أتبعه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته » [2] . وكان المختار يخبر الناس أنه انما يتتبّع قتلة الحسين وينزل بهم القتل بأمر من محمد بن الحنفية .

وكان محمد بن الحنفية يعتب على المختار لمجالسته عمر بن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٣٣ .
(٢) المصدر السابق .

سعد وتأخيره قتله ، فبينا هو كذلك ، اذ برسولين للمختار يدخلان عليه ، وهما يحملان رأس عمر وابنه حفص ، فلمّا رآهما ابن الحنفية خرّ ساجدا شكرا لله ، ثم رفع رأسه وبسط كفه ، وقال : اللهم لا تنسى هـذا اليوم للمختار وأجزه عن بيت نبيّك خير الجزاء ، فوالله ما على المختار بعد هذا عتب .

ويصف الدينورى [1] ما أنزله المختار بدور قتلة الحسين من هدم بقوله : « وولّى — المختار — الشرطة كيسان أبا عمرة وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول وتتبّع دور من خرج الى قتال الحسين بن على فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفا ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم ، فيهدم الدار فى لحظة ، فمن خرج اليه منهم قتله حتى هدم دورا كثيرة ، وقتل أناسا كثيرين وجعل يطلب ويستقصى فمن ظفر به قتله » .

قتل المختار كل من اتهم بالاشتراك فى مأساة كربلاء ، فقتل نفرا كثيرا من القرشيين ، ونجا بعض الأشراف فهربوا الى البصرة حيث التجأوا الى مصعب بن الزبير ، كما هدم المختار بيت كل من هرب ناجيا من نفسه . هذا ما رواه المؤرخون الأقدمون ، ولكن المؤرخ (فلهوزن) [2] يدافع عن المختار فى هذا فيذكر أنه ضمن حماية من خلّف هؤلاء الفارون وراءهم من النساء والأطفال والحرم . كما أن المختار نفسه لم يكن أشدّ القوم تنكيلا بهم ، بل قد قـُتل كثيرون دون علم منه وعلى عكس ما أمر به .

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .
(٢) الخوارج والشيعة ص ٣٢٣ .

موقف البصرة من المختار :

تولّى الدعوة للمختار في البصرة المثنى بن مخرّبة العبدى ، وكان من أبطال التوابين فى عين الوردة ، وعاد مع فلول التوابين بعد هزيمتهم ، وكان المختار فى سجن ولاة ابن الزبير ، فلمّا خرج المختار من السجن بايعه المثنى سرّا ، وقال له المختار : الحق ببلدك بالبصرة فادع الناس وأسرّ أمرك . ورحل المثنى الى البصرة وبدأ يدعو للمختار . فلمّا طرد المختار والى ابن الزبير ابن مطيع من الكوفة ومنع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذى بعثه ابن الزبير ليتولى الكوفة ، خرج المثنى بن مخربة فاتخذ مسجدا واجتمع اليه قومه ، ودعا فيه الى المختار .

ثم تقدّم مع أنصاره الى مدينة الرزق فعسكر عندها . وبدأوا يحاولون اقتحامها ، ونصبوا السلالم حول الأسوار وتمكنوا من دخول المدينة ، وأقبل أهلها يخلعون طاعة ابن الزبير ، ويبايعون للمختار . وتعجّب الأحنف بن قيس زعيم البصرة من موقف الأهالى ، فقال الأحنف لبكر والأزد وللعامة : ألستم على بيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بلى ولكنّا لا نسلّم اخواننا .

ولكن الناس بعد هذا أقبلوا على بيعة المختار ولم يهتموا بحديث الأحنف رغم منزلته الكبرى عندهم وزعامته لهم منذ زمن ، فقال الأحنف : ما غبنت رأيى الا يومى هذا ، انى أتيت هؤلاء القوم ، وخلفت بكرا والأزد ورائى .

وعلم المختار بالموقف الذى وقفه منه الأحنف بن قيس من

دعوته ، فبعث اليه برسالة يثنيه عن معارضته له ويهدّده ويتوعّده فكان مما قال : « فويل ربيعة من مضر ، فان الأحنف مُورد قومه سقر »[1] . وهذه الرسالة توضح ما كان من عصبيّة جامحة بين ربيعة ومضر ، تلك العصبية التى حاول المختار الاستفادة منها كل الفائدة .

ظلت البصرة على ولائها للمختار ، وخاف عبد الله الزبير خليفة الحجاز أن يضيع نفوذه تماما من البصرة كما ضاع بالأمس من الكوفة ، ورأى أن يختار واليا قويّا يمثله ويُعيد نفوذه الضائع ، فاختار أخاه مصعب بن الزبير ، فبدأ مصعب يعمل على القضاء على نفوذ المختار فى البصرة واعتمد على العنصر العربى . وما لبث أن قدم عليه الأشراف العرب من الكوفة وقد هربوا من وجه المختار ، وقد امتلأت نفوسهم حقدا وضغينة ، فانضموا الى مصعب ، وتكاتفوا على القضاء على سيطرة المختار على البصرة .

المختار يهزم الجيش الأموى ويقتل ابن زياد :

كان الجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد قد تهدّد الموصل ، وأراد المختار كما رأينا أن ينقذ الموصل فبعث قائده ابراهيم بن الأشتر لصدّ الأمويين ، ولكنّ المختار اضطر لاستدعاء قائده ليخمد الثورة التى أعلنها الأشراف العرب فى الكوفة ، ونجح

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٣٨ .

المختار فى القضاء على هذه الفتنة ، وشعر بالاستقرار والهدوء فى الداخل مما مكّنه من التفرغ لعدوه ابن زياد .

وبعد موقعة السبيع ، التى أشرنا اليها ، بيومين بعث المختار قائده الباسل ابن الأشتر ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، لقتال جيش الشام ، وأمره أن يهاجمهم متى لقيهم ، وأن يجدّ فى السيّر قبل أن يدخل أرض العراق ، وكان ابن زياد قد استطاع بجيشه الكثيف أن يحتل الموصل ، وصحب المختار جيشه الى نهر الفرات ووعدهم بالنصر ، مما رفع روحهم المعنوية وبث الحماسة فيهم .

التقى جيش المختار بجيش الشام عند قرية بارشيا وهى قرية تقع على ضفاف نهر الخازر قرب مدينة الموصل . وكان ابن الأشتر حسن الحظ ، فقد تقدّم اليه سرّا أحد قواد ابن زياد وهو عمير ابن الحباب السلمى وعرض عليه الانضمام اليه وخيانة ابن زياد ، ويرجع ذلك الى أن عميرا هذا كان قيسيا ، وكان الأمويون فى ذلك الحين يقرّبون الكلبيّين اليمنيين ، ويبعدون القيسيّين ، وكانت نار العصبيّة كثيرا ما تشتعل بينهم . وقد صوّر ابن الأثير [1] الموقف فقال : « وأرسل عمير بن الحباب السلمى وهو من أصحاب ابن زياد الى ابن زياد أن القنى . وكانت قيس كلها مضطغنة على ابن مروان — أى عبد الملك — من وقعة مرج راهط ، وجنّد عبد الملك يومئذ كلبا ، فاجتمع عمير وابن الأشتر فأخبره عمر أنه على ميسرة ابن زياد وواعده أن ينهزم بالناس » .

(١) الكامل جـ ٤ ص ١١٠ .

ونفّذ عمر بن الحباب خطته وبرّ بوعده ، فيروى المسعودى[1] « .. وكان فى نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم هرج راهط ، فصاح : يا لثارات قيس ، يا لمضر ، يا لنزار . فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم فى جيشهم من أهل الشام من قحطان » .

وبدأت المعركة بين الجيش الأموى بقيادة ابن زياد وجيش ابن زياد فى مطلع سنة ٦٧ هـ فى أوائل شهر المحرم (أغسطس سنة ٦٨٦ م) ، واستحث ابن الأشتر جنوده للقتال « وسار على الرايات يحثّهم ويذكر لهم فعل ابن زياد بالحسين وأصحابه وأهل بيته من السبى والقتل ومنع الماء وحرضهم على قتل ابن زياد »[2].

وحمى وطيس القتال وسقطت كثرة من القتلى من الجانبين ، واستطاع جيش المختار أن يحوز النصر رغم أن عدد جيش الشام كان يبلغ عشرة أضعاف عدد الجيش المختارى ، بفضل مهارة قائدهم ، وبفضل حماسة الجند لا سيما الشيعة منهم ، وسقط رؤساء جند الشام قتلى ، فقتل عبيد الله بن زياد قاتل الحسين بن على ، وقتل الحصين بن نمير السكونى الذى حاصر ابن الزبير والكعبة فى أواخر عهد يزيد بن معاوية ، وكان المختار الى جانب ابن الزبير أثناء الحصار ، كما قتل أيضا من كبار قواد الشام شرحبيل بن ذى الكلاع ، واحتز ابن الأشتر رأس ابن زياد ثم حرق جثته .

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٤٢ .

(٢) الكامل جـ ٤ ص ١١٠ .

وبعد هزيمة جند الشام تتبعهم جند المختار ، فسقط عدد كبير في نهر خازر غرقى .

واستولى المختاريون على كثير من الغنائم . وبعث ابن الأشتر الى المختار يبشره بالنصر العظيم ، وكان المختار مقيما حينئذ فى المدائن ، وأرسل اليه أيضا برءوس ابن زياد وقواده . ودخل ابن الأشتر الموصل ، وبعث أخاه — لأمه — عبد الرحمن بن عبد الله ليتولى أمور مدينة نصيبين ، واستطاع منها أن يسيطر على سنجار كما ولّى زفر بن الحارث مدينة قرقيسيا ، وحاتم بن النعمان على حرّان والرها ، وأقام ابن الأشتر فى الموصل يحكمها باسم المختار [1] .

وقد علّق (فلهوزن) [2] على انتصار المختار فى موقعة خازر على الجيش بقوله : فبينا كانت الحملة الأولى التى أرسلها المختار ، تحت قيادة يزيد بن أنس ، من الفرسان ، لم يكن فى الحملة الثانية الاّ قليل جدّا من الفرسان ، أى أنها كانت تتألف من الموالى . وكانوا يضربون بالعمد على الخوذ والدروع التى يحملها جند الشام . وكان المختار فى الذروة ، وكان أيضا أمام الهاوية ، فالشيعة العرب من الجيل القديم كانوا لا يثقون به ، حتى اعتزلوه جانبا ، فلم يجد أمامه الاّ جماعة الموالى ، فانحاز الى جانبهم ضدّ حزب العصبية العربية . لقد كان هؤلاء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١١ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٢٤ .

الموالى شديدى الاعجاب بقوة شعوره بذاته والصورة الرائعة التى ظهر عليها هذا الشعور .

وضع المختار رأس ابن زياد فى سلّة وبعث بها الى محمد ابن الحنفية وعلى بن الحسين وسائر بنى هاشم فى الحجاز . فلمّا رأى على بن الحسين رأس عبيد الله بن زياد ترحّم على الحسين وقال : أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين وهو يتغذّى ، وأُوتيت برأس عبد الله ونحن نتغذّى . ولم يبق أحد من بنى هاشم الاّ قام خطيبا ، وأطنب فى الثناء على المختار والدعاء له وجميل القول فيه . وكان ابن عباس يقول : أصاب بثأرنا ، وأدرك وترنا ، وآثرنا ووصلنا ، فكان يظهر الجميل فيه للعامة . ويروى اليعقوبى [1] أن علىّ بن الحسين لم يُرَ ضاحكا يوما قط منذ قُتِلَ أبوه الاّ فى ذلك اليوم .

ثم بعث المختار الى ابن الحنفية برسالة جاء فيها : انى بعثت أنصاركم وشيعتكم الى عدوكم ، فخرجوا محتسبين آسفين فقتلوهم ، فالحمد لله الذى أدرك لكم الثأر ، وأهلكهم من كل فجّ عميق ، وغرّقهم فى كل بحر ، وشفى الله صدور قوم مؤمنين .

وأرفق المختار رسالته الى ابن الحنفية بثلاثين ألف دينار ، فخرّ ابن الحنفية ساجدا ودعا للمختار وقال : جزاه الله خير الجزاء ، فقد أدرك لنا ثأرنا ، ووجب حقه على كل من ولده عبد المطلب بن هاشم ، اللهم واحفظ ابراهيم بن الأشتر سعيه

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٦ .

وانصره على الأعداء ، ووفقه لما تحب وترضى ، واغفر له فى الآخرة والأولى .

ويروى المرزبانى باسناده عن جعفر الصادق أنه قال : ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت ولا رئؤى فى دار هاشمى خمس حجج حتى قتل عبيد الله بن زياد . وعن فاطمة بنت على : ما تحفت امرأة منّا ، ولا أجالت فى عينها مرودا ، ولا امتشطت حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد [١] .

سطع نجم المختار بعد معركة الخازر وقضائه على الجيش الأموى ، ومقتل قائده عبيد الله بن زياد ، واستفاد المختار من هذا النصر فائدة عظمى ، فعلا صيته فى أرجاء العالم الاسـلامى ، وتنفست الشيعة الصعداء ، فقد أخذ بثأرها ، وشفى غليلها ، ونحن نعرف حرص العرب دائما على الأخذ بالثأر . وقد آلم مقتـل الحسين بن على جميع المسلمين ، شيعة أو سُنّة ، واعتبروه شهيدا . وبرّ المختار بوعده الذى قطعه للشيعة ، فقد تعهّد بالقضاء على قتلةالحسين جميعا ، كما نال تأييد محمد بن الحنفية وسائر بنى هاشم . وكان العراقيون يكرهون عبيد الله بن زياد كراهية شديدة نتيجة سياسة القتل والتعذيب التى اتبعها خلال حكمه لبلاد العراق ، فشعروا بكثير من الارتياح لمقتله وحمدوا ذلك للمختار ، ولو لم يكونوا من أنصاره . وكانت موقعة خازر خير سلاح للدعاية لحركة المختار ، فقد سلطت جميع الأضواء على المختار .

---

(١) على بن الحسين الهاشمى النجفى: محمد بن الحنفية ص١٣٥.

ولم يبق أمام المختار لتأمين نجاحه واستقلاله الا طرد الزبيريين من البصرة ، وكانوا أصحاب الحول والقوة فى الجنوب . كما أن عبد الله بن الزبير شعر بعد قضاء المختار على الجيش الأموى ، أن المعركة الفاصلة بينه وبين المختار قد حان موعدها ، وبدأ كلّ من الفريقين ، المختاريّين والزبيريين ، يستعدّ للوثوب بالفريق الآخر ، ويضربه الضربة القاضية التى لا يرجو الحياة من بعدها . فبعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على البصرة ليراقب أعمال المختار عن كثب مراقبة شديدة ، وقد كان الأشراف الكوفيون يستنجدون بمصعب ويستحثونه على قتال المختار ، ويهيّئون له أسباب الفتح ، ويقولون ان المختار يودّ القضاء على النفوذ العربى واستبداله بالنفوذ الفارسى .

وقد تتساءل لماذا لم يبعث خليفة الشام الأموى عبد الملك ابن مروان جيشا أمويّا آخر لقتال المختار بعد سحق جيش عبيد الله بن زياد ؟ ويجيب المؤرخ فلهوزن [1] على هذا السؤال ، فيذكر أنه كان لابدّ أن يمضى زمان طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف المهمة التى فشل فيها عبيد الله بن زياد ، أعنى باخضاع العراق الذى كان يحكم جزء منه مصعب مستقلا بعض الاستقلال عن أخيه . وكان على عبد الملك أن يشتغل بمشكلات فى الداخل ، لأن ناتل بن قيس بدأ يتوثّب من جديد . ولكن الذى عاق عبد الملك هو بنوع خاص أن الروم خرقوا السلام ، وأخذوا يحرضون الجراجمة فى جبال اللكام على العرب .

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص ١٨٢ .

موقف المختار من حزب الشيعة وبني هاشم .

حزب الشيعة قبيل قدوم المختار الى العراق ـ الشيعة بالعراق تحالف المختار ـ تشيع الموالى أنصار المختار ـ بين المختار ومحمد بن الحنفية وبنى هاشم .

الفصل السابع

موقف المختار من حزب الشيعة وبني هاشم

الشيعة بالعراق تحالف المختار :

ركنت الشيعة الى الهدوء منذ مقتل الحسين بن على ، وطوال خلافة يزيد بن معاوية ، تتيجة السياسة العنيفة التى اتبعها عبيد الله ابن زياد والى العراق من اسراف فى القتل والتعذيب ، حتى اذا انتهت خلافة يزيد بموته ، أسرعت الشيعة تطرد ابن زياد من العراق، فخرج خائبا نادما الى الشام . وبدأت هى تجمع شملها وتوحّد صفوفها للعودة الى الثورة ونضال الدولة الأموية . واستطاع عبد الله بن الزبير أن يمدّ نفوذه الى العراق ، ولكن الشيعة وقفت من ولاتها موقفا سلبيا فلم تعلن تأييدها لها ، وباتت تترقّب الفرصة للوثوب .

ثم ظهر حزب (التوابين) وهم فريق من الشيعة شعروا بما ارتكبوه فى حق الحسين بن على ، وتخلّيهم عن نصرته مما أدّى الى مصرعه ، فندموا على ما فعلوا وأعلنوا توبتهم ، ورأوا أن الله لا يقبل توبتهم الاّ اذا أخذوا بثأر الحسين بن علىّ والتفّ سائر

الشيعة وغيرهم من العراقيين الذين يعطفون على العلويين والشيعة ، حول التوابين . وشاءت الظروف أن يقدم عبيد الله بن زياد على رأس جيش أموى بعثه الخليفة الأموى مروان بن الحكم لينتزع بلاد العراق من أيدى ولاة عبد الله بن الزبير . ودارت معركة عين الوردة بين التوابين والأمويّين انتهت بهزيمة التوابين ومقتل زعيمهم سليمان بن صرد .

قبل المعركة ، دارت مفاوضات بين مندوبى التوابين والأمويّين، لحقن دماء المسلمين ، فلم يصلوا الى نتيجة حاسمة ، لأن التوابين أصرّوا أولا على خلع عبد الملك بن مروان — وكان قد خلف أباه مروان بعد موته — وطالبوا ثانيا بتسليم عبيد الله بن زياد ، ولم يتساهلوا الاّ فى طرد آل الزبير ودعاتهم من العراق ، على أن يكون حق الخلافة لآل بيت النبى [1] .

وكان المختار يعدّ نفسه دائما ليكون زعيم الشيعة ، فيجمعهم ويقودهم الى النصر ، فيأخذ بثأرهم ، ويناهض عدوّهم . فقد روى أن المختار لقى معبدا الجدلى فقال له : يا معبد ان أهل الكتب ذكروا أنهم يجدون رجلا من ثقيف يقتل الجبّارين وينصر المظلومين ويأخذ المستضعفين ووصفوا صنعته فلم يذكروا صفة الاّ وهى فىّ [2] .

خرج المختار من الحجاز مفارقا عبد الله بن الزبير نابذا طاعته ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣١١ .

(٢) الحديدى : رسالة أخذ الثأر وشرح النهج ج ١ ص ١١٠ .

قاصدا العراق ليصبح بطل الشيعة وزعيمها . وكان قبل رحيله الى العراق ، قد تحرّى أخباره من القادمين منه الى الحجاز ، وكلّما قابل رجلا وهو فى طريقه الى بلاد العراق سأل عن أخبارها ، فأخبره أحدهم أن بلاد العراق كسفينة بدون ملاّح ، فعزم المختار على أن يكون هو الملاح الذى يقبض على دفّة السفينة بيد قوية ويوجّهها الى شاطىء الأمان .

ولكن ما كاد المختار يصل الى العراق حتى وجد ملاّحا آخر سبقه الى السفينة ، فقد بادر سليمان بن صرد الى الشيعة فجمعهم حوله وتزعمهم ، وشعر المختار بالمرارة وبدأ يثبط هِمَمْ الناس عن الالتفاف حول ابن صرد مدّعيا جهله بالأمور العسكرية وضعفه فى قيادة الجند . ورأى المختار أن يدعم موقفه ، ويرجّح كفته على كفة ابن صرد ، فأعلن أنه يدعو لابن الحنفية وأنه وزيره وأمينه ، فانقسم التوابون على أنفسهم ، فئة تدعو لسليمان وفئة تدعو للمختار . فكان هذا الانقسام ممّا سهّل على الدولة الأموية ضَرْب سليمان وأتباعه ضربة قاضية ، فخلا الجو للمختار [١] .

كان قتل الحسين بن علىّ سلاحا ذا حدّين وضعته الدولة الأموية فى أيدى أعدائها [٢] . وكان لهذا السلاح أثره العاجل فى تمزّق مُلك يزيد بن معاوية وانحلال الدولة الأموية فى عهد الخليفتين معاوية الثانى ومروان بن الحكم . وأصبح الأخذ بثأر

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) Muir : The Caliphate, P. 324

الحسين شغل أهل العراق الشاغل ، فقد اعتبروا أنفسهم مسئولين أمام الله والمسلمين ، عن دماء الحسين وآله المسفوكة فى كربلاء بالعراق . وحاول عبد الله بن الزبير أن يستخدم سلاح الأخذ بثأر الحسين فى بداية الأمر ، ولكنه أخفق تماما ، فلم تؤمن شيعة العراق بصدق مقالته ، وأدركت أن ابن الزبير انما يناضل الدولة الأموية من أجل تحقيق أغراضه السياسية وحماية خلافته التى أقامها فى الحجاز . كما أيقنت أن ابن الزبير لن يهتم بثأر الحسين حينما ترك ولاته — بعد امتداد النفوذ الزبيرى الى العراق — قتلة الحسين يمرحون فى الكوفة والبصرة فى حرية تامة .

أما المختار بن أبى عبيد ، فقد أدرك منذ اللحظة الأولى أهمية ذلك السلاح ، أى الأخذ بثأر الحسين . وكان قد سبقه التوابون الى الثورة من أجل الغرض نفسه ، وأعلن للشيعة أن ابن صرد غير جدير باستخدام هذا السلاح لقلة خبرته ودرايته بالحرب والسياسة .

كان المختار على دراية تامة بنفسية الشيعة بالعراق ، فرأى أن يثير كامن عواطفهم ، واستأجر نوائح يأمرهن بالخروج الى طرقات الكوفة ، ينوحن ويولولن فيثرن آلام الشيعة ، ويعدوهن تفسيا لمرحلة الأخذ بالثأر [1] . ثم بدأ المختار حملته العنيفة التى انتهت بمقتل جميع من اشتركوا فى قتل الحسين ، فقد تتبعهم فى الكوفة بالقتل ، وهدم دورهم ، فشفى بذلك غليل الشيعة وأثلج صدورهم.

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ص ٢٣ .

وما لبث أن توّج أعماله بأن هزم الجيش الأموى عند نهر الخازر هزيمة منكرة ، وقتل ابن زياد قاتل الحسين ، وتلقى المختار الشكر من الجميع من الشيعة ، ومحمد بن الحنفية ، وعلى بن الحسين ، وبنى هاشم جميعا .

وكان المختار يدرك كل الادراك منزلة أهل بيت محمد عامة ، وأولاد علىّ بن أبى طالب خاصّة ، فى قلوب شيعة العراق وسائر المسلمين فى الدولة الاسلامية . ولذا اتبع المختار سياسة التودّد لبنى هاشم وأولاد علىّ بن أبى طالب ، فكان يُرسل من حين لآخر بهداياه الثمينة الى محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فيقبلونها شاكرين ممتنين . ويؤكد الشهرستانى [١] أن أمر المختار « لم ينتظم الاّ بانتسابه الى محمد بن الحنفية أخى الحسين علما ودعوة ، ولاشتغاله بقتال الذين أجمعوا على الفتك بآل البيت » .

تشيع الموالى أنصار المختار :

كان رجالات حزب الشيعة البارزين — كما ذكرت دائرة المعارف الاسلامية — [٢] فى أول الأمر عربا خلّصا ، ثم أصبح بينهم على مرّ الأيام عدد كبير من الموالى . ويؤكد فلهوزن [٣]

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) Shortor Encycl. of Islam, P. 536

(٣) تاريخ الدولة العربية ص ٦٤ (ترجمة الدكتور أبو ريده) .

هذه الحقيقة ، فيذكر أنه كان للشيعة ممثلين فى قبائل العرب فى الكوفة ، ثم انتشر التشيّع بين موالى الفرس الكثيرين الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ، وأصبح لهم شأن سياسى على يد المختار ، أحد أشراف ثقيف ، وهو الذى اتخذهم جيشا له ، ثم استمال قدماء الشيعة من العرب أيضا ، وأراد أن يسقط الأرستقراطية العربية فى الكوفة من على عرشها ويقيم هناك تحت رئاسته حكومة يقضى فيها بفضل التشيّع على التمايز بين العرب والفرس وبين السادة والرعيّة .

ولقد انضم الموالى الى حركات الشيعة فى العراق ، لأن معظمهم كان يعتقد أن عليّا وأولاده من بعده أحق بالخلافة من بنى أمية ، وزاد هذا الاعتقاد قوة بعد زواج الحسين بن على من احدى بنات يزدجرد آخر الأكاسرة الساسانيين ، فرأى الموالى الفرس فى أولاد الحسين منها وارثين لملوكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . وزاد حب الشيعة لعلىّ بن أبى طالب وابنه الحسن اتخاذهما الكوفة حاضرة لخلافتهما ، واختيار الحسين الكوفة مركزا لثورته على الدولة الأموية .

وكان لتشيّع الموالى أثره الدينى والسياسى فى تاريخ حزب الشيعة . فمن الآثار الدينية ما دخل على التشيع من الأفكار الفارسية كعصمة الأئمة وتجسّد الألوهية فى الامام . أما الآثار السياسية لتشيّع الموالى ، فمنها ظهور فكرة الوراثة القديمة الخاصة بالملكية الالهية ، كما كان الموالى دائما وراء كل حركة سياسية ، فسخطوا على بنى أمية لتمسكهم بروح العصبية العربية

واحتكارهم المناصب الكبرى للعرب واحتقارهم للموالى ، لذلك وجدوا فى الشيعة سلاحا يشهرونه فى وجه أعدائهم الأمويين ، فبذلوا النفس والنفيس فى تأييدهم ونشر دعوتهم سرا وعلنا .

كان العلويون وأنصارهم يرون الخلافة حقّا مشروعا لآل علىّ ، وأن الأمويين أخذوها منهم قسرا ، وقد تمسكوا بهذا الحق وعملوا سرا وعلنا لاسترجاعه . وكثر المؤيدون لهم بعد استشهاد بعض أبطالهم ، وظلم بعض الولاة الأمويين لهم . وصاروا رمز المقاومة الشرعية للدولة الأموية ، وكان هذا ممّا أفسح المجال لمختلف العناصر المتذمرة عربية وغير عربية لتنتظم رايتهم .

رأى أهل العراق فى انتصار الأمويين انتصارا للشام عليهم ، ونقلا لمركز الحكم من الكوفة الى دمشق . وهذا الانتصار سلبهم قيادة الأمة العربية وجرّدهم من الامتيازات ، اجتماعية وسياسية ، وصاروا يشعرون بعد أن نقص الأمويون عطاءهم أن وارد السواد الغنّى يأكله أهل الشام غرما لهم وسلبا لحقّهم . وأخذوا يمجدون أيام علىّ بن أبى طالب ويمجدون ذكراه ، وكانوا دائما يسعون لاسترداد السلطة ، ولا ينسون أنه أول امام جعل حاضرته بينهم [1] .

احتقر الأمويون بتأثير العصبية ، جميع الأقوام غير العربية ، وأنزلوهم فى منزلة اجتماعية أدنى من منزلة العرب ، ثم أبعدوهم لذلك من السياسة والقيادة ، وفرضوا عليهم من الضرائب أكثر

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٤ .

مما فرضوه على العرب . فالعصبية تبدأ للبيت الأموى ، ثم للقبيلة ، وتتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية ولا تتعدى ذلك .

وقد كانت هذه النظرة طبيعية ومألوفة بالنسبة للشعوب الحاكمة فى العراق وفارس فى ذلك الحين ، الا أن الاسلام دعا للمساواة بين المسلمين ، فكانت دعوته مثار كفاح ومقاومة لهذه النظرة ، فالاسلام هو الذى هيأ الأساس المشروع لتذمر الموالى ، ووقفت بعض الفرق بجانبهم ، وحاول بعض فقهاء الشيعة تأييد النظرة الاسلامية والدفاع عنهم .

ثم ظهر المختار فجمع الشيعة حوله ، عربا وموالى ، وساوى بين الجميع فى المعاملة ، وبدأ عهدا جديدا مجيدا من المساواة والعدل ، رغم أن المختار من أشراف العرب . والحقيقة أن العرب من هذه الجهة هم الذين نظموا الموالى ووجهوا مقاومتهم للأمويين وتذمرهم منهم .

بين المختار ومحمد بن الحنفية وبنى هاشم :

أدرك المختار فائدة الاعتماد على بنى هاشم منذ مطلع تاريخه السياسى . ويروى البلاذرى [1] أن المغيرة بن شعبة والى الكوفة قد رسم الطريق أمام المختار ، وكان المختار يعتبره مثلا أعلى لرجالات ثقيف وأستاذا فى السياسة ، فقد أخبره المغيرة أن الموالى

---

(١) أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٢٣ (طبعة ليدن) .

لا يستجيبون لداع من الدعاة الا اذا دعاهم الى اعادة الحق الى آل محمد من بنى هاشم . ولم تزل هذه النصيحة تتردد فى نفس المختار حتى وضعها موضع التنفيذ بعد مصرع الحسين بن على .

ولقد اعتمد المختار على محمد بن الحنفية رأس بنى هاشم وزعيم الشيعة فى ذلك الوقت ، واعتبر نفسه أمينه ووزيره ، فكان يقول لشيعة العراق : جئتكم من قبل المهدى محمد بن الحنفية مؤتمنا مأمونا منتخبا ووزيرا [1] .

اختلف الحزب العلوى بعد مصرع الحسين فى قضية الامامة ، وهل تنتقل بعده الى محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، وهو ليس بابن فاطمة . وعرف ابن الحنفية بأنه كان قوى الخلق عظيم الصفات ، وكان له حزب قوى يظاهره فى اعلانه الامامة ، وهم الكيسانية . وقد أخذوا عن الشيعة السبئية قولهم بتناسخ روح الاله فى الأنبياء ، وأنها انتقلت بعد وفاة محمد الى على بن أبى طالب ثم الى الأئمة من أبنائه .

أما الفرقة الثانية من العلويين فترى أن محمد بن الحنفية ليس من أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الحسين أوصى بالامامة الى ابنه على ، وأن شروط الامامة وان نصت نظريا على وجوب تعيين الامام لمن يخلفه الا أننا نلاحظ أنها تنتقل فى الحقيقة بالارث كلما كان الى ذلك سبيل [2] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٤ .

(٢) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١١١ .

وأما المختار فقد أعلن ولاءه وحبّه للعلويّين ، فنراه يفتح داره أمام مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى بعثه ابن عمّه الحسين ابن علىّ ليأخذ البيعة له ويمهّد الطريق أمامه للقدوم الى الكوفة ، واجتهد المختار فى جمع الشيعة وأخذ البيعة منهم للحسين ، حتى اذا قُتِل الحسين بن علىّ بدأ المختار يسعى لجمع شيعة العراق حوله ، ورأى أن يدعو الى تأييد أحد العلويّين ، فأخذ يتودّد الى شيخ العلويّين فى ذلك الحين محمد بن الحنفية ، وكان الطريق ممهدا أمامه للوصول الى قلب ابن الحنفية وبنى هاشم ، فقد لاقوا الكثير من الاضطهاد وسوء المعاملة من ابن الزبير ، وظهر المختار أمام المسلمين والشيعة بمظهر النصير لابن الحنفية والشيعة ، واستفاد المختار من صراع ابن الزبير وابن الحنفية .

وتحدّث جولد تسيهر [١] عن ابن الحنفية فقال : وهو الذى عظّمه جّم غفير من المتدينين الأتقياء ، على اعتبار أنه المهدى الذى احتباه الله لتحرير الاسلام ، وأنه الممثّل لفكرة « الثيوقراطية » فى عهده الخلفاء الأمويين الأوائل الذين نّدد بهم المسلمون كفجرة غاصبين .

بعد مقتل الحسين ، ضعف أمر بنى هاشم ، فقد كان زعماؤهم من أمثال عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية لا يطمعون فى الخلافة . لكن شاء سوء طالع ابن الزبير أن يقف أحد الهاشميين العلويين ، وهو ابن الحنفية ، موقف المعارضة من

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ٢٩ .

الحركة الزبيرية والمهادنة من الدولة الأموية . وكان ابن الزبير يرى من صالحه أن يستمر عداء بنى هاشم للبيت الأموى ، لأن فى ذلك اضعافا للفريقين وتحقيقا لأطماعه الشخصية فى الوصـــول الى الخلافة .

شعر الخليفة يزيد بن معاوية بعد مصرع الحسين بعِظَم ما أتاه فى حق الحسين زعيم البيت الهاشمى ، وعلم أن ذلك سيجر عليه سخط العالم الاسلامى جميعه ، ويتيح الفرصة لعبد الله ابن الزبير فى جمع هؤلاء الساخطين حوله فرأى يزيد أن يبحث عن رجل هاشمى يستطيع أن يستميله الى جانبه ، ووجد ضالته المنشودة فى شخص ابن الحنفية ، فبعث اليه كتابا يكيل فيه المديح والثناء ، ويدعوه الى زيارته فى دمشق . واستجاب ابن الحنفية لدعوة يزيد ، رغم معارضة ولديه ، وهناك استقبله يزيد بالحفاوة والتكريم ، وتبرّأ أمامه من قتل الحسين ونسبه الى ابن زياد ، وعاد ابن الحنفية الى الحجاز ليمدح يزيد على مسمع من أهل الحجاز ممّا ضايق ابن الزبير .

ثم آلم ابن الزبير أن رأى شخصا آخر من زعماء بنى هاشم يقف من حركته موقف المعارضة ، وهو عبد الله بن عباس ، الذى أبى أن يناصر الحركة الزبيرية ، ولذا عمل ابن الزبير على أن ينتقص من شأن ابن عباس أمام الناس وقد حمد يزيد لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فأرسل اليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير وطلب منه أن يحث قومه على أن ينفضّوا من حول ابن الزبير ، ويدعوهم الى التمسّك ببيعة يزيد ، ويمنيه بالعطايا

والصلات ، ولكن ابن عباس ردّ عليه بأنه فى غنى عن حمده له وثنائه عليه ، وأن ما يمنيه به من مال وصلات فهو حق له ، وهو قليل من كثير كانوا يستحقونه ، ثم يذكّره بأنه لن ينس قتله الحسين بن علىّ [1] .

كان ابن عباس يؤثر البعد عن السياسة وما تثيره من مشاكل ، فلم يشأ أن يزج بنفسه فى الصراع الدائر بين الأحزاب السياسية والدينية ، فركن الى الاستكانة والهدوء . وكان هذا من عوامل انصراف المختار فيما بعد عن الاستعانة بالفرع العباسى من البيت الهاشمى ، والاعتماد على الفرع العلوى فحسب .

وهنا رأى يزيد بن معاوية أن يقصر اعتماده على ابن الحنفية فى استمالة قلوب بنى هاشم لخلافته . ولم يخيّب ابن الحنفية ظنّ يزيد فيه ، فعندما رجع وفد المدينة من دمشق ووقف يحث أهل المدينة على خلع يزيد ، وقف ابن الحنفية يدافع عن يزيد ، وينفى عنه اتهامه بشرب الخمر وترك الصلاة ووصفه بأنه رآه « مواظبا على الصلاة متحريا للخير يسأل عن الفقه ملازما للسنّة » [2] . وظن أهل المدينة أن كراهيته لبيعة ابن الزبير دفعته الى الدفاع عن يزيد ، فعرضوا عليه أن يولّوه عليهم ، فأبى . ورفض ابن الحنفية أن يشارك أهل المدينة فى قتال الجيش الأموى فلمّا هدّده بارغامه على القتال ، غادر المدينة الى مكة .

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط) ورقة ٥ .

ولمّا جاء الخبر بنعى يزيد سنة ٦٤ هـ ، بايع الناس لابن الزبير بالخلافة وأبى ابن عباس وابن الحنفية أن يبايعاه .

كان انصراف ابن الحنفية عن تأييد ابن الزبير ، ووفاة الخليفة يزيد بن معاوية ، سببا لاندفاع ابن الحنفية الى تأييد المختار بن أبى عبيد . وفى الحقيقة ، نجد لابن الحنفية العذر فى موقفه من ابن الزبير ، فقد ذكر المؤرخون الكثير عن معاملة ابن الزبير السيئة لبنى هاشم ، تلك المعاملة التى استفاد منها المختار كثيرا .

غضب ابن الحنفية لاقدام ابن الزبير على سبّ أبيه علىّ ابن أبى طالب ، فوقف على المنبر يعلن احتجاجه ، ويلوم ابن الزبير، ويمتدح عليّا ، ويعلن أنه حينما يصبح للعلويين دولة سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأراد ابن الزبير أن يفض الناس من حول ابن الحنفية لأنه ليس من أولاد فاطمة بنت محمد فقال : عذرت بعض الفواطم ، فما بال بنى حنيفة ؟ ! (١) .

بدأ ابن الزبير سياسة ايجابية نحو حزب بنى هاشم ، وقد أتاحت هذه السياسة فرصة ذهبية للمختار للتدخل والظهور بمظهر نصير بنى هاشم . فقد أخرج ابن الزبير ابن الحنفية من مكة الى ناحية رضوى ، وأخرج ابن عباس الى الطائف « اخراجا قبيحا » (٢) . ووصف أحد كتّاب الشيعة سياسة ابن الزبير نحو الهاشميين فقال : « أطلع ابن الزبير رأسه وأظهر أمره بمكة ، فأخذ يشدّد على الأمة ، وكثر منه السفك ، حتى ملأ السجون من الناس،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٩ .

حتى صار الناس يبايعونه خوفا من القتل لا لكونه أهلا للخلافة والامرة على المسلمين . وكثر أذاه للناس عامة ، وجوره على الهاشميين خاصة ، فضيّق عليهم غاية التضييق لما امتنعوا من البيعة له » [1] .

ولم يكتف ابن الزبير بما يجاهر به من سبّ ابن الحنفية وشتم أبيه عليّ بن أبي طالب وسائر بنى هاشم ، بل أراد أن يخرج هذه الكراهية والبغضاء الى الدور الايجابى العملى ، فألقى بالحسن ابن محمد بن الحنيفة فى السجن المعروف بسجن عارم ، بل حاول قتله ، لولا أنه فرّ من سجنه ولحق بأبيه . وفى ذلك يقول كثير [2] :

تخبر من لاقيت أنك عائذ
بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى
من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمّى نبى الله وابن وصيه
وفكاك أغلال وقاضى مغارم

ثم بدأ ابن الزبير يعمل على التخلّص نهائيا من ابن الحنفية ، فأعلن أنه يعطى ابن الحنفية مهلة الى غروب الشمس ، فان لم يبايع له بالخلافة يقتله حرقا بالنار ، ولكن ابن الحنفية وقومه

---

(١) على بن الحسين الهاشمى : محمد بن الحنفية ص ١٣٦ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ .

أعلنوا رفضهم تهديد ابن الزبير وقالوا : لا نبايع حتى تجتمع الأمـة .

كانت سيطرة المختار علـى الكوفة سببا فى تغيّر سياسة ابن الزبير نحو ابن الحنفية وبنى هاشم ، فيقول ابن الأثير [1] : « فلمّا استولى المختار على الكوفة ، وصارت الشيعة تدعو لابن الحنفية ، خاف ابن الزبير أن يتداعى الناس الى الرضا به فألح عليه وعلى أصحابه فى البيعة فحبسهم بزمزم وتوعّدهم بالقتل والاحراق ، وأعطى الله عهـدا ان لم يبايعـوا أن ينفّذ فيهم ما توعّدهم به وضرب لهم فى ذلك أجلا . فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية أن يبعث الى المختار يُعلمه حالهم . فكتب الى المختار بذلك ، وطلب منه النجدة » .

وقد استفاد المختار من رسالة ابن الحنفية اليه يستنجد فيها به من تعذيب ابن الزبير ، فوقف فى الكوفة يخطب فى أهلها قائلا : ان هذا مهديكم وصريح أهل بيت نبيّكم قد تركوه ومن معه محصورا عليهم ، كما يحصر على الغنم ، ينظرون القتل والتحريق فى الليل والنهار ، لست أبا اسحق ان لم أنصرهم نصرا مؤزرا ، وان لم أسرّب الخيل فى أثر الخيل كالسيل يتلوه السيل حتى يحل بابن الكاهلية — أى ابن الزبير — الويل [2] .

وهنا بكى أهل الكوفة بكاء مرّا ، وقالوا للمختار : سرّحنا

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

اليه وعجّل . فوجّه المختار اليهم أبا عبد الله الجدلى فى أربعمائة فارس . وكان عبد الله بن عباس قد قال لابن الحنفية : يا ابن العم ، انّى لا آمنه عليك فبايعه . فقال : سيمنعه عنى حجاب قوى . وكان ابن الحنفية يقصد المختار ولكنه لم يشأ أن يصرّح بذلك لابن عباس الذى ظن أن ظاهرة طبيعية وجوية هى التى ستنقذهم ، فأخذ ينظر الى السماء ويفكر فى كلام ابن الحنفية . وبعد ساعات قليلة ، وقبل غروب الشمس ، قدم أبو عبد الله الجدلى وفرسانه من أنصار المختار . وطلب الجدلى من ابن الحنفية أن يسمح له بقتال ابن الزبير ، ولكنه أبى ، واكتفى ابن الحنفية بنجاته وأسرع بالخروج من مكة .

بعث المختار مع الجدلىّ رسالة ، يعرض فيها على ابن الحنفية المزيد من المساعدة ، ويعرض عليه أن يشنّ حربا شعواء على ابن الزبير ؛ ولم ينس المختار أن يشيد بفضله على بنى هاشم ؛ ويعقد مقارنة بينه وبين ابن الزبير ؛ فجاء فى رسالته : « انى أرسلت اليك جيشا ليذلّوا لك الأعداء ويحرزوا البلاد . فان رأيت أن أبعث الى المدينة جيشا كثيفا ، وتبعث اليهم من قبلك رجلا حتى يعلموا أنى فى طاعتك فافعل فانك ستجدهم بحقكم أعرف وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير والسلام » .

طلب المختار من ابن الحنفية أن يبعث رسولا من قبله يخبر أهل العراق أن المختار فى طاعة ابن الحنفية ، ولكن ابن الحنفية اكتفى بأن بعث الى المختار برسالة جاء فيها : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك وعرفت تعظيمك لحقى وما تنوّه به من سرورى ،

وانّ أحبّ الأمور كلها الىّ ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعت ، واني لو أردت القتال لوجدت الناس الىّ سراعا والأعوان لى كثيرا ، ولكن أعتزلكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» .

وكأن ابن الحنفية قد آثر الهدوء والسلام والموادعة ، ورغم اقتناعه بحقه ، فقد كان غير متحمّس للجهاد أو القتال من أجل الوصول الى هذا الحق المسلوب ، وشتّان بينه وبين أخيه الحسين ابن على الذى خرج يقاتل من أجل حقه حتى قُتِل . كما أن ابن الحنفية لم يكافىء المختار على ما بذله فى سبيله ، فقد كان الوحيد الذى تقدّم له بيد المساعدة فى محنته فبعث له بأربعمائة من فرسانه فى فترة وجيزة ، فأخرجوه من سجنه . فلم يحقق ابن الحنفية ما طلبه المختار من تأييد ، واظهاره أمام أهل الكوفة بمظهر نصير بنى هاشم .

غضب ابن الزبير لقدوم فرسان المختار ، وحاول أن يمضى فى طريقه ، طريق ايذاء ابن الحنفية وبنى هاشم حتى يبايعوا له ، فقال لجند المختار : أتحسبون أنى أخلّى سبيلهم دون أن يبايع ويبايعوا ؟ فقال الجدلى قائد جيش المختار : أى ورب الركن والمقام لتخلين سبيله أو لنجادلنّك بأسيافنا جدالا لا يرتاب منه المبطلون . ولكن ابن الحنفية نهى جند المختار عن القتال وسفك الدماء . ودخل جند المختار المسجد الحرام وقد تعالت صيحاتهم : يا لثارات الحسين « فخافهم ابن الزبير وخرج محمد بن الحنفية ومن معه الى شعب علىّ ، وهم يسبّون ابن الزبير ويستأذنون محمدا فيه ،

فأبى عليهم ، فاجتمع مع محمد فى الشّعِب أربعة آلاف رجل فقسّم بينهم المال ، وعزّوا وامتنعوا » [1] .

وكان قدوم جيش المختار كافيا لالقاء الرهبة فى قلب عبد الله ابن الزبير ، فلم يقدم على ما كان قد توعّد به ابن الحنفية والهاشميين من قتل واحراق ، واكتفى باخراج ابن الحنفية الى رضوى ، واخراج عبد الله بن عباس الى الطائف . وبعد فترة رحل ابن الحنفية الى الطائف حيث لحق بابن عباس ، فلم يزل بها حتى توفى ابن عباس بها فى سنة ٦٨ وعمره ٧١ سنة ، وصلّى عليه ابن الحنفية [2] .

أمسك ابن الزبير عن أذى ابن الحنفية والهاشميين طوال حياة المختار ، ولكن بعد مقتل المختار على يد مصعب بن الزبير بالعراق ، بعث عبد الله بن الزبير أخاه عروة ليقول له على لسان أخيه : ادخل فى بيعتى والاّ نابذتك . فقال ابن الحنفية لعروة : بؤسا لأخيك ما ألجه فيما أسخطه الله وأغفله عن ذات الله . وقال ابن الحنفية لأصحابه : ان ابن الزبير يريد أن يثور بنا ، وقد أذنت لمن أحبّ الانصراف عنّا فانه لا ذمام عليه منّا ولا لوم ، فانى مقيم حتى يفتح الله بينى وبين ابن الزبير وهو خير الفاتحين . وهكذا شعر ابن الحنفية بخسارته الفادحة بموت المختار ، فقد حُرم من معاضدة هذا النصير المتحمس ، ولكن ابن الحنفية كان دائما يفضل اتباع سياسة سلبية ، فرضخ مرة أخرى لتهديد ابن الزبير .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٥ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ .

ولكن الجدلى قائد المختار أعلن تمسكه بتأييد ابن الحنفية ، رغم أن المختار كان قد لاقى حتفه . وعلم الخليفة الأموى ، عبد الملك بن مروان بعودة ابن الزبير — خليفة الحجاز — الى تهديد ابن الحنفية ، فبعث يدعوه للقدوم الى بلاد الشام ، وأجاب ابن الحنفية دعوة عبد الملك ، ولكنه فى طريقه الى الشام علم بغدر عبد الملك بعمرو بن سعيد فندم على رحيله الى الشام ، وشعر بالندم ، فنزل مدينة أيله . والتف حوله أهلها ، وخشى عبد الملك أن يستفحل أمر ابن الحنفية « فندم على اذنه له فى قدومه بلده ، فكتب اليه أنه لا يكون فى سلطانى من لم يبايعنى » .

كان من المستحيل أن يتفق ابن الحنفية وعبد الملك بن مروان ، فالأول هاشمى والآخر أموى والعداء بين الفريقين معروف . ورحل ابن الحنفية الى مكة ، ولكن ابن الزبير أمره بالرحيل عنها ، فاستأذنه أصحابه فى قتال ابن الزبير فلم يأذن لهم وقال : اللهم البس ابن الزبير الذل والخوف وسلط عليه وعلى أشياعه من يسومهم الذى سام الناس . ورحل ابن الحنفية الى الطائف فأقام بها الى أن قدم الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير . وبعد مقتل ابن الزبير طالب الحجاج ابن الحنفية بالبيعة لعبد الملك فأبى ، فقد ظل ابن الحنفية مصرّا على أن الخلافة من حق البيت العلوى دون البيت الأموى ، ولكنه لم يجاهد من أجل الخلافة واكتفى بالتأييد الأدبى للمختار، الذى كان على استعداد للاستشهاد فى سبيل قيام خلافة علوية . وعلى الرغم من معارضة ابن الحنفية ، فقد أرسل عبد الملك الى الحجاج يأمره بحسن معاملته ، ثم

ما لبث أن رحل ابن الحنفية الى دمشق حيث بايع ابن مروان [1]، فقد دانت الدولة جميعها له ، ولم يعد هناك مجال لمعارضة ابن الحنفية .

كان المختار يرجو أن يبادله ابن الحنفية اخلاصا باخلاص ، ولقد تحدّث الشهرستانى [2] عن الدافع للمختار على اعتماده على ابن الحنفية فقال : « انما حمله على الانتساب الى محمد ابن الحنفية حسن اعتقاد الناس فيه ، وامتلاء القلوب بحبّه ، والسيّد — أى ابن الحنفية — كان كثير العلم غزير المعرفة وقّاد الفكر مصيب الخاطر فى العواقب » .

وكان موقف ابن الحنفية من المختار ومن حركة عبد الله ابن الزبير سببا فى ظهور حزب شيعى جديد هو حزب الكيسانية ، وهم « الذين وردوا الى ابن الحنفية ، وهم القائلون بامامة محمد ابن الحنفية »[3] . وسنفصّل الحديث عن الكيسانية عند حديثنا عن أثر المختار فى الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الأموية ، فى الفصل الأخير من هذا الكتاب [4] .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٠٦

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) نادى الشاعر كثير ، أن ابن الحنفية لم يمت بل سيظل حيا حتى يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا ، وهو مستور فى كهف جبل رضوى قرب المدينة حيث الغزلان والأسود تحيا معا فى سلام ، ويتغذى هناك بعسل وماء (الأصفهانى : الأغانى ج ٨ ص٣٢) .

موقف المختار من الحركة الزبيرية

الصراع بين المختار والزبيريين على النفوذ فى العراق ـ عوامل تفوق الحركة المختارية على الحركة الزبيرية فى العراق : بخل ابن الزبير وكرم المختار ، اهمال ابن الزبير عنصر الدعاية واهتمام المختار به ، سوء اختيار ابن الزبير لولاته وخداع المختار لهم ، تمجيد ابن الزبير لعثمان وتمجيد المختار لعلى وأولاده ، ابن الزبير لايطلب ثأر الحسين والمختار يقضى على قتلة الحسين ، اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبنى هاشم واكرام المختار لهم ، مكر المختار بابن الزبير ، ابن الزبير يعتمد على العرب والمختار يعتمد على الموالى والعرب .

الفصل الثامن

موقف المختار من الحركة الزبيرية :

رفض الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير البيعة ليزيد ابن معاوية عندما تولّى الخلافة ، وخرجا فارّين الى مكة . أما ابن الزبير فقد وجد فى مكة الطمأنينة التى ينشدها ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأييدهم بخاصة حينما قال لهم : « أنا عائذ بالبيت » . وأما الحسين فقد خرج ملبيّا دعوة الكوفة له ، ولكن الكوفيين تخلّوا عنه وتركوه يلقى مصيره المؤلم فى كربلاء . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ابن الزبير حرّض الحسين على الخروج من مكة الى الكوفة ، وقارن المؤرخون بين موقف ابن الزبير الذى نصحه بالخروج ، وموقف سائر الصحابة الذين نصحوه بالبقاء فى مكة ، وذكّروه بما حدث لأبيه وأخيه معهم .

وبعد مصرع الحسين ، خلا الجو لابن الزبير فأصبح رجل الساعة الذى التف حوله الساخطون على بنى أمية . ولعبت عوامل عدة دورها فى نشر الدعوة لابن الزبير ، منها زهد الصحابة فى الخلافة وتعدّد ولاة الحجاز الأمويين وتنازعهم وتخبطهم فى سياستهم ، وضعف الحامية الأموية بالحجاز ، وسياسة الأمويين

الاقتصادية بالحجاز التى أدت الى سخط الحجازيين ، الى جانب السخط العام على الحكم الأموى الذى ازداد اشتعالا بعد مصرع الحسين .

الصراع بين المختار والزبيريين على النفوذ فى العراق :

لم يكن ابن الزبير بالذى يجرؤ على أن يدعو لنفسه والحسين على قيد الحياة . حتى اذا لقى الحسين ربه ، أظهر ابن الزبير دعوته على الملأ ، وبيّن للناس حقّه فى الخلافة ، ووقف يخطب الناس ، فهاجم يزيد فى أخلاقه وسجاياه ، وبكى حسينا واستبكى الناس عليه ، وسبّ أهل الكوفة لغدرهم بالحسين [1] . وكان لكلماته رنة السحر فى نفوس العلويين وأهل الحجاز خاصة ، والساخطين على الحكم الأموى عامة ، فالتفوا حوله وناصروه ورأوا فيه الزعيم الذى يأخذ بثأر قتيلهم الحسين ويقضى على الحكم الأموى ، ولمّا طلبوا منه أن يبايع لنفسه لم يجبهم الى طلبهم حتى كأنما يريد أن يظهر للناس زهده فى الخلافة [2] .

ثم قدم المختار الى ابن الزبير ، وكان لا يزال ممتنعا عن البيعة ، ثم كان مفارقته له ورحيله الى الطائف ليمضى عاما كاملا ، يعود بعده ليرى ابن الزبير قد بدأ يبايع لنفسه . ويكون بعد ذلك سفر وفد المدينة الى دمشق بدعوة من يزيد بن معاوية وعودتهم وخلعهم طاعة يزيد واسرافهم فى سبّه وشتمه ، فيبعث يزيد اليهم بجيش

---

(١) أنظر الخطبة فى تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

يغزو المدينة ، فكانت موقعة الحرة ، وما نزل بالمدينة من قتل أهلها ونهب متاعها ، ثم يمضى الجيش الأمـوى فى طريقه لحصـار ابن الزبير فى مكة ، ذلك الحصار الذى وقف فيه المختار الى جانب ابن الزبير ليذود عن الكعبة . ثم كانت نهاية يزيد بن معاوية وعودة الجيش الأموى الى دمشق ، وانتشار البيعة لابن الزبير فى الحجاز والشام ومصر والعراق . ولم يبرّ ابن الزبير بوعوده التى قطعها للمختار ممّا اضطره الى الرحيل الى العراق ، وهناك بدأ الصدام بينه وبين الحركة الزبيرية .

وكانت حركة التوابين هى الميدان الأول الذى شهد أول صدام بين المختاريّين والزبيريّين . قدم المختار الى الكوفة ، فى نفس الوقت الذى قدم فيه عبد الله بن يزيد عامل ابن الزبير عـلى الكوفة . وبدأ كل من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة به ، فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ، أما المختار فكان يرمى الى جمع الناس حوله وتكوين حزب قوىّ يساعده فى الوصول الى ما يطمح فيه من سلطة ونفوذ .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد أخذت فى الانتشار بسرعة ، فخاف المختار من انهيار آماله وضياع جهوده . ولكنه كان فى حاجة الى أنصار يؤازرونه ، وكان يعلم أنه فى العراق حيث شيعة علىّ ، فرأى أن يستعين بهؤلاء الشيعة ويعتمد عليهم . ولكنه رأى أنهم اندمجوا فى حركة التوابين ، فكان عليه أن يمزّق شمل هـذه الحركة ليجمع الشيعيّين من حوله . فأخذ يثنى الناس عن عزمهم على الخروج مع سليمان بن صرد لقتال ابن زياد ، يدلّ على ذلك

ما رواه ابن الأثير [1] عن غضب سليمان لقلة عدد جنده ، وأنه لما تساءل عن سبب قلتهم « قيل له ان المختار يثبط الناس عنك » .

كان جديرا بابن الزبير وهو فى حاجة الى تأييد أهل العراق أن يجاريهم فى شعورهم ويجرى على هواهم ، وأن يأمر واليه ابن يزيد بطاعة أهل العراق فيما يريدونه من المطالبة بثأر الحسين . على أنه يجب أن ننصف ابن يزيد ، فقد حاول — الى حد ما — أن يدير الأمور لصالح ابن الزبير . فشجع أهل العراق على الخروج لقتال ابن زياد ، ولكنه لم يذكر لهم أنه على رأيهم ، كما أنه لم يساعدهم ماديّا وأدبيا .

وبينما كان المختار يُخبر شيعة العراق أنه على رأيهم وأنه معهم على عدوّهم ، كان ابن يزيد يُبدى لهم أنه لا يوافقهم على آرائهم . وبينما كان المختار يثبط همم التوابين والشيعة حتى لا يلتفوا حول سليمان بن صرد ، منافسه الخطير ، كان ابن يزيد يحث التوابين على الاتحاد والخروج لقتال ابن زياد [2] . ولكن جهود ابن يزيد المحدودة ضاعت أمام سياسة ابن الزبير التى اتبعها نحو بنى هاشم . فأهل العراق الذين سمعوا باقدام ابن الزبير على سبّ على بن أبى طالب على المنابر ، لن يصدّقوا اليوم نائبه ابن يزيد فى حثّهم على الخروج للطلب بثأر الحسين . ولم يتبع ابن يزيد نحو التوابين سياسة ثابتة محدّدة ، فقد حضّهم فى بداية الأمر بالخروج لقتال ابن زياد دون أن يساعدهم ، حتى اذا بدأوا

(١) الكامل ج ٤ ص ٧٣ .
(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٦٩ .

رحلتهم أدرك خطأه فبعث اليهم يطلب منهم العودة ، فقد كان عدد التوابين قليلا مما يجعل اندحارهم مؤكدا .

كان التوابون أعداء لبنى أمية وللحركة الزبيرية ، فقد التقى جيش التوابين بجيش ابن زياد عند عين الوردة ، فطلب ابن زياد من التوابين أن يبايعوا للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، فردّ عليه ابن صرد طالبا تسليم الجند الأمويين ، ودعا هؤلاء الجند الى خلع عبد الملك والى مساعدة التوابين فى اخراج عمّال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول [1] . غير أن كلاّ من الفريقين أبى الاّ أن يقاتل فى سبيل الأغراض التى خرجوا من أجلها . وانتهت معركة عين الوردة — كما مرّ بنا — بمقتل ابن صرد ومعظم أصحابه . وقد أيّد أهل العراق حركة التوابين ، فقد أبوا أن ينتظروا كفاح الحركة الزبيرية للحكم الأموى ، ورأوا أن يحرّروا بلادهم بأنفسهم ، فالاستقلال هو هدفهم الأول والأخير ، وكانت حركة التوابين حركة عراقية ، ووضع التوابون هدف الاستقلال موضع التنفيذ حين طلبوا من جند الشام أن يعاونوهم فى طرد ولاة ابن الزبير ولم يحقق الأمويون طلب التوابين فقد كان مقرونا بمطلب آخر من المستحيل تحقيقه وهو اقامة خلافة علوية .

وعلى الرغم من أن أهل العراق كانوا قد بايعوا ابن الزبير فى بداية الأمر ، فان قدوم المختار جعلهم ينفضّون عن الدعوة الزبيرية

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١ .

ويلتفون حوله ، نتيجة سياسة ابن الزبير نحو الشيعة . فقد اختار ابن الزبير ابراهيم بن محمد بن طلحة ليتولى خراج الكوفة ويأخذ البيعة له من أهل العراق ، وكانت الشيعة تبغضه فقد حارب جده طلحة بن عبيد الله مع الزبير على بن أبى طالب فى موقعة الجمل ، واستمات محمد بن طلحة فى القتال حتى لقى حتفه فى هـذه الموقعة .

وصل ابراهيم بن محمد بن طلحة الى العراق ، فى وقت ظهرت فيه حركة التوابين ، وهى حركة شيعية تتحمس للبيت العلوى ، كما كان هناك المختار ينادى بأنه وزير ابن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفرٌ من صدام ابراهيم بأهل العراق ، وقد نسى ابراهيم أنه ممثل لابن الزبير ، ولم ينس أحقاده القديمة !

وقع خلاف شديد بين ابراهيم وزميله عبد الله بن يزيد حول سياسة الحكم فى العراق ، فقد أبدى ابراهيم عداء وبغضا للشيعة بالعراق ، وكان ابن يزيد يرى اتباع سياسة معتدلة . وكان هذا الانقسام بين ممثلى ابن الزبير ، وما أبداه ابراهيم من كراهيته لأهل العراق ، دافعا لهم لانصرافهم عن الحركة الزبيرية والالتفاف حول المختار .

وقد شعر عاملا ابن الزبير ، ابن يزيد وابراهيم ، بازدياد نفوذ المختار ، فألقيا القبض عليه وسجناه ، وشفع فيه زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب فأطلقا سراحه . وغادر المختار السجن ليجد آلاف الشيعة فى انتظاره ، فقد قُتل سليمان بن صرد فى معركة عين الوردة على يد الجيش الأموى ، وعادت فلول التوابين تبحث

عن زعيم جديد ، وقد وجدت هذا الزعيم فى شخص المختار .
ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى حتى عزل ابن الزبير عامليه ، ابن يزيد وابراهيم ، واستعمل عبد الله بن مطيع بدلهما على الكوفة .

ولكن هذا الوالى الجديد لم يكن خيرا من سلفيه ، فقد سار فى أهل الكوفة على سياسة أغضبتهم فحقدوا عليه وكرهوا حكمه ، ووقفوا فى صف المختار الذى استطاع بمعونتهم أن يثبت أقدامهم بالكوفة ويعزل عبد الله بن مطيع . وقد أحب أهل الكوفة المختار لأنه سار فيهم سيرة وافقت هواهم فطلب ودّهم وأقام العدل بينهم ، وزاد حبّهم له حين أظهر لهم أنه رسول ابن الحنفية ووزيره الأمين وساعده الأيمن ، فأقبلوا عليه يؤازرونه ويؤيدونه .

استطاع الأمويون أن يوحدوا صفوفهم المتفرقة ، وبايعوا لمروان بن الحكم بالخلافة . فبدأ الصراع بين المختار والحركة الزبيرية يدخل فى دور جديد ، فقد كان الأمويون بعيدين عن هذا الصراع ، فقد انشغلوا بانقساماتهم وما أثارته العصبية القبلية من فتنة وحرب . ثم صفّى الأمويون خلافاتهم ، وأصبحوا طرفا ثالثا فى صراع المختار وابن الزبير .

ولما تولى مروان الخلافة فى دمشق ، وضع سياسة تقضى على نفوذ ابن الزبير فى الدولة العربية . وكان ابن الزبير قد نجح فى السيطرة على جميع أقطار الدولة عدا اقليم الأردن . وقد استطاع مروان أن يسترد الشام ، ثم مصر ، ثم أرسل جيشين أحدهما الى المدينة لقتال ابن الزبير ، والآخر بقيادة عبيد الله بن زياد الى

العراق لتأديب زفر بن الحارث عامل ابن الزبير على قنسرين الذى هـرب الى قرقيسيا . فلقى ابن زياد فى طريقه التوابين بزعامة ابن صرد الذى لقى حتفه . واستمر بن زياد فى زحفه حتى أقبل على الموصل . واستنجد عامل الموصل بالمختار ، فبعث بقائده يزيد بن أنس لقتال ابن زياد ، ولكنه توفى وتفرق أصحابه ، فأرسل المختار قائده العظيم ابراهيم بن الأشتر بجيش آخـر لحق بالجيش الأول عند الموصل ، وحال دون دخول ابن زياد أرض العراق . وتلاقى الجيشان ، وانتهت المعركة بهزيمة جيش الشام ومصرع قائده ابن زياد ، وبعث المختار رأسه الى الحجاز .

عوامل تفوق الحركة المختارية على الحركة الزبيرية فى العراق :

بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية الثانى ، اضطربت الأمور فى العراق ، فأصبحت البصرة مسرحا للعصبية القبلية بين مضر وربيعة والأزد . وانتهز الخوارج هذه الفرصة فبدأوا يعيثون فى البصرة فسادا . ورأى ابن زياد أن يطلب البيعة من أهل العراق حتى يجمع بنو أمية كلمتهم على اختيار خليفة من بينهم . وبدأ ابن زياد يطلب البيعة من أهل البصرة ، فهم أقل تشيعا لآل على من أهل الكوفة ، فدعاهم الى الاجتماع بالمسجد ، وتحدث عن جهوده لرفعة شأن البصرة ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر الأمور فى الشام ، فتظاهروا بالموافقة على بيعته ، ثم خرجوا من المسجد ليعلنوا نقضهم هذه البيعة [1] .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٩ ــ ٢٠ .

بدأ نفوذ ابن زياد فى الضعف ، ورأت عامة أهل البصرة أن فى بقاء حكم ابن زياد الضعيف مما يهددهم بخطر الخوارج . وتحالفت الشيعة والموالى والقراء على طرد ابن زياد ، الذى آثر النجاة بحياته فخرج هاربا الى الشام . ولكن الفوضى انتشرت فى البصرة بعد فراره ، واشتدت روح العصبية بين مضر واليمن ، واختلفوا حول تعيين أمير يخلف ابن زياد . ثم رأوا أن يتخلصوا من هذه الفوضى بالبيعة لابن الزبير ، يدفعهم الى ذلك خطر الخوارج والعصبية القبلية ، ولهذا تصالح الأزد ومضر وتراضوا على بيعة ابن الزبير [1] .

أما الكوفة ، فقد بعث ابن زياد رسولا حاول أخذ البيعة له من أهلها ، فقبضوا عليه وألقوا به فى السجن . وبعث الكوفيون الى ابن الزبير يعرضون بيعتهم له ، فولّى عليهم عامر بن مسعود الذى رشحوه للحكم ، ثم ولّى بعده عبد الله بن يزيد بعد فترة وجيزة .

وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الذى حازته الحركة الزبيرية ، فما أسرع ما تضاءلت هذه الحركة وانكمشت ، بينما سطع نجم المختار وبدأت الحركة المختارية تحتل مكانة الحركة الزبيرية . فقد سار والى ابن الزبير على الكوفة عبدالله بن مطيع فى أهلها سيرة أغضبتهم فحقدوا عليه وكرهوا ابن الزبير ، والتفوا حول المختار الذى استطاع بمعونتهم أن يثبت أقدامه فى الكوفة

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٢ .

ويعزل ابن مطيع . وما لبث أن اتسع نفوذ المختار ، وكثر أنصاره، وكان فى مقدمتهم قائده الباسل ابراهيم بن الأشتر ، ودانت له بالطاعة بلاد العراق وسائر الأمصار عدا الحجاز والشام . ودخل المختار قصر الامارة فى الكوفة ، وبسط يده يطلب البيعة من الناس وقال : « تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ، والوفاء ببيعتنا » (1) .

وأقبل الناس يبايعون المختار ، وشجعهم على بيعتهم له ما أغدقه عليهم من أموال كثيرة ، ثم كتب المختار الى ابن الزبير يخبره انما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن تولى أمورها ، وطلب من ابن الزبير ألا يحاسبه على ما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته ، وبدأت مرحلة من الصراع العنيف بين ابن الزبير والمختار ، وسرعان ما رجحت كفة المختار على كفة خصمه .

وهذا يدعونا الى التساؤل : لماذا تخلى أهل العراق سريعا عن الحركة الزبيرية ونقضوا بيعتهم لعبد الله بن الزبير بعد اقبال منهم ؟ ولماذا أقبل أهل العراق على تأييد المختار والبيعة له ؟ ولنجيب على هذين السؤالين ، نقول ان هذا الانصراف وذلك التأييد راجع الى عدة عوامل :

---

(1) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ .

أولا ـ بخل ابن الزبير وكرم المختار :

كان أهل الكوفة يسعون وقتئذ وراء الدرهم والدينار ، فكان على عبد الله بن الزبير أن يغمرهم بالمال حتى يصرفهم عن عدوه المختار ، الذى فطن الى طباع أهل الكوفة فغمرهم بعطاياه وصلاته. قال المسعودى[1] : « وسار المختار الى قصر الامارة فأخرج مطيعا منه ، وغلب على الكوفة وابتنى لنفسه دارا وبستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة ، وكتب الى ابن الزبير يعلمه أنه انما أخرج ابن مطيع من الكوفة لعجزه عن القيام بها ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما أنفقه من بيت المال . فأبى ابن الزبير ذلك عليه فخلع المختار طاعته وجحد بيعته » .

كذلك روى ابن الأثير[2] الكثير عن كرم المختار وتشديد ابن الزبير على ولاته بالعراق ، فقال : « ووجد المختار فى بيت المال تسعة آلاف ألف فأعطى أصحابه الذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع فى القصر وهم ثلاثة وخمسمائة ، لكل رجل خمسمائة درهم » . بل نجح المختار فى رشوة عمال ابن الزبير فأقاموا فى العراق ولم يعودوا الى ابن الزبير بالحجاز ، وركنوا الى السلام والهدوء .

وقد أجمع المؤرخون — القدامى والمحدثون — على أن بخل ابن الزبير كان عاملا هاما فى اخفاق حركته السياسية ، بينما كان كرم المختار وبذله الأموال للعامة والخاصة من أبرز عوامل

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(٢) الكامل ج ٣ ص ٩٥ .

نجاح حركته فى العراق ، وتفوقها على الحركة الزبيرية . ونظم الشعراء قصائدهم يصفون بخل ابن الزبير ، فقال أحدهم :

رأيت أبا بكـــر وربك غالب على أمره يبغى الخلافة بالتمر

بل هجاه مولى من مواليه وهو أبو حرّه ، فوصف شحّه فى بيتين فقال :

ما زال فى ســـورة الأعراف يقـــرؤها

حتى فؤادى مثـــل الخـــزّ فى اللّين

لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد

أفضت فضـــــلا كبيرا للمســـاكين

فقد كان ابن الزبير كما يروى المسعودى[1] يظهر « الزهد فى الدنيا ، والعبادة ، مع الحرص على الخلافة ، وقال : انما بطنى شبر ، فما عسى أن تسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب . وكثرت أذيته لبنى هاشم ، مع شحّه بالدنيا على سائر الناس » .

ويقول ابن طباطبا [2] عنه أيضا أنه « كان عظيم الشح فلذلك لم يتم أمره » . وذكر البلاذرى[3] البيتين اللذين هجا الشاعر الضحاك بن فيروز الديلمى بهما ابن الزبير ، وهما :

تقول لنا أن سوف يكفيك قبضة

وبطنـــك شبر أو أقل من الشبر

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) الفخرى ص ١٠٥ .

(٣) أنساب الأشراف جـ ٤ ص ٢٧ .

وأنت اذا ما نلت شـيئا قضمته

كما قضمت نار الغضى حطب السدر

توقع الخليفة عبد الملك بن مروان نجاح المختار ، واخفاق ابن الزبير ، وان كان قد ترك الرجلين يتصارعان ، والحـركتين تصطدمان . وكان عبد الملك يذم ابن الزبير ، فيقول : « ان ابن الزبير لا يصلح أن يكون سائسا ، وكان يعطى مال الله كأنه يعطى ميراث أبيه » ووصف المؤرخ (أوكلى) [1] ابن الزبير بأنه كان على نصيب غير عادى من الشجاعة ، الا أنه كان شحيحا لأقصى حد ، وقد أدي هذا الي شيوع مثل بين العرب بأنه ليس هناك رجل يفوق ابن الزبير فى الشجاعة والبخل .

ثانيا ـ اهمال ابن الزبير عنصر الدعاية واهتمام المختار به :

لابد لنجاح أية حركة سياسية من عاملين هامين ، أولهما بث الدعوة فى شتى الأرجاء ، وثانيهما الدعاية لها بكل الوسائل . ولكن ابن الزبير أهمل هذين العاملين الهامين ، اذ قبع فى مكة واعتمد فى نشر الدعوة له على رجال غير جديرين بثقته العمياء التى وضعها فيهم . فهذا هو الضحاك بن قيس الذى عهد اليه بنشر الدعوة للحركة الزبيرية فى الشام ، قد أصبح طامعـا فى الخلافة ، فترك الدعوة لابن الزبير ، وطلب من الناس أن يبايعوا له بالخلافة ، فانفض أهل الشام عن الضحاك وعن ابن الزبير ، وبايعوا لمروان بن الحكم .

---

(١) The Hist of Saracens, p. 479

كما اعتمد ابن الزبير فى الدعوة له بالعـراق على شخصيات ضعيفة أمثال عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة ، فأساءوا الى دعوة ابن الزبير ولم يفيـدوها شيئا على الاطلاق ، بل أغضـبوا أهـل العـراق ودفعـوا بهـم الى تعضـيد المختار . كما أن ابن الزبير لم يهتم بنشر دعوته فى مصر ، فاقتصر أمر الدعوة على المجهود المحدود الذى بذله ابن جحدم ، الذى فرض نفسه واليا يمثل ابن الزبير . حتى اذا قدم مروان بن الحكم على رأس جيش أموى ، نقض المصريون بيعة ابن الزبير وبايعوا لمروان بالخلافة .

لجأ ابن الزبير الى الارهاب والاجبار فى نشر الدعوة ، ولم يهتم بوسيلة الاقناع المثلى وهى الدعاية على نطاق واسع وخـير وسائل الدعـاية فى ذلك العصر الشعر والشـعراء . بينما اهتم الأمويون بتقريب الشعراء ، وغمروهم بالأموال والصـلات ، فلهجت ألسنتهم بالثناء على الدولة الأموية ، وهجاء ابن الزبير ، وقد مر بنا أبيات من الشعر تصف بخل ابن الزبير . واسـتفاد المختار من هجاء الشعراء لابن الزبير ، فقد كان الشعر سـلاحا ماضيا ، ومعولا يهدم به الحركة الزبيرية .

وفى نفس الوقت ، اهتم المختار بنشر دعوته ، والدعاية له فى كل مكان ، وبكل وسيلة . فقد بدأ يدعو لنفسه منذ اللحظة الأولى لظهوره على المسرح السياسى ، وفتح داره — على ما مر بنا — أمام مسلم مبعوث الحسين الى العراق ، وأصبحت داره أشهر دور الكوفة ، وسمع بالمختار من لم يسمع به من قبل . وفى

طريق المختار الى الحجاز ، لبعد نفيه ، حرص على أن يشرح لكل من التقى بهم فى الطريق أهدافه السياسية ومراميه ، فكان ممن التقى بهم رجل يدعى ابن العرق ، فقال المختار له : « يا بن العرق ، ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت فى خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل ان المختار فى عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن على »[1] . ولما أبى ابن الزبير تحقيق آمال ابن الزبير غادره الى الطائف ، وأعلن لكل من التقى به أنه سيقضى على الظلم والجبروت ويثور على الجبارين الطغاة ، فكان يقول : « أنا مبيد الجبارين » ، كما قال أيضا : « أنا صاحب الغضب ومسير الجبارين »[2] .

وعندما خرج المختار من الحجاز الى العراق ، لقى بعضهم فى الطريق ، فاستفسر منهم عن أهل العراق ، ثم قال لهم : « أنا أبو اسحق ، أنا والله لهم ، ان أجمعهم على الحق ، وألقى بهم ركبان الباطل ، وأهلك بهم كل جبار عنيد »[3] . وما كاد المختار يدخل العراق ، حتى أخذ يمر على أحياء الكوفة حيّا بعد حىّ ، وهو يسلم على أهله ويقول لهم : أبشروا بالنصر ، « فسلم عليه الناس وأقبلوا عليه وعظموه ، وجعل يدعو الى امامة المهدى محمد ابن الحنفية ، ويظهر الانتصار لأهل البيت ، وأنه ما جاء الا بصدد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٣ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

أن يقيم شعارهم ، ويظهر منارهم ، ويستوفى ثأرهم »[1] . وتحدث المسعودى [2] عن جهود المختار فى الدعاية ، فقال انه « جعل يظهر البكاءعلى الطالبيين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث على أخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة اليه ، وانضافوا الى جملته » .

ولما بدأ المختار يستعد للقضاء على قتلة الحسين ، رأيناه يستأجر النوائح ويأمرهن بالطواف بطرقات الكوفة ينوحن ويولولن ويرثين الحسين بعبارات تهز مشاعر الكوفيين وتحثهم على الالتفاف حوله فى طلب قتلة الحسين . وقد رأينا المختار يستغل اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبنى هاشم استغلالا واسع النطاق فى الدعاية للمختار باعتباره نصيرا لابن الحنفية والهاشميين وشيعتهم ، وفى صرف الناس عن الحركة الزبيرية فى العراق [3] .

ثالثا ـ سوء اختيار ابن الزبير لولاته بالعراق :

كان ابن الزبير فى حاجة ماسة الى تأييد العراق ، وكان يعلم تماما أن العراق صار مسرحا لحركات سياسية شتى ، فهناك التوابون وحزب المختار وفرق الخوارج وأنصار بنى أمية ، الى جانب انقسام أهل العراق الى طبقتين اجتماعيتين متميزتين

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ .
(2) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(3) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٥ .

متنازعتين ، وهما العرب والموالى الفرس . فكان من الضرورى لنجاح دعوة ابن الزبير أن يتعهدها رجل قوى يستطيع أن يضرب هذه الأحزاب والفرق بعضها ببعض ، ويدير دفة الأمور فى مهارة ودهاء ، حتى يحقق نجاح هذه الدعوة .

ولكن ابن الزبير أخفق فى اختيار ند للمختار ، وأساء دائما الاختيار . فقد اختار عبد الله بن يزيد ، وكان رجلا ساذجا متواكلا لا يعرف الحزم والدهاء ، وقد رأينا موقفه المضطرب من حركة التوابين . ثم اختار ابراهيم بن محمد بن طلحة وهو رجل يكره الشيعة ويكرهونه ، فهو لم ينس بعد أحقاده القديمة ، فكرهت الشيعة ابن الزبير فى شخص عامله ، واندفعوا نحو لواء المختار . ويقص ابن الأثير[1] قصة تبين سذاجة عبد الله بن يزيد وابراهيم ، فقد تقدم اليهما أشراف العرب فى الكوفة مثل عمر ابن سعد بن أبى وقاص وشبث بن ربعى ، فقالوا لهما : ان المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد ، انما خرج سليمان يقتل عدوكم، وان المختار يريد أن يثب عليكم فى مصركم ، فأوثقوه واسجنوه حتى يستقيم أمر الناس ، فأتوه وأخذوه بغتة ورفض ابن يزيد هذا الاقتراح وقال : ما كنت لأفعل هذا برجل لم يظهر علينا غدره ، انما أخذناه على الظن ! .

وأخطأ ابن يزيد وابراهيم فى استجابة شفاعة ابن عمر فى المختار ، فأطلقا سراحه ، فخرج يسخر منهما ومن سذاجتهما .

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٨٩ .

وشعر ابن الزبير أخيرا بعدم صلاحية عامليه فعزلهما ، ولكنه لم يختر بدلهما ذلك الرجل القوى الحكيم الذى كانت دعوته فى حاجة اليها ، بل اختار عبد الله بن مطيع وهو رجل بدوى غير خبير بالسياسة وأساليب الحكم ، كما كان صديقا حميما للمختار، فسار فى أهل الكوفة سيرة أثارت كراهيتهم له ولخليفته ابن الزبير، على حين « أقبل المختار يمنى الناس ويستجدى مودة الأشراف ويحسن السيرة »[1] . ونجح المختار فى عزل ابن مطيع ورشاه بالمال فاستكان بالبصرة ، واختار ابن الزبير خلفا لابن مطيع أضعف من سلفه ، وهو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث الذى استطاع ابن الزبير أن يرشوه أيضا . وأدرك ابن الزبير أخيرا — ضعف هؤلاء الولاة ، فبعث أخاه مصعب بن الزبير واليا ، وان كان ابن الزبير قد أحسن الاختيار ، الا أن ذلك جاء متأخرا .

رابعا : تمجيد ابن الزبير لعثمان ، وتمجيد المختار لعلى وأولاده :

اتبع عثمان بن عفان سياسة أغضبت الأمصار الاسلامية جميعها عامة ، وبلاد العراق حيث شيعة على خاصة . ولكن ابن الزبير استمر الى آخر لحظة فى حياته يمجد ذكراه ويعظم من شأنه ، غير عابىء بشعور أهل الأمصار ولا سيما أهل العراق الذين يبغضون عثمان . ولا شك فى أن ابن الزبير قد أخطأ فى تمسكه بتمجيد عثمان برغم مرور سنوات كثيرة على وفاته ، فقد كان عثمان قبل أن يكون خليفة زعيما لبنى أمية الذين ينازعهم ابن الزبير فى تلك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

الأموية ، والذين اتخذوا من طلب ثأر عثمان وسيلة لتأسيس الدولة الأمـوية .

وكانت بلاد العراق أكثر الأمصار الاسلامية مقتا لعثمان ، فقد كان معظم العراقيين من شيعة على بن أبى طالب ، الذين لم ينسوا أن عثمان انتزع الخلافة بغير حق من علىّ ، وأن آل بيته من بنى أمية قتلوا الحسين . ولمـا كان ابن الزبير فى حاجة الى تأييـد العراق ، لم يكن هنالك ما يدعوه الى أن يطلب من عامله عبد الله ابن مطيع أن يجمع الفىء على سيرة عثمان بن عفان دون سيرة على ابن أبى طالب الذى كانوا يتشيعون له .

وشتان بين موقف ابن الزبير وولاته بالعراق ، وموقف المختار الذى أعلن ولاءه لعلى بن أبى طالب وأولاده . فقد جعل داره تحت تصرف مسلم بن عقيل وأنصاره من الشـيعة ، يتلقى فيها بيعتهم . وأعلن المختار أنه أمين ابن الحنفية ووزيره ، وكان لايقطع صلاته وهداياه عنه وعن بنى هاشم ، وتتبع قتلة الحسين بن على فى الكوفة ، فقتلهم وهدم دورهم وأشفى غليل بنى هاشم والشيعة، وقضى على ابن زياد قاتل الحسين ، وساند ابن الحنفية والهاشميين حينما اضطهدهم ابن الزبير وأراد قتلهم فبعث جيشا من العراق لنجدتهم ، فكف ابن الزبير عن ايذائهم .

خامسا ـ ابن الزبير لايطلب ثأر الحسين ، والمختـار يقضى على قتلة الحسين :

كان ابن الزبير فى حاجة الى تأييد العراق ، وكانت بلاد العراق كما وصفها على بن أبى طالب موطن المال والرجال ، وكان معظم

أهالى العراق من شيعة على كما نعلم ، وقد آلمهم اقدام والى الأمويين ابن زياد على قتل الحسين ، وباتوا يترقبون للأخذ بثأره ، وانضم العراقيون الى كل ثائر أو خارج على طاعة الأمويين.

كان ابن الزبير — ولا شك — عالما بهذه الظروف ، فكان عليه أن يبدى لأهل العراق رغبته فى تحقيق رغبتهم فى الأخذ بثأر الحسين من قتلة الحسين الذين كانوا لا يزالون يقيمون فى الكوفة والبصرة فى حرية تامة . ونسى ابن الزبير أن من صالحه اثارة مشاعر أهل العراق ضد الأمويين ليهبوا لقتال ابن زياد الذى قدم الى العراق على رأس جيش أموى لانتزاع العراق من ولاة ابن الزبير ، وكان ابن زياد يمثل عدوا مشتركا لكل من ابن الزبير وأهل العراق ، من صالحهم جميعا الاتحاد لمواجهته . كما أن انشغال ابن زياد بقتال العراقيين يشغله عن الانضمام الى الجيش الأموى الآخر الذى بعثه مروان بن الحكم الى المدينة لقتال ابن الزبير .

ولكن ابن الزبير لم يحرك ساكنا ، ولم يؤيد المطالبين بثأر الحسين ، بل وقف منهم موقفا سلبيا ، فقد امتنع عن مساعدة التوابين ماديا ، فلم يمدهم بما كان ينقصهم من مال وسلاح ومؤن ، فحرم الحركة الزبيرية من الاستفادة من هؤلاء التوابين المتحمسين لقتال الأمويين أخذا بثأر الحسين .

رأت شيعة العراق أن وقوف ابن الزبير فى وجه المختار الذى يطالب بثأر الحسين ، يعتبر موقفا عدائيا بالنسبة لهم ، وخاصة أن أهل الكوفة لم ينسوا يوم خطب ابن الزبير فى أهل الحجاز على

أثر مقتل الحسين بن على وأخذ يسوق السباب وأقذع الشتائم لهم واتهمهم بخذلانهم الحسين[1] .

وأين هذا الموقف الذى وقفه ابن الزبير من ثأر الحسين مما وقفه المختار ؟ لقد أعلن المختار منذ أول وهلة أنه ينوى القضاء على قتلة الحسين . وكان يأمر بعض أنصاره بتمثيل مأساة كربلاء ليعبر عن مشاعر الشيعة . ثم بدأت المرحلة الحاسمة فتتبع المختار قتلة الحسين فى الكوفة بالقتل ، ثم قضى على ابن زياد المسئول الأول عن قتل الحسين . وكان شعار المختار دائما أبدا : « يالثارات الحسين » ، يصيح به جنده فى كل زمان ومكان . ولم يشعر ابن الحنفية وسائر بنى هاشم بالفرح والسرور الا يوم قتل المختار ابن زياد ، فقد خر ابن الحنفية ساجدا شاكرا الله عزّ وجل ، ولسانه يلهج بالدعاء والثناء على المختار الذى شفى غليلهم .

سادسا ـ اضطهاد ابن الزبير لابن الحنفية وبنى هاشم واكرام المختار لهم :

شهد التاريخ تنافس بنى هاشم وبنى أمية على الخلافة ، فقد كانت النبوة فى بنى هاشم فزادت من قدرهم ، فحقد عليهم بنو أمية وجاهدوا فى انتزاع الخلافة من أيديهم . وتجلى هذا واضحا فى نجاحهم فى دفع عثمان بن عفان الى عرش الخلافة ، ثم توجوا هذا النجاح حينما وضع معاوية بن أبى سفيان أسس الدولة الأموية ، فوقف بنو هاشم من الحكم الأموى موقف المعارضة . فكان على

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

ابن الزبير أن يحالف بنى هاشم أو يهادنهم على الأقل ، فقد كان المسلمون يحترمونهم الى درجة التقديس ، فهم آل بيت الرسول عليه السلام ، فكان لهم فى كل مصر من الأمصار آلافا من الأنصار . ولكن ابن الزبير وقف منهم موقفا عدائيا ، واضطهدهم ونكل بهم ، فجلب بذلك عليه سخط المسلمين جميعا . فلم ير ابن الزبير حرجا فى حبس الحسن بن محمد بن الحنفية بل وحاول قتله ، لولا أن ساعدته الأقدار على الهرب . وحصر ابن الحنفية وبعض الهاشميين وأراد قتلهم حرقا ، مما أغضب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وكان فى حاجة الى تأييدهم . وفى ذلك يقول أبو حره وكان مولى من موالى الزبير[1] :

فيا راكباً اما عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ كبيرَ بَنِي العوّام إن قِيلَ من تَعْنى
تخبِّرٌ من لاقيت أَنَّكَ عائذ وتكثر قتلا بين زَمزم والركن

أما المختار ، فقد أدرك أنه فى العراق حيث شيعة علىّ ، واتخذ من بنى هاشم وابن الحنفية عمدا لحركته السياسية ووسيلة لتحقيق أطماعه ، لا سيما أنه كان يعرف موقف ابن الزبير العدائى من بنى هاشم ، فقد أنزل بهم الاضطهاد . وسعى المختار لنيل تأييد على بن الحسين ، فكتب اليه يعرض عليه أخذ البيعة له ، ولكن عليّا آثر السلام والهدوء ، فتحول المختار الى عمّه ابن الحنفية ، فبدأ يدعو أهل العراق باسمه ، باعتباره وزيره فى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٢ .

العراق . واستشار ابن الحنفية عبد الله بن عباس فيما ذهب اليه المختار من أنه وزيره وأمينه ، فنصحه ابن عبـاس بأن يوافق المختار فى كل ما ذهب اليه المختار نكاية فى ابن الزبير « فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار ، واشتد أمر المختار بالكوفة ، ومال الناس اليه »[1] .

وقد استفاد المختار من حبس ابن الزبير لابن الحنفية ومحاولة قتله حرقا ، فقد استطاع أن يثير سخط المسلمين عامة وشـيعة العراق خاصة ، وتضاعف عدد أنصار المختار ، فقد بدا للمسلمين أن ابن الزبير قد شرع فى مأساة أخرى مثل كربلاء . وكتب ابن الحنفية الى المختار يسأله النجدة ، واستغل المختار كتاب ابن الحنفية فى ايغار الصدور على ابن الزبير ، والظهور أمام الناس بمظهر النصير لآل علىّ .

سابعا ـ مكر المختار بابن الزبير :

كان المختار أكثر دهاء وذكاء من ابن الزبير ، فانه على الرغم من موقف المختار العدائى من ابن الزبير وعزله عامله عبد الله بن مطيع ، أراد أن يمكر به متظاهرا بالتوبة وطلب مودته . وفى ذلك روى ابن الأثير[2] : « فلما استجمع المختار أهل الكوفة أخـذ يخادع ابن الزبير فكتب اليه : قد عرفت مناصحتى اياك وجهدى على أهل عدوتك ، وما كنت أعطيتنى اذا أنا فعلت ذلك ، فلما

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(٢) الكامل ج ٤ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

وفيت لك لم تف بما عاهدتنى عليه ، فان ترد مراجعتى ومناصحتى فعلت والسلام . ثم ان عبد الملك بن مروان بعث عبد الملك بن الحرث الى وادى القرى ، وكان المختار قد وادع ابن الزبير ليكف عنه ليتفرغ لأهل الشام ، فكتب المختار الى ابن الزبير : فقد بلغنى أن ابن مروان قد بعث اليك جيشا ، فان أحببت أمددتك بمدد . فدعا المختار شرحبيل بن ورس الهمذانى فسيره فى ثلاثة آلاف أكثرهم من الموالى ، وليس منهم من العرب الا سبعمائة رجل ، وهو يريد اذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرا ، ثم يأمر ابن ورس بمحاصرة ابن الزبير بمكة » . ولكن شاءت الأقدار أن يدرك ابن الزبير مكيدة المختار فأحبطها .

ثامنا ــ اعتماد ابن الزبير على العرب واعتماد المختار على العرب والموالى:

كان فى العراق طبقتان اجتماعيتان متميزتان : الأولى طبقة العرب الأشراف أصحاب الاقطاعات الواسعة ، والثانية طبقة الموالى ، وهم المسلمون من غير العرب ، وكان الموالى دائما فى منزلة سياسية واجتماعية أدنى من العرب ولاقوا كثيرا من العنت والاحتقار من العرب على ما بيّنا .

وقد وقف ابن الزبير من الموالى دائما موقفا عدائيا ، وراح ينصر العرب الأشراف ، واعتمد فى حركته على العنصر العربى دون الموالى الذين كان يحتقرهم ويستصغر شأنهم ، مما أدى الى فقده تأييد الموالى الذين يمثلون غالبية سكان العراق . وفى الوقت نفسه كان العنصر العربى يفتقد الكثير من المقومات التى تجعله

عنصرا فعالا فى ميادين السياسة فى ذلك الحين ، اذ عادت روح العصبية القبلية الى الظهور ، ونرى هذه العصبية على صورتها الكاملة فى نزاع بنى هاشم وبنى أمية الذى انتهى بانتصار معاوية ابن أبى سفيان وقيام الدولة الأموية ، فبدأت صفحة جديدة من كفاح الهاشميين للأمويين . بل ان الدولة الأموية نفسها قد نال منها روح العصبية القبلية ، وخير مظهر لها موقعة مرج راهط التى دارت رحاها بين قيس وكلب . ولم يكن فى انتصار مروان ابن الحكم اسدال الستار على روح التعصب بين هذين الفريقين الكبيرين المتعاديين ، فقد رأيناها فى موقعة خازر سنة ٦٧ هـ فى عهد عبد الملك بن مروان .

لم يستفد ابن الزبير طوال تاريخه شيئا من اعتماده على العنصر العربى فى العراق ، فقد وقفت معاونتهم الى حد الخطب الحماسية، حتى اذا جاء دور القتال والنضال أسرعوا الى التخاذل والتحرر من وعودهم . وقد مر بنا مقدار تمسكهم بوعودهم للحسين بن على . وكان العرب الأشراف يتقلبون بين تيارات السياسة فى كل يوم ، فهم تارة على أو مع الأمويين أو الزبيريين أو المختار ، وانما يسعون وراء الدرهم والدينار .

أما المختار فقد أدرك أن الموالى يمثلون غالبية سكان العراق، فجعلهم عدته ، ولكنه لم ينس أن يتقرب الى العرب الأشراف[١] . ورأى الموالى أن يستعينوا بالمختار ليحققوا آمالهم بارجاع

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .

السيادة القومية ، والقضاء على الدولة الأموية التى تعصبت للعرب والعروبة . فانضم عشرون ألفا منهم الى جيش المختار ، وكانوا يسمون الجند الحمر وكلهم من أبناء الفرس . وعرف المختار لهم جميلهم فأشركهم مع العرب فى العطاء . ووعـدهم بأن يعطيهم « أموال ساداتهم » [1] .

كان المختار على حق فى عدم اعتمـاده كلية على العـرب الأشراف ، فقد انتهزوا فرصة خروج جيش ابراهيم بن الأشتر الى الموصل لقتال جيش الشام الذى قدم بقيـادة عبيد الله بن زياد ليطعنوا المختار من الخلف وهو أعزل من سلاح أنصاره وجنده ، فأعلنوا العصيان والثورة ، ولولا أن خدعهم المختار ، وأسرع ابن الأشتر بالعودة الى الكوفة ، لقضى هؤلاء الأشراف على المختار تمـاما [2] .

ويرى المؤرخ (فلهوزن)[3] للمختار العذر فى عدم اعتماده على العرب الأشراف فى الكوفة فيقول : كان التشيع فى الكوفة آنذاك قد لبس ثوبا جديدا ، وقد عرفنا من قبل المعنى الذى كان يدل عليه فى الأصل . لقد كان تعبيرا عن الاتجاه السياسى العام لمعارضة العراق لسلطان الشام . وفى بادىء الأمر كان الأشراف صفا واحدا مع سائر الناس ويتولون قيادتهم . ولكن حينما أحدق

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٧ .

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٣٨ .

الخطر تراجعوا واستلانوا لاغراء الحكومة الأموية فى الشام ، ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية .

وبهذا انفصل الأشراف العرب عن الشيعة ، فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية فى تعارض مع الأرستقراطية ، ونظام العشائر ، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالى خيالى . وكان أنصار سليمان بن صرد يرمون الى الثورة على أرستقراطية العشائر فى الكوفة . ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا .

موقف المختار من الخوارج

نبذة عن الخوارج ـ موقف موالى العراق من الخوارج ـ المختار مع الخوارج فى أثناء حصار مكة ـ هل كان المختار موافقا الخوارج على آرائهم خلال حصار مكة؟ ـ العراق بين المختار والخوارج ـ استفادة المختار من حركة الخوارج بالعراق .

الفصل التاسع

موقف المختار من الخوارج

نبذة عن الخوارج :

كان التحكيم فى موقعة صفين التى دارت رحاها بين جيش على بن أبى طالب ، وجيش معاوية بن أبى سفيان ، هى نقطة انطلاق حزب الخوارج . فقد قبل علىّ التحكيم ، ولكن ظهر من بين جند علىّ جماعة تنكر أن يحكم أحد فى كتاب الله ، ورأوا أن قبول علىّ التحكيم يعتبر منه كفرا وضلالا ، لأن التحكيم يتضمن شك كل من الفريقين المتحاربين فى أيهما المحق ، ولا محل لهذا الشك ، فقد حاربوا وهم مقتنعون بأن الحق فى جانبهم ، ولذا رأوا أن يتابعوا القتال حتى ينزل الله حكمه ، فيحقق النصر لأحد الفريقين على الآخر .

وكان الغرض الظاهر من اجتماع الحكمين تحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف ، ولكن أهل العراق كانوا يرون أن الاجتماع ليس الا مسألة شكلية ، فهم يعتقدون أن فوز على بن أبى طالب محقق ، حيث انه لا يوجد من يفضله فى تولية الخلافة .

أما أهل الشام فكانوا يعتقدون أنهم يحاربون طلبا لثأر عثمان ، لا فى سبيل جعل معاوية خليفة ، فقد أخبرهم معاوية أن قتلة عثمان فى جيش علىّ ، وأن عليّا يأبى عقابهم[1] .

خرج الخوارج من الكوفة الى بلدة قريبة يقال لها حروراء ، حتى يكونوا بعيدين عن رقابة علىّ . وهناك تزعمهم عبد الله بن وهب الراسبى وبايعوه بالخلافة[2] ، وشبهوا هجرتهم من الكوفة الى حروراء بهجرة الرسول من مكة الى المدينة . واتفقوا على قتال على فى مدينة النهروان .

وعلى الرغم من انتصار علىّ فى النهروان ، فان هذه الموقعة لم تكن خاتمة النضال مع الخوارج ، كما لم تستأصل شأفة الفرقة، فقد أصيبت الحية ولكنها لم تقتل ، بل أدت النهروان الى اثارة روح التعصب الدينى فى البصرة والكوفة ، ولكن فى صورة سرية[3] . كما أن هزيمة الخوارج أدت الى تركيز المذهب الخارجى واقامته على قواعد ثابتة . ونظر الخوارج الى قتلى النهروان نظرة الشهداء ، وباتوا يتحينون الفرصة للأخذ بثأرهم ، وفتحت هزيمة النهروان بابا جديدا لعداء الشيعة والخوارج ، وكانت النهروان بالنسبة للخوارج مثل كربلاء بالنسبة للشيعة[4]. ثم كانت نهاية حياة علىّ بن أبى طالب على يد أحد الخوارج .

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٦٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) Muir : The Caliphate, P. 286

(٤) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 208

بين مبادئ المختار ومبادئ الخوارج :

كانت مبادىء المختار هي مبادىء الشيعة ، وكانت غاية الشيعة في أول ظهورهم لا تعدو المطالبة بحق عليّ في الخلافة بعد الرسول . ولما تولى عليّ الخلافة اعتبروه الوصي والامام ، وقالوا : « ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الامام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، هي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام اغفاله واهماله ولا تفويضه الى العامة وارساله ، ويجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص ، ويثوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر »[1] . ولذا رأوا أن عليّا رضي الله عنه هو الذي عينه رسول الله بعده .

وتطور حزب الشيعة بعد حرب صفين ومقتل عليّ بن أبي طالب تطورا واضحا ، فاقتصر نفوذ الحزب على بلاد العراق ، فكان بالحجاز أولاد الصحابة ، وفي مقدمتهم عبد الله بن الزبير ، وكانوا لا يقرون الشيعة على مبادئهم . وصبغت مبادىء الشيعة السياسية بصبغة دينية ، لأن الرسول كان حاكما دينيا ودنيويا . وبعد مقتل عليّ تكون حزب ديموقراطي يتألف بصفة خاصة من العناصر العربية وانضم اليه عدد كبير من الموالي . وهو الحزب الذي استطاع المختار أن يقتطع جانبا كبيرا منه ويجعل منه حزبا خاصا به ، يحتفظ بمبادىء الشيعة ، ولكن يدين له بالولاء .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

رأى المختار وأنصاره من الشيعة أن تولية معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد غير صحيحة ، ورأوا أن الحسن بن على ثم أخاه الحسين هما الخليفتان الشرعيان لعلىّ ، باعتبار أنهما ورثا مرتبة علىّ فى رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها ، وفى العلوم والصفات الروحية التى اختص بها ، وكل امام منهما وصى لسلفه الذى عينه باقراره الصحيح . ويعد المختار والشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا ، وعلى هذا تكون خلافة معاوية وابنه باطلة ، بل أمرا مخالفا للدين ، مما يوجب مناهضة الخلافة الأموية حتى يعود الحق لأصحابه الأصليين .

وضع المختار هذه المبادىء موضع التنفيذ ، فأعلن تأييده للحسين بن على ، ووضع داره كما بينا تحت تصرف رسوله وابن عمه مسلم بن عقيل ، وجمع الشيعة حوله ، ثم أعلن بعد مصرع الحسين أنه وزير محمد بن الحنفية ونائبه بالعراق .

أما الخوارج ، فقد نادوا بمبادىء سياسية دينية تخالف تماما ما نادى به المختار وأنصاره من الشيعة . وأبرز هـذه المبادىء رأيهم فى التحكيم ، فقالوا : أخطأ علىّ فى التحكيم ، اذ حكم الرجال ولا حكم الا لله . وتخطوا عن التخطئة الى التكفير[1] . وكان هؤلاء الخوارج « يخرجون بسيوفهم فى الأسواق فيجتمع الناس على غفلة فينادون لا حكم الا لله ، ويضعون سيوفهم فيمن يلحقون بالناس ، فلا يزالون يقتلون حتى يقتلوا ، وكان الواحد

---

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٥ .

منهم اذا خرج لا يرجع أو يقتل ، فكان الناس منهم على وجل وفتنة »[1] . وهم لا يكفرون عليا فحسب ، بل كذلك يكفرون عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة زوجة الرسول ، والحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى، بينما يعظمون أبا بكر وعمر بن الخطاب .

ومن أهم مبادئهم التى تتعارض تماما مع آراء المختار والشيعة ، رأيهم فى الخلافة . فيرى الخوارج صحة خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب بصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافة عثمان فى سنينه الأولى ، كما أقروا بصحة خلافة على بن أبى طالب ، ولكنهم قالوا انه أخطأ فى التحكيم وحكموا عليه بالكفر . بينما يرى المختار والشيعة أن عليّا صاحب الحق الشرعي فى الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة ، ولذا فهم لا يعترفون بأحقية أبى بكر وعمر وعثمان فى تولى الخلافة بعد الرسول ، وهم يعظمون عليّا ويحيطونه بهالة من التقديس ، ويعتبرون الخوارج من جنده خارجين على طاعة علىّ ويحق له قتالهم .

ووضع الخوارج أسسا لاختيار الخليفة ، تخالف دائما نظرية المختار والشيعة فى الخلافة . فيرى الخوارج أنه من الجائز اختيار الخليفة من غير قريش ، واذا حاد الخليفة عن الحق جاز عزله أو قتله ، ومن حق كل مسلم تتوافر فيه الكفاية والعدل أن يتولى الخلافة ، عربيا أو غير عربى ، حرا أو مولى أو عبدا[2] . أما

---

(١) الملطى : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، ص ٤٧ .
(٢) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٤٦ .

المختار والشيعة فيجعلون الخلافة مقصورة على بيت علىّ بن أبى طالب دون غيرهم من المسلمين ، تنتقل من علوى الى آخر بالوراثة ، باعتبارهم جميعا نسل علىّ وصىّ النبى ، ويطلقون على الخلافة اسم « الامامة » ، فيسبغون عليها صفة دينية روحية . ولذا ترى الشيعة أنه لا يجوز عزل الخليفة أو الثورة عليه .

وتتجلى النزعة القبلية فى مبادىء الخوارج السياسية ، فقد ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزى ، ونرى فيها معالم السخط على قريش ، والتذمر من استئثارها بالخلافة ، فتربصوا الفرص لعلىّ ، ووجدوها بعد قبوله التحكيم ومحوه لقب امرة المؤمنين من صحيفة التحكيم ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش، ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الاسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا الى أن « عبدا حبشيا » لا يقل أهلية للخلافة واستعدادا عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا . فهم لم يعودوا ينظرون الى قريش نظرة تقديس ، فرغبوا فى رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته . واعتبروا حديث الرسول « الامامة فى قريش » حديثا موضوعا لا يعتد به .

وهكذا خالف الخوارج المذهب الشيعى الذى يجعل الخلافة فى بيت الرسول ، والمذهب السنى الذى يدعو الى أن تكون الخلافة فى قريش . ويرى الخوارج أن الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها ، واذا غير سيرته وحاد عن الحق ، وجب عزله أو قتله . بل يغالون فيرون أنه اذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الأسس التى وضعوها لاختيار الخليفة فلا مانع من

الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة [1] ، لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم الى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففى ذلك ما يكفى لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الانصاف. أما المختار والشيعة فيعتبرون الخلافة « قضية أصولية » و « ركن الدين » ، وأنه لابد من « التعيين والتخصيص » فى نظام الخلافة. واعتقد بعض الشيعة من أنصار المختار بالرجعة ، فيعتقدون أن على بن أبى طالب قد صعد الى السماء وأنه سينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه[2] ، ودفعهم هذا الاعتقاد الى التحمس لعلىّ وأبنائه ، فكانوا يقبلون على الموت معتقدين اعتقادا راسخا بأنهم سيعودون الى الحياة بعد قليل[3] .

وكان الخوارج يعتبرون أنفسهم أنهم الفئة المسلمة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين يجب عليهم جهادهم وردهم الى حظيرة الدين . ووضعوا برنامجهم على أساس العودة الى مبادىء الاسلام الأولى ، التى تحض على المساواة والاخاء ، والتى انعدم وجودها وقت ظهور الخوارج ، ولا غرو فقد انضم اليهم المسلمون الأتقياء رغبة فى الاصلاح ، وراعوا نصوص القرآن ودعوا الى التمسك بالوحدة الاجتماعية والاخاء الاسلامى اللذين تميزت بهما الجماعة الاسلامية الأولى . ولذا يخضع

---

(١) نشوان الحميرى : الحور العين ص ١٥٠ .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٣) كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٧٥ .

الخوارج المجتمع الاسلامى لقوانين أخلاقية صارمة يشرف على تنفيذها هيئة من الفقهاء ، فاعتبروا من يقترف الكبيرة مرتدا وبالتالى كافرا ، ولذا يبيحون دمه وممتلكاته وينبذونه خارج الجماعة الاسلامية . وهذه المبادىء خطيرة فى الواقع ، فقد طبقوها على جميع المخالفين لهم ، سواء من الشيعة أنصار المختار ، أو الأمويين ، أو غيرهم ، فقد اعتبروهم جميعا كفارا دمهم حلال لهم . ولكن كان للخوارج الأولين مبادىء أخرى يبدو فيها الطابع الانسانى ، فقد حضوا على حسن معاملة أهل الذمة ، كما نادوا بالمساواة بين العرب والموالى ، فى الحقوق والامتيازات ، وخاصة فى الخلافة .

وقد اتفق الخوارج مع الشيعة أنصار المختار فى أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون ، ولذا اشتركوا جميعا فى مناهضتهم ، لكن الخوارج غلب عليهم الطابع البدوى فى الصراحة ؛ فصاروا لا يعترفون بما نادت به الشيعة من تقية وكتمان ، أو ما أبدته من تردد ، أو ميل الى الكفاح السلبى دون الجهاد الايجابى ، ومن ثمّ ناضل الخوارج الأمويين جهارا .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الشيعة أكثر خطرا على الدولة الأموية ، لأن حركة المقاومة التى تقودها سرية ، كما أنهم يدعون الى هدم الخلافة الأموية ليقيموا مكانها خلافة علوية فى العراق ، كما يعتمد زعماء الشيعة على انحدارهم من سلالة الرسول وعلى ابن أبى طالب . وكان صراع الشيعة للدولة الأموية هو استمرار للصراع القديم بين فرعى قريش الكبيرين ، البيت الهاشمى والبيت

الأموى ، ذلك الصراع القديم الذى بدأ فى الجاهلية واستمر فى العصر الاسلامى ، وأصبح الخوارج طرفا ثالثا فى الصراع .

وأدى الخلاف بين الخوارج والشيعة الى ظهور حزب (المرجئة) اذ اشتد الجدل والنزاع بين الشيعة والخوارج ، والخوارج يكفرون عليّا وعثمان والحكمين ، والشيعة تكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين ، والأمويون يرونهم جميعا خارجين عن الطاعة . وكانت المرجئة ترى أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، وبعضهم مخطىء والبعض على الحق ولكن من الصعب تبيان ذلك ، ولذا يرجئون أمورهم الى يوم القيامة[1]. وتتفق المرجئة مع الشيعة فى رأيهم فى الامام فيحتمون أن يكون من قريش . على أن هناك أمورا تختلف فيها هاتان الفرقتان ، فآراء المرجئة التى تدل على التسامح والتساهل تتعارض مع رغبة الشيعة فى قيام دولة ذات حكم الهى مؤسس على الشريعة الالهية ومحكومة بآل الرسول . كما أن المرجئة كانوا يعترفون بشرعية حكومة الأمويين بينما يعمل الشيعة على مناهضة هذه الحكومة .

موقف موالى العراق من الخوارج :

اختلف المؤرخون حول انضمام الموالى فى العراق — وقد أصبح معظمهم من أنصار المختار — الى صفوف الخوارج . فيرى بعضهم أن الخوارج الأوائل كانوا جميعا من العرب الخلص ،

---

(١) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ١٦٦ .

بينما يرى البعض الآخر أن الموالى انضموا الى صفوفهم . ويؤيد أحد المؤرخين العرب[1] الرأى الأول ، فيذكر أن الخوارج كانوا عربا من قبائل تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم فى الجاهلية شأن كبير بين العرب ، وأنهم اعتنقوا الاسلام لاعجابهم بمبادئه الديموقراطية ، فأبلوا فى الفتوح بلاء عظيما ، وطمعوا فى مجد جديد يضيفونه الى مجدهم التليد ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، واستأثرت أرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة ولكن فى صورة اسلامية ، وبدا هذا فى موقفهم من التحكيم .

ويؤيد أحد الكتاب[2] الرأى القائل بعروبة الخوارج فيذكر أن معظمهم من بنى تميم ، الذين اشتركوا فى الحروب الفارسية واستقروا فى البصرة والكوفة ، وقد جمعوا بين الفضائل والمساوىء التى يتصف بها البدو ، ولا سيما فيما يتعلق منها بالعصبية القبلية ، والنظر الى نظم الحكومة الحديثة نظرة جفاء وعدم مبالاة ، مفضلين عليها أنظمتهم البدوية القاسية .

ومن ناحية أخرى يجمع المستشرقون على مثل هذا الرأى ، أى أن الخوارج بدو من تميم لم تستطع الحياة المدنية أن تؤثر فى أخلاقهم وطباعهم الخشنة . بل ليس بينهم أحد من قراء القرآن. وهم مدفوعون بأمل الحصول على الثراء والغنائم أكثر من اندفاعهم وراء العقيدة والايمان[3] .

---

(١) العبادى : صور من التاريخ الاسلامى ص ١٧٦ .

(٢) عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام ص ١٤ .

(٣) راجع كتب : Khuda Buksh, P. 159. Lammens, P. 156. Nicholson, P. 208

هذا ويؤخذ مما كتبه بعض المؤرخين القدامى عن الخوارج ، أن الموالى انضموا الى صفوفهم ، فيرى ابن الصباغ [1] أن عليّا بعد هزيمته للخوارج فى موقعة النهروان ، طلب ممن انضم اليه منهم قبل المعركة أن يستعدوا لقتال معاوية ، « وكتب علىّ الى رئيس كل قبيلة من القبائل يستنفره بما فى عشيرته من المقاتلة وأبنائهم الذين أدركوا ، وعبدانهم ومواليهم » . أما ابن الأثير[2] فيتحدث عن وجود كثير من الموالى فى جيش الخوارج . وما دام جيش علىّ ، قبل انقسام الخوارج ، كان يضم جانبا كبيرا من الموالى ، وخاصة موالى الكوفة ، فمن الطبيعى أن ينضم عدد منهم الى العرب الذين خرجوا عن طاعة علىّ ، وكوّن هؤلاء وهؤلاء حزب الخوارج الجديد . وخاصة أن هناك من الموالى من كان يحقد على العرب لأنهم أضاعوا استقلالهم ومجدهم القديم ، كما رام بعض من دخل الاسلام التخلص من الجزية .

وثمة فريق من المؤرخين الأفرنج يؤيد هذا ، فديمومبين [3] مثلا يرى أنه انضم الى الخوارج عدد كبير من الموالى ، وخاصة حينما نادى الخوارج بأنه لا توجـد ضرورة تحتم أن يكون الخليفة من قريش . ويذكر (سـايكس) [4] أن الخوارج كانوا

---

(١) الفصول المهمة ص ٨٩ .

(٢) الكامل ج ٣ ص ١٥٩ .

(٣) النظم الاسلامية ص ٤٨ .

(٤) Hist. of Persia, V. I, P. 534

عناصر مختلفة من عدة أجناس ، وهم الذين اشتركوا فى هـذه الحروب الأهلية .

وفى رأينا أن أقلية من موالى العراق ، وخاصة من موالى الكوفة ، قد انضموا الى الخوارج ولكن الغالبية العظمى من الموالى قد اعتنقت مذهب الشيعة ، وهم الذين أسرعوا الى تأييد المختار الذى أحيا مبادىء الشيعة وبدأ دورا جديدا من الجهاد الشيعى . ونرى أن الموالى الذين انضموا الى الخوارج كانوا من موالى الأطراف الشرقية للدولة الاسلامية ، الى جانب بعض القبائل العربية البدوية التى لم تنس طباعها القديمة التى تقوم على حب الغزو والحرب .

المختار مع الخوارج فى أثناء حصار مكة :

ظهر المختار على مسرح السياسة فى الوقت الذى كان الحسين ابن على يفكر فيه فى القدوم الى الكوفة ليجمع شيعته حوله حتى يقضى على الخلافة الأموية بالشام ، ويقيم خلافة علوية فى العراق. وأخذ المختار يتلقى بيعة الشيعة للحسين ، حتى اذا قتل مسلم بن عقيل وبدأ بطش عبيد الله بن زياد ، ألقى المختار فى سـجن ابن زياد ، ولم يطلق سراحه الا بشفاعة ابن عمر ، ونفاه خارج العراق.

واضطر المختار الى الخروج من العراق ، ولم يكن ليختـار الشام قلب الدولة الأموية ، بل قصد بلاد الحجاز ، حيث ثار عبد الله بن الزبير ، والتف حوله الحجازيون وطلبوا منه أن يبايع لنفسـه .

ورأى المختار أن ابن الزبير رجل الساعة وبطل العرب ، فرحل اليه . ولكن ابن الزبير — كما رأينا — لم يحقق أطماع المختار ، فغادره عاما كاملا الى بلدته الطائف ، ثم عاد الى مكة فوجد ابن الزبير قد بدأ يأخذ البيعة . ثم بعث الخليفة يزيد بن معاوية جيشا الى الحجاز ، لتأديب أهل الحجاز وابن الزبير ، فبدأ الجيش بأهل المدينة ، فكانت موقعة الحرة وما ارتكبه الجنود الأمويون فيها من مذابح وفظائع ، ثم تقدم الجيش الأموى ليحاصر ابن الزبير فى الكعبة ، وكان المختار الى جانب ابن الزبير ، كما قدمت لنجدته فرقة من الأزارقة ، وهم خوارج ينتسبون الى زعيمهم نافع بن الأزرق ، استقروا فى الأهواز وعانوا كثيرا من شدة عبيد الله ابن زياد .

وقد أبلى المختار بلاء حسنا خلال حصار الأمويين للكعبة ، وقاتل أشد قتال ، وكان كما وصفه المؤرخون « أشد الناس على أهل الشام » . وفى الوقت نفسه كان ابن الزبير فى محنة شديدة ، فكان يتلمس الفرج فى أية مساعدة يجدها ، ليتخلص من الجيش الأموى القادم لحصار الكعبة . ووجد هذه المساعدة فى الأزارقة الذين رأوا أن يساعدوه ويلوذوا به ، ويتكاتفوا معه على عدوهم المشترك الخليفة الأموى ، وكان مما قاله نافع : « .. وهذا من قد ثار بمكة فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فان يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وان يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك فى أميرنا »[1] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٦ .

وفى الحق ، قاتل الخوارج الى جانب ابن الزبير بحماسة واستماتة ، وكان لهم فضل كبير فى زيادة بأسه . فيتحدث المؤرخ نيكلسون [1] عنهم فيقول انهم كانوا المثل الأعلى فى التضحية فى سبيل العقيدة والاستماتة فى القتال حتى يحققوا مبادئهم ، كما لم يجاهدوا لتحقيق مطامع شخصية كما كان سائر الأحزاب الأخرى سواء أكانت شيعية أم أموية أم زبيرية .

وقد انتهى حصار مكة بانتهاء حياة يزيد ، وعاد الحصين بن نمير بجيشه الى الشام ، وسكت السيف ليتكلم اللسان ، فرأى الخوارج أن يعرفوا آراء ابن الزبير ، وهل هى توافق آراءهم ، اذ كانوا فى عجلة من أمرهم وقد داهمهم العدو الأموى ، فلم يكن ثمة مجال للنقاش والجدال ، حتى اذا بلغوا ما كانوا ينشدونه من نصر على الأمويين قال بعضهم لبعض : « ان الذى صنعتم أمس لغير رأى ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادى: يالثارات عثمان ، فائتوه واسألوه عن عثمان ، فان برىء منكم كان وليكم ، وان أبى كان عدوكم » .

وقدم الخوارج على ابن الزبير يستطلعون آراءه ، ويستكشفون أغراضه ، ودار بينهم حوار وجدال طويل . وتحدث أحد الخوارج فامتدح سياسة أبى بكر وعمر بن الخطاب فهاجم عثمان بن عفان هجوما عنيفا وعدد أخطاءه « فسارت اليه طائفة

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs, P. 211

فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه براء . فما تقول أنت يا ابن الزبير ؟ » .

وأجاب ابن الزبير على سؤال الخوارج ، فوافقهم على ما ذكروه من مدح أبى بكر وعمر ، ونفى جميع الاتهامات التى وجهوها الى عثمان ، وختم حديثه بقوله : « هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضرنى أنى ولىّ لابن عفان ، وعدو أعدائه فبرىء الله منكم » .

كان الخوارج يجوبون الأرض ، ويبذلون الأرواح فى سبيل مبادئهم ، دون السعى وراء عارض دينوى ، فلما أدركوا اختلافهم مع ابن الزبير فى مبادئه رأوا الرحيل عنه الى العراق .

كان المختار يخالف الخوارج فى آرائهم ، فقد كان قبل قدومه الى العراق داعيا الى الحسين بن على ، ولكن الخوارج لم يهتموا بسؤال المختار عن آرائه ، فقد كان حتى ذلك الحين فردا واحدا ، لم يؤلف حزبا ، ولم يكن له أنصار ، كما كان قد رضى أن يكون وزيرا لابن الزبير ، حتى تتاح له فرصة القيام بالدور الأول فى الأحداث السياسية ، ولذا اكتفى الخوارج بتوجيه أسئلتهم الى ابن الزبير .

ولكن أكان المختار موافقا الخوارج على آرائهم خلال حصار مكة ؟

لم يكن وقوف المختار الى جانب الخوارج فى الدفاع عن مكة والكعبة ، نتيجة موافقة المختار للخوارج على آرائهم . فالمؤرخ

دوزى [1] يرى أن المختار كان خارجيا ثم زبيريا ثم شيعيا ، بينما يعارض المؤرخ فلهوزن [2] هذا الرأى ، فيذكر أنه لا يحق لدوزى أن يجعل المختار معرضا للسخرية ، ويرى أن دوزى لم يفهم المختار على حقيقته . ثم ذكر أنه كان لنشر تاريخ الطبرى الفضل فى وضع حد لهذا النحو من تصوير الرجل . وأكد بعد ذلك أن المختار لم يكن خارجيا ، وأنه كان مثله مثل عبد الله بن الزبير قد حارب الى جانب الخوارج يوم حصار مكة ، واشتركوا جميعا فى قتال أهل الشام ، وهذا لا يجعل المختار خارجيا أو زبيريا .

ونرى أن اشتراك المختار فى هذه المعركة لا يدل مطلقا على اعتناقه آراء الخوارج . فقد اشترك فيها طوائف كثيرة ، مختلفة المذاهب والأجناس ، دون أن تكون خارجية المذهب ، بل اشترك فى القتال فرقة من الأحباش بعثها نجاشى الحبشة ، وقدمت جماعات عديدة من مختلف الأمصار الاسلامية لتدافع عن الكعبة . وكان قدوم المختار على ابن الزبير سابقا لقدوم الخوارج الى الحجاز بأكثر من عام ، وقبل أن يقدم الجيش الأموى الى الحجاز . وكان المسلمون الذين اشتركوا فى الدفاع عن الكعبة — على اختلاف آرائهم — يجمعهم هدف واحد ، هو الذود عن مكة والكعبة . ولم يبدأوا فى الجدال والنقاش الا بعد انتهاء حصار مكة .

وقف المختار مع ابن الزبير ومع الخوارج صفا واحد خلال

---

(١) Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, P. 223

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٣٥ .

حصار جيش الشام لمكة ، واستبسلوا جميعا فى قتال عدوهم المشترك — الأمويين — كل استبسال . والخوارج يجهلون آراء ابن الزبير ، والمختار يجهل أن ابن الزبير سيتنكر لوعوده وعهوده التى قطعها له . وكما غادر الخوارج ابن الزبير بعد انتهاء الحصار، غادر المختار ابن الزبير لنكثه وعوده . وكما شنّ الخوارج حربا شعواء على ولاة ابن الزبير بالعراق ، أعلن المختار الحرب على الزبيريين بالعراق .

العراق بين المختار والخوارج :

بدأت الخوارج ثوراتها بالعراق منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ، فما كاد يبدأ بالرحيل الى الشام بعد مغادرة الحسن بن على حتى ثارت الخوارج بزعامة فروة بن نوفل الأشجعى ودخلوا الكوفة[1] . وأعادت الخوارج هجومها على الكوفة مرة أخرى فى ولاية المغيرة بن شعبة ، بزعامة المستورد بن علفة التميمى وحيّان بن ظبيان ومعاذ بن جوين ، لكن المغيرة استطاع القضاء عليهم جميعا بأن ضرب حزب الخوارج بحزب الشيعة[2] . وثار فى البصرة على زياد بن أبيه خارجيان هما : سهيم بن غالب الهجيمى والخطيم ، ولكنه قتلهما ، ثم ثار بعدهما قريب وزحاف فجعل زياد أهل البصرة مسئولين عن كل ثورة خارجية ، فأسرعوا الى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٢٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٩ .

القضاء عليهم . وشعرت الخوارج بأن فرص الثورة فى عهد زياد قليلة فآثروا الخروج من العراق . لكن سرعان ما عادوا اليه بعد وفاة زياد وأخذوا يعيثون فسادا ، لولا أن تدارك معاوية الأمر بتولية عبيد الله بن زياد ، الذى استطاع أن يقضى على ثورات الخوارج سنة ٥٨ هـ [١] .

وفى ولاية عبيد الله بن زياد ، بدأت حركتان فى وقت واحد ، الحركة الأولى شيعية ، تدعو للحسين بن علىّ ، فقد رأى أهل الكوفة من شيعة على أن يدعى الحسين للقدوم من الحجاز الى الكوفة ، وقدم مسلم بن عقيل يختبر نوايا الكوفيين ، وبدأ نشاط المختار فى الدعوة الشيعية . أما الحركة الثانية ، فهى حركة الخوارج الأزارقة أنصار نافع بن الأزرق على ما بيّنا ، وهى أقوى فرق الخوارج على الاطلاق ، وكان أول ظهورهم فى أربعين رجلا ، وبدأ التنافس بين الحركتين حول اجتذاب أهل العراق ، وبدأ ابن زياد اهتمامه بالخوارج ، فقتل كل أنصارهم حتى بلغ عدد القتلى تسعمائة رجل [٢] . ثم تتبع الشيعة ، فقتل مسلم ابن عقيل ثم الحسين بن على ، وسجن المختار .

أخذ الخوارج يتلمسون الوسائل لمناهضة الخلافة الأموية ، فلما سمعوا بثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، خرجوا اليه . وكان المختار قد سبقهم فى الخروج الى الحجاز ، يدفعه نفس الهدف ، وهو مناهضة الدولة الأموية . ولكن اصرار ابن الزبير

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٩ .

— كما رأينا — على تمجيد عثمان والاشادة بذكره ، وتنكره لوعوده للمختار ، جعل الخوارج والمختار يفارقون ابن الزبير ، وعادوا جميعا الى العراق ، وبدأ التنافس بين الخوارج والمختار حول السيادة فى العراق ، ولكنهم اتفقوا على مناهضة الدعوة الزبيرية التى كانت قد بدأت تنتشر فى بلاد العراق فى ذلك الوقت .
عمل المختار والخوارج على السيطرة على العراق ، وانتزاعه من أيدى عبيد الله بن زياد-ممثل الدولة الأموية . وربما رأى المختاريون والخوارج أن يقتسموا النفوذ فى العراق ، وألا يصطدموا ، حتى لا يستفيد أعداؤهم الأمويون من هذا الصدام ، فبدأ المختاريون يسيطرون على الكوفة ، بينما سيطرت الخوارج على البصرة . فقد كان ضعف نفوذ ابن زياد فى البصرة عاملا على انضمام كثير من البصريين الى الخوارج [1] . وكان ابن زياد قد حاول أخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة ، لكن الخوارج أفسدوا عليه البيعة ، فاضطر ابن زياد الى الفرار الى الشام ناجيا بحياته . وانتهز الخوارج هذه الفرصة فوضعوا برنامجا دينيا ينافسون به برنامج الشيعة ، فقالوا : « لو خرج منا خارجون فى سبيل الله ، فقد كانت منا فترة فقد خرج أصحابنا ، فيقوم علماؤنا فى الأرض فيكونون مصابيح الناس يدعونهم الى الدين ، ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرب فيكونوا شهداء مرزوقين عند الله » [2] .

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٦ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٥٦ .

كان المختار قد بدأ يدعو الى امامة محمد بن الحنفية ، والى اقامة خلافة علوية بالعراق . وبدأ التنافس الشديد بين المختار والخوارج الأزارقة ، الذين أسرعوا يبايعون زعيمهم نافع بن الأزرق بامرة المؤمنين ، وانضم اليهم خوارج عمان واليمامة ، فصاروا أكثر من عشرين ألفا ، وبدأوا بالسيطرة على الأهواز وفارس وكرمان ، وبدأوا يستعدون للهجوم على العراق ، وكان البصرة تخضع للزبيريين ، والكوفة فى يد المختار ولكن وقع خلاف بين زعماء الخوارج ، وأعلن زعيمان خارجيان انشقاقهما عن الخوارج الأزارقة ، وهما عبد الله بن صفار الذى كون فرقة الخوارج الصفرية ، وعبد الله بن أباض الذى أنشأ فرقة الأباضية. وتقدم نافع بن الأزرق بمن بقى معه من الخوارج زاحفا نحو البصرة .

شعر المختار بالطمأنينة ، اذ رأى جحافل الخوارج الأزارقة تزحف نحو البصرة دون الكوفة . وارتاع أهل البصرة ، لما يعلموه من أقدام الخوارج على سفك الدماء ، واستنجدوا بزعيمهم الأحنف بن قيس ، الذى حشد عشرة آلاف رجل ، وقدم لهم والى عبد الله بن الزبير جميع المساعدات ، وبدأ قتال عنيف ، رجحت فيه كفة الخوارج ، فأمر ابن الزبير واليه بخراسان المهلب ابن أبى صفرة بقتال الخوارج ، وانتهت هذه المعارك بمصرع نافع ابن الأزرق وعبد الله بن الماحوز الذى خلفه فى قيادة الخوارج ، وفرت فلول الخوارج الى كرمان وأصفهان سنة ٦٦ هـ ، وتنفس المختار الصعداء ، فقد كان الخوارج سيزحفون حتما الى الكوفة

بعد فراغهم من أمر البصرة . فقد كفاه أهل البصرة وولاة ابن الزبير شر الخوارج ، دون أن يبذل جهدا .

استفادة المختار من حركة الخوارج بالعراق :

جنى المختار فوائد عظيمة من ثورات الخوارج بالعراق ، فقد شغلوا الولاة الأمويين فانصرفوا الى اخماد ثوراتهم ، وغفلوا عن حركات المختار ودعوته . كما شغل ولاة ابن الزبير بصد الخوارج عن مراقبة الخوارج عن مراقبة المختار فتمكن من السيطرة على الكوفة ومعظم أرجاء العراق . وكان هؤلاء الولاة الزبيريون يعتقدون أن الخوارج أعظم خطرا من المختار . كما أن أهل العراق تناسوا خلافاتهم ومشاكلهم أمام هجمات الخوارج وازاء اقدامهم على سفك الدماء . وأقبلت الشيعة على الالتفاف حول المختار حتى يصبحوا جميعا قوة أمام أعدائهم الألداء الخوارج ، الذين يكفرون على بن أبى طالب ، والذين قاتلوه بالأمس فى النهروان .

كانت مبادىء الشيعة التى اعتنقها المختار تتعارض مع مبادىء الخوارج . ولكن آراء الخوارج كانت تهدم قواعد الدولة الأموية ، فقد كانوا لا يعترفون بحق قريش فى الخلافة ، ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذى سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخابا عاما يشمل جميع المسلمين . وشاركت القبائل العربية الخوارج فى سخطها على الأمويين ، فرأت أن انتصار

الأمويين انتصار جديد لقريش على سائر العرب[1] . وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى محاربة الأمويين ، مما جعل الدولة الأموية تحاربهم بسيف الدين وتقارعهم بحجج الاسلام [2] . ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين الى اللهو وانغماسهم فى الترف ، ولذلك استقر رأيهم على العمل للعودة الى العهد الاسلامى ، عهد المساواة والاخاء ، وأثاروا فى وجه الأمويين الفتن والقلاقل فى الدولة العربية الاسلامية ، ومما زاد فى خطورة الخوارج أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة فى أنحاء الدولة يقلقون الولاة الأمويين ويناوئونهم ، فاستغرق ذلك جهودهم ، وانصرفوا عن الاصلاحات وارضاء الرعايا الساخطين ، واضطر ولاة العراق أن يحاربوا فى أكثر من ميدان ، فكان أمامهم ثورات الموالى ، والشيعة ، وحركة المختار بن أبى عبيد .

انضم الى الخوارج الطبقات المعدمة التى راقتها الاتجاهات الديموقراطية والثورة على مظالم الولاة الأمويين . وفى مقدمة هذه الطبقات الثائرة الموالى الذين ما كادت تظهر الدولة الأموية حتى لمسوا تفريق ولاتهم بينهم وبين العرب فى العطاء . ويرى المؤرخ الهندى (خودابخش) [3] أن الدولة الأموية مسئولة عن انضمام

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٥ .

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٣ .

(٣) انظر كتابه (الحضارة الاسلامية) من ترجمتنا .

الموالى الى الخوارج ، فأدى تتبع الولاة الأمويين للخـوارج بالعراق الى مغادرتهم مواطنهم الأصلية والالتجاء الى الأطراف الشرقية للدولة العربية ، حيث امتزجوا بالموالى الذين أقبلوا على معاونتهم وتأييد آرائهم ، وبذلك صارت طائفة الخوارج تضم عناصر غير عربية .

واذا كان بعض الموالى من أنصار المختار قد راقتهم هـذه الاتجاهات الديموقراطية التى أشرنا اليه ، الا أنهـم تمسكوا بمبادىء الشيعة ، فقد كان الخوارج يكفرون على بن أبى طالب، ويميلون الى القسوة والعنف وسفك الدماء .

موقف المختار من الموالى

من هم الموالى ؟ ـ موقف المختار من العصبية بين العرب والموالى ـ الموالى الى جانب المختار ـ أسباب اعتماد المختار على الموالى .

الفصل العاشر

موقف المختار من الموالى

من هم الموالى ؟

الموالى فى نظر مؤرخى التاريخ الاسلامى هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا فى الأصل أسرى حرب أصبحوا فى منزلة الرقيق ثم أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالى ، فقد اقترن اسلامهم بدخولهم فى خدمة العرب وتحالفهم معهم كى يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكأنهم أصبحوا فى الوقت نفسه موالى حلف وموالاة .

وقد تكاثر الموالى فى العراق خلال الحكم الأموى بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر والاهداء . فكان بعضهم يقدم أعدادا من الرقيق بدلا من الخراج ، وكان الولاة يوزعون هؤلاء الرقيق على خاصتهم وقوادهم ، وهؤلاء يفرقونهم فيمن حولهم أو يبيعونهم فينتقل الرقيق الى الناس على اختلاف طبقاتهم . فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى، غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد أو غيره . وكان العرب يطلقون لفظ « المذرع » على من كانت أمه عربية وأبوه أعجميا ،

وكانت العرب فى الجاهلية لا تورث الهجين[1] . وتكاثر الموالى حتى فاقوا الأحرار فى عددهم فى بعض المدن ، فقد كان موالى الكوفة زمن معاوية عشرين ألفا [2] .

وكان معظم موالى العراق ، وخاصة موالى الكوفة ، من أصل فارسى ، ويتحدثون باللغة الفارسية . واحتفظ الموالى بصبغتهم الفارسية فترة طويلة ، ففى معسكر المختار لم تسمع كلمة واحدة . وكان بعض ولاة العراق يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبة الثقفى ، الذى أحبه الموالى كثيرا . واقتبست اللغة العربية كثيرا من الكلمات الفارسية . ورغم احتفاظ الموالى بصفاتهم وخصائصهم ، فقد تسموا بأسماء عربية واسلامية وشاركوا فى الحياة الاجتماعية والسياسية . بل دخل الموالى ضمن التنظيم القبلى ، وتأثروا بالعصبية القبلية ، وكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ويحاربون فى صفوفها ، ولكن هذه العصبية كانت تعود بالضرر على الموالى أحيانا .

موقف المختار من العصبية بين العرب والموالى :

كان المختار رجلا عربيا ، أبا وأما ، من قبيلة ثقيف العربية ، ولكنه لم يجد حرجا فى أن يعتمد فى حركته السياسية على الموالى بالعراق ، فقد لمس سوء أحوال الموالى الاجتماعية والسياسية ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٢٩ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٩٦ .

وتعصب العرب على الموالى . ورأى المختار أن يعمل على تحسين أوضاع الموالى ، ومنحهم الحقوق والامتيازات التى كانت للعرب، كسبا لتأييدهم ، وانصافا لهم ، ونفذ وعوده ، فساوى بين العرب والموالى ، فأقبل الموالى على تأييد المختار . وخفت العصبية بين العرب والموالى ، فالمختار كان حصيفا ، اذ لم يغفل امتيازات العرب ، بل أدناهم وأكرمهم فى نفس الوقت الذى أنصف فيه الموالى .

تعصبت الدولة الأموية للعروبة والعنصر العربى ، فكانت دولة عربية لحما ودما ، وضعت الأقوام غير العرب فى منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة، وفرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب ، كما أنقصوا عطاءهم ومرتباتهم ، مما أوجد هوة بين هاتين الطبقتين فى المجتمع الاسلامى فى ذلك الحين .

بدأ تعصب العرب على الموالى منذ مصرع عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، مولى المغيرة بن شعبة الثقفى ، فأثار هذا الحادث عصبية العرب نحو الأعاجم ، سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه . وكان عمر بن الخطاب يأمر بمعاملة الموالى برفق . أما عثمان بن عفان فقد كتب الى عماله بالعراق يأمرهم بتفضيل العرب على الموالى ، وخاصة فى العطاء[١] . ويعتبر (سيديو)[٢] الموالى مسئولين عن تعصب العرب ضدهم ، فقد

(١) الطبرى ج ٥ ص ٦٣ .
(٢) تاريخ العرب العام ص ١٧٣ .

عاملوهم كما كانوا يعاملون أكاسرة الفرس مما أدى الى غرور العرب . ولكن فى الحقيقة كان العرب يشعرون دائما بالعزة العربية ويعتبرون أنفسهم أرقى الأجناس قاطبة ، مما دفعهم الى العصبية العربية ، وبرزت هذه العصبية واضحة فى العصر الجاهلى ، فكانت الوفود العربية تفخر فى حضرة كسرى فارس بعروبتها وتضع العرب فى مرتبة أسمى من الفرس . وجاهد الاسلام فى القضاء على العصبية بنوعيها ، الجنسية والقبلية ، ونجح فى ذلك فترة ، لكنها عادت ثانية بعد مصرع عمر .

وفى الحقيقة كان العرب مدفوعين فى تعصبهم ضد العناصر غير العربية ، نتيجة غيرتهم على الاسلام واللغة العربية ، أما غيرتهم على الاسلام فقد ظن بعض العرب ، وخاصة ولاة العراق من الأمويين، أن معظم الموالى لم يعتنقوا الاسلام الا لمصالح شخصية ، مثل تولى الوظائف أو التخلص من دفع الجزية ، ولذا رأى هؤلاء الولاة أن الدخول فى الاسلام لا يعفى المولى من دفع الجزية . أما غيرة العرب على اللغة العربية فكانت نتيجة دخول كلمات أعجمية فى اللغة العربية ، وانتشار اللكنة الفارسية بين العرب ، مع انتشار اللحن ، فكان هذا أيضا عامل اثارة عربية على الموالى فعربت الدواوين .

ولقد ضرب ابن عبد ربه[1] أمثلة كثيرة لاحتقار العرب لموالى العراق خلال الحكم الأموى . فبين أن العرب يستخدمون

---

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٤١٢ .

الموالى فى الحروب كمشاة ويرفضون أن يستخدموهم كفرسان وهكذا ، وجاء المختار فكان أول من سمح لهم بركوب الخيل ، وكان هناك عشرون ألفا من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق . ذلك أن العرب كانوا يعتقدون أن مهنتهم الأولى الحرب ، وأنهم اذا أشركوا مواليهم معهم فهذا استثناء ، فالموالى لم يخلقوا الا للحرف والمهن الوضيعة ، كما قال عربى : « يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحركون ثيابنا » .

الموالى إلى جانب المختار :

كان عصر سيادة المختار فى العراق ، بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الموالى ، فقد بدأ فترة من التسامح والمساواة والعدل ، فقد أعاد المختار سيرة الخلفاء الراشدين فى معاملة الموالى ، ونبذ سياسة التفرقة التى اتبعها الولاة الأمويون . فقد كان أبو بكر يساوى فى توزيع الغنائم والفيء والعطاء بين العرب والموالى . وكتب الخليفة عمر بن الخطاب الى قواده : « ومن أعتقتم من الحمراء — أى الموالى الفرس — فأسلموا فألحقوهم بمواليهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلهم أسوة فى العطاء» [1] . وأحسن علىّ بن أبى طالب معاملة الموالى ، ونقل حاضرته الى الكوفة ، وكان جيشه يضم ١٦ ألفا من الموالى والعبيد [2] .

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٣٥ .
(٢) ابن الصباغ : الفصول المهمة ص ٨٩ .

أما الدولة الأموية فقد أغفلت وضع تنظيم للعلاقات بين الاسلام والشعوب المفتوحة ، بل أدت سياستها الى تعقيد الحياة القانونية والمسائل الدينية الداخلية ، فكان على الأمويين أن يضعوا للمحاربين المسلمين المنتشرين فى العراق ، قواعد جازمة ، تحل مشاكل الناشئة من الأمور الفقهية التى لم يكن يعرفها تماما جزء كبير من هؤلاء العرب الفاتحين المجندين [1] . وزاد المشكلة تعقيدا أن بلاد العراق عرفت الحركات الاجتماعية قبل الفتح الاسلامى ، فكانت أقرب الى تناولها وأقدر على فهم أسباب ظهورها من الأمة العربية .

كان الموالى مهيئين للانضمام الى المختار ، فقد كانوا يتطلعون الى منقذ يخلصهم من جور الأمويين ويعيد أيام الخلفاء الراشدين. فقد نزل بالموالى كثير من الظلم والاضطهاد فى عهد الخليفة يزيد ابن معاوية ، على يد واليه عبيد الله بن زياد . كما آلمهم مصرع الحسين بن على ، وكان معظم الموالى يتحمسون للبيت العلوى ، وخاصة الحسين الذى تزوج بنت آخر أكاسرة الفرس . وأقبل الموالى على البيعة لعبد الله بن الزبير ، الى حين ، فقد كان الثائر الوحيد على الدولة الأموية . ولكنه خيب آمالهم ، فقد أطلق العنان للأشراف العرب فى الكوفة ، واعتمد فى حكمه للبصرة على العنصر العربى .

حتى اذا ظهر المختار وجد الموالى فيه الزعيم المنشود ، فأسرعوا

---

(١) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة ص ٣٩ .

الى نبذ طاعة ابن الزبير . وقد رأوا فى دعوة المختار فرصة يحققون بها آمالهم فى التساوى بالعرب . ورأى المختار فيهم وسيلة لتحقيق آماله ومطامحه فى السلطة والنفوذ ، فساوى بين العرب والموالى فى الحقوق والواجبات ، وجعل عطاءهم جميعا واحدا . وجعل ماله وعطاءه لرجل فارسى ، وكان معظم جنده من موالى الفرس بالكوفة ، وكانوا يسمون بالحمراء ، ويتحدثون باللغة الفارسية .

استمر المختار ومن ورائه الموالى يحكمون بلاد العراق ، وكانت تجبى اليه الأموال من السواد وأصفهان والرىّ وأذربيجان والجزيرة ، وغضب لذلك أشراف العرب ، فتوجهوا اليه يعاتبونه، ففسر لهم تقريبه الموالى بقوله : « لا يبعد الله غيركم ، أكرمتكم فشمختم بأنوفكم، وليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع الى ما أريد »[1] . وقد أثبت المختار أنه أبعد نظرا وأكثر دهاء من ابن الزبير ، فقد أدرك أنه فى العراق موطن الموالى ، وأن فى أيديهم الثروة والموارد الاقتصادية ، فجعلهم عماده وعضده .

أسباب اعتماد المختار على الموالى :

يرى بعض المؤرخين أن المختار بتأييده الموالى قد أثار عصبيتهم على العرب ، اذ بث بمناصرته لهم فى نفوسهم آمالا عريضة ما لبثوا أن حرصوا على تحقيقها بعد مقتله ، فجاهدوا

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٦ .

طويلا حتى أسقطوا الدولة الأموية ، وأقاموا الدولة العباسية التى أصبحت فارسيه الصبغة ، واعتمدت على الموالى تماما . وفى مقدمة هؤلاء المؤرخين (نيكلسون) [١] الذى يذكر أن المختار ألقى بنفسه فى أحضان الموالى مما جعلهم يقفون فى وجه الدولة الأموية والعرب . ولكن معظم المؤرخين يدافعون تماما عن موقف المختـــار .

وكانت الظروف والأحداث التى شهدتها فترة سيادة المختار فى العراق انما هى نتيجة تطور لأحداث سابقة . وفى الحقيقة ورث المختار تركة مثقلة بالأعباء ، ولم يكن فى امكانه أن يحل جميع المشاكل التى تبلورت فى عهده ونمت وتطورت فى سنوات كثيرة ، كما أن المختار انشغل طوال فترة حكمه بقتال أعدائه ، فكان يحارب فى عدة ميادين ، حارب الزبيريين والأمويين وأشراف الكوفة وقتلة الحسين وغيرهم .

كان طبيعيا والمختار فى بلاد العراق أن يستعين بالموالى وهم الغالبية العظمى من السكان ، وكانوا يحتكرون الموارد الاقتصادية، الى جانب ما كان لهم من نشاط سياسى وثقافى باعتبار أنهم ورثة الحضارة الفارسية . وقد وصفهم المختار بأنهم « أولاد الأساورة من أهل الفرس والمرازبة » [٢] .

لم يكن المختار أول ولاة العراق الذين قربوا اليهم الموالى . فقد اعتمد الخليفة على بن أبى طالب على الموالى فى سياسـته

---

(١) Lit. Hist. the Arabs, p. 219

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٢ .

وحروبه ، ونقل عاصمته الى الكوفة ، وساوى بين العرب والموالى فى جميع النواحى . وكان المغيرة بن شعبة والى معاوية بالكوفة ، وهو عربى ثقفى ، يقرب الموالى ويجيد لغتهم الفارسية ، ويبادله الموالى حبا بحب [1] . كما اعتمد عبيد الله بن زياد والى معاوية ويزيد بالعراق على الموالى عاما وكان « أول من جفا العرب » [2]. واتخذ من الموالى جيشا سماه « المحاربة » وعدته اثنا عشر ألفا من الموالى ، وسمح للموالى بسكنى البصرة وكان محرما ذلك عليهم من قبل . وكان ابن زياد يرى أن الموالى أجدر بتولى الوظائف لأنهم كما قال عنهم « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة » .

كانت حالة الموالى سيئة منذ أول العصر الأموى ، ولم تكن ثورة الموالى مقصورة على عصر المختار ، فقد انضموا الى كل ثائر على الدولة الأموية . بل لقد أعلنوا سخطهم على العرب منذ الفتح العربى وصرعوا عمـر بن الخطـاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، ثم انضموا الى الثوار فى فتنة عثمان ، والى أحزاب الشيعة والخوارج والتوابين والزبيريين ، وكذلك التفوا حول المختار ، واستمر الموالى فى ثوراتهم بعد مصرع المختار ، فانضموا الى عبد الرحمن بن الأشعث ثم يزيد بن المهلب وهما من العرب وليسا من الشيعة ، ثم انضموا الى جميع زعماء الشيعة العلويين مثل زيد بن على وعبد الله بن معاوية ، حتى اذا ركن العلويون الى الهدوء ، تحولوا الى تأييد العباسيين . ونجح الموالى بقيادة أبى

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢١٨ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٢٠ .

مسلم الخراسانى فى هدم الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية وهى دولة فارسية فى صبغتها .

ويرى الشهرستانى[1] أن اعتماد المختار على الموالى لم يكن السبب فيما وصل اليه من نجاح ونفوذ ، وانما نسب نجاحه الى عاملين : أولهما أنه أعلن أنه نائب ابن الحنفية ، وثانيهما اقدامه على الأخذ بثأر الحسين وقتلى كربلاء « واشتغاله ليلا ونهارا بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين » .

ويدافع بعض المؤرخين عن موقف المختار . فيذكر الدكتور الدورى[2] أن الأحزاب الاسلامية هى التى نظمت حركة الموالى بأشكالها المختلفة ، وساعدتها على أن تتخذ مظاهر مختلفة ، فالأتقياء أيدوا الموالى فى دعوتهم للمساواة بدون نظر الى سر هذه الدعوة . واليهم يعود الفضل كثيرا فى تشجيعهم على الثورات المختلفة كثورة ابن الأشعث . وقد قبل الخوارج فى صفوفهم عددا من الموالى ، وذهبوا الى حد بعيد فى دفعهم حتى طوّروا نظريتهم فى الخلافة الى المساواة بين العرب والموالى ، فجوزوا امامة غير العربى ، كما قالوا بامامة أى عربى يجمع المؤهلات اللازمة .

وكتب المؤرخ فان فلوتن [3] فى كتابه (السيادة العربية) ، فصلا طويلا بعنوان (حالة الموالى السياسية والاجتماعية) تحدث

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦ .
(٢) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٨١ .
(٣) السيادة العربية ص ٤٠ .

فيها عن سوء أحوال الموالى واحتقار العرب لهم ، ومعاملة العرب لهم كرقيق . ثم ذكر أن الموالى لم يكونوا وحدهم الذين أبدوا المختار ، بل انضم اليه العرب فى الكوفة أيضا ، فقد جمعهم جميعا الشكوى من ظلم الأمويين .

وانبرى (فلهوزن) وهو من أعظم مؤرخى التاريخ الاسلامى الأفرنج ، يدافع عن المختار وموقفه من الموالى ، فيقول : وجد المختار الموالى وقد أصبحوا شيعة ، ولم يكن يرمى الى اثارتهم ضد العرب ، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق ، وكانت الشيعة من ورائه حتى استطاع أن يجتذب اليه الأرستقراطية العربيـة المعادية . وشاء القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى والمسلمين من الطبقة الثانية ، فمن يأخذ عليه ذلك ، لا يكن له الحق فى أن يأخذ على الحجاج أنه عمل العكس فأكد الفوارق بكل قوة وأعادها الى ما كانت عليه . والحق أن المختار خليق بالمديح لكونه كان أسبق من غيره فى ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هى ، اذ لم يكن الاسلام بل العنصر العربى هو الذى يتمتع بالحقوق المدنية الكاملة فى الحكومة الدينية . ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلى ، لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية . ولكن العرب لم يشاءوا الحد من امتيازاتهم عن طيب خاطر ومن هنا اضطر المختار الى خوض الكفاح ضدهم . ولكن هذا النضال انتهى الى القضاء عليه ، فقضى على الموالى بوصفهم قوة سياسية [1] .

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

كان صراع المختار ومصعب بن الزبير هو فى الحقيقة صراع الموالى والعرب ، وكان انتصار مصعب هو انتصار العنصر العربى. وتألم الموالى لفقدهم ذلك الزعيم الذى حقق آمالهم فى المساواة والحرية والنفوذ . ولعب الموالى — كما سنرى فى الفصل القادم — الدور الأول فى مصرع مصعب . وظـل الموالى يتطلعون الى زعيم جديد فوجدوه فى شخص عبد الرحمن بن الأشعث الذى أقام حركة على انقاض حركة المختار ، وأكمل ما بدأه المختار من قبل ، ولم يهدأ بال الولاة الأمويين منذ مصرع المختار سنة ٦٧ هـ الى سقوط الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

نهاية المختار والحركة المختارية :

بداية النهاية ـ الصراع بين المختار ومصعب بن الزبير حول العراق ـ مصرع المختار ـ العوامل التى أنهت حركة المختار : (اخفاق المختار فى صبغ حركته السياسية بصبغة دينية ، ابن الحنفية لايؤيد المختار تأييدا مطلقا ، غضب العرب على المختار لاعتماده على الموالى ، اهمال المختار الاستعانة بقائده ابراهيم بن الأشتر ، تخاذل أهل الكوفة ، مصعب يخدع قائد المختار ، مرض المختار فى أثناء المعركة) .

الفصل الحادي عشر

نهاية المختار والحركة المختارية :

بداية النهاية :

مرّ بنا الصراع العنيف الذى قام فى العراق بين الحركة الزبيرية والحركة المختارية . فبعد أن كان المختار فى طاعة ابن الزبير فى الحجاز ، أصبح منافسا خطيرا له فى العراق ، ثم عدوا لدودا ، ونصيرا لأعداء ابن الزبير من بنى هاشم وخاصة ابن الحنفية . كما مرّ بنا صراع المختار للعرب الأشراف بالكوفة ، ونضاله للجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد ، وكيف نجح المختار فى القضاء على ابن زياد فى موقعة خازر .

وقد ظل عبد الله بن الزبير فى مكة ينظر الى قتال المختار عبيد الله بن زياد بعين ملؤها السرور . فهذه الحرب الضروس ستؤدى حتما الى ضعف الفريقين على السواء . وقرت عين ابن الزبير حينما علم بمصرع ابن زياد ، فقد كان أعظم القواد الأمويين ، وأصبح اصطدام المختار وابن الزبير أمرا محتوما ، فلم تعد بلاد العراق تتسع لهاتين الحركتين الكبيرتين .

كان من العسير أن تتفق الحركتان السياسيتان ، الزبيرية

والمختارية ، فى العمل جنبا الى جنب ، أو على اقتسام السيادة فى بلاد العراق ، فقد اختلفتا تماما فى الأهداف والوسائل . فقد كان هدف ابن الزبير قيام خلافة زبيرية يتولاها فى الحجاز ، فتصبح بلاد الحجاز كما كانت فى عصر أبى بكر وعمر وعثمان موطن الخلافة ، أما المختار فقد أراد اقامة خلافة علوية فى بلاد العراق يتولاها محمد بن الحنفية . واستعان ابن الزبير بالعنصر العربى ، بينما استعان المختار بالموالى . الى جانب الكراهية والبغضاء التى اضطرمت فى قلبى المختار وابن الزبير ، وجعلت تفاهمهما عسيرا .

ورغم هذه الانتصارات الواسعة التى قام بها المختار ، وبرغم تفوقه الواضح على ابن الزبير ، فقد رأى بذكائه ودهائه أنه فى حاجة الى مهادنة ابن الزبير ، رغم ما بينهما من بغضاء وكراهية ، بعد أن حارب فى ميدانين ، حارب العرب الأشراف بالكوفة أولا ، ثم حارب الجيش الأموى بقيادة ابن الزبير ، وشعر بعدهما أنه فى حاجة الى فترة هدوء وسلام ، يجمع فيها شمل صفوفه ، وينال جنده فيها قسطا من الراحة فلا يملوا طول القتال ، ولا سيما أن العرب الأشراف بالكوفة لا يزالون يمثلون حزب المعارضة ويترقبون الفرصة للوثوب على المختار والأخذ بالثأر منه .

بدأ المختار يطلب الهدنة ، فبعث برسالة الى ابن الزبير وقال له : « فان ترد مراجعتى ومناصحتى فعلت » . ويذكر ابن الأثير[1] السبب فيقول : « كان قصد المختار أن يكف ابن الزبير عنه ليتم أمره ، والشيعة لا يعلمون بشىء من أمره » . أما

(١) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٠٣ .

البلاذری [1] فینسب طلب الهدنة الى سبب آخر فیذکر أن المختار کان « خائفا من أن یوجه الیه ابن الزبیر جیشا لما فعل بابن مطیع ولاخراجه ایاه » . فقد کان المختار — کما بینا — قد عزل ابن مطیع والی ابن الزبیر بالکوفة ، وأصبح صاحب السیادة فیها ، کما نشر دعوته بالبصرة وولی المثنی بن مخربة والیا علیها [2] .

وأراد ابن الزبیر أن یتأکد من صدق نوایا المختار ، فاختار أحد أنصاره لیتولی حکم الکوفة ، وهو عمر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومی ، وأمره بالتوجه الى الکوفة « وقال له ان المختار سامع ومطیع » ، وأعطاه ما بین ثلاثین وأربعین ألف درهم . وعلم المختار بقدوم عمر ، ورأی أن یصرفه بالحسنی أو القوة ، فلم یکن من السذاجة أن یسمح بعودة النفوذ الزبیری الى الکوفة بعد الجهود العنیفة التی بذلها . فاستدعی أحد رجاله وهو زائدة بن قدامة وأعطاه سبعین ألف درهم ، وأمده بخمسمائة فارس ، وطلب منه أن یعرض علی والی ابن الزبیر المال ، فان رفض هدده بالسلاح والقتال ، وأبدی عمر رفضه فی بدایة الأمر تنفیذا لأوامر خلیفته ابن الزبیر ، ولکن کان تهدید قائد المختار کافیا لیحید عن عزمه ، فآثر السلامة وأخذ المال ، وهو ضعف ما أعطاه له ابن الزبیر ، ورحل الى البصرة حیث أقام الى جانب سلفه ابن مطیع والی الکوفة المعزول [3] .

---

(١) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثیر : الکامل ج ٤ ص ١٠٣ .

استمر المختار فى خداع ابن الزبير ، فتظاهر بالمضى فى سياسة المهادنة والموادعة . فبعث رسالة الى ابن الزبير يخبره أنه بسط سلطانه على الكوفة ، وطلب منه أن يقره على حكمه ، فيخضع بذلك للأمر الواقع ، واقترح عليه أن يمده بمليون درهم مقابل أن يزحف المختار بجيشه نحو الشام لقتال الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، ولكن ابن الزبير لم يعد يثق بالمختار فرفض اقتراحه [١] .

كان على المختار أن يختار بين سيطرته على الكوفة أو رضاء ابن الزبير عنه . ولكن المختار لم ييأس فبات يترقب الفرص ليعيد على ابن الزبير طلب الهدنة ، وحانت له الفرصة أخيرا ، فقد بعث عبد الملك بن مروان جيشا أمويا بقيادة عبد الملك بن الحرث الى وادى القرى ، وكتب المختار الى ابن الزبير يعرض عليه المساعدة ، واضطر ابن الزبير ازاء موقفه الحرج أن يقبل عرض المختار ، ولكنه اشترط عليه أن يأخذ البيعة له من أهل العراق ، وأن يعجل بانفاذ الجيش .

وفى الحقيقة ، كان غرض المختار مكيدة دبرها لابن الزبير ، فقد دعا المختار قائده شرحبيل بن ورس الهمدانى ، وأمده بثلاثة آلاف جندي معظمهم من الموالى ، وأمره بالزحف نحو المدينة وانتزاعها من ابن الزبير . ولم يكن ابن الزبير مطمئنا الى اخلاص المختار ، ورأى أن يأخذ حذره وحيطته ، فأعد جيشا من ألفى

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٤ .

جندى بقيادة سهل بن سعد للدفاع عن المدينة ، وأمره أن يستنفر البدو الأعراب ، وأن يتقدم الى المدينـــة ، فاذا أيقن من اخلاص جند المختار انضم اليهم وتعاونوا معا فى قتال الأمويين ، والا فعليه أن يقاتلهم حتى يهلكهم .

قدم ابن ورس قائد المختار الى المدينة ، والتقى بعباس بن سهل قائد ابن الزبير . فقال عباس لابن ورس : ألستم على طاعة ابن الزبير ؟ قال : بلى . فقال عباس : فسر بنا الى عدوه الذى بوادى القرى . فقال ابن ورس : ما أمرت بطاعتكم ، انما أمرت أن آتى المدينة ، فاذا أتيتها رأيت رأيى . فلما طلب ابن ورس من عباس أن يبدآ تعاونهما لقتـــال الأمويين رفض حتى يكتب الى المختار وينتظر ما يأمره به . وفطن عباس الى مكيدة المختار ، ورأى أن ينفرد بالعمل ، وأعان عزمه على المضى الى وادى القرى.

نفذت مؤن جيش المختار التى حملها معـــه من العـــراق ، فاضطروا أن يلتمسوها عند جند ابن الزبير . وأجاب ابن سهل قائد ابن الزبير طلبهم ، فأمدهم ببعض الأغنام ، فانشغل جند المختار بذبحها وسلخها وأقبلوا على الطعام ، وقد تركوا سلاحهم جانبا ، وانتشروا فى معسكرهم . وانتهز ابن سهل هذه الفرصة ، ففاجأ المختاريين بالهجوم عليهم ، وحاول ابن ورس أن يجمع فلول جنده فلم يجتمع حوله غير مائة منهم ، ودارت معركة سريعة انتهت بمصرع ابن ورس وسبعين ممن كانوا معه . وتتبع الزبيريون جند المختار فقتلوا مائتين منهم ، وأسرع الباقون الى النجـــاة

بأنفسهم والفرار ، ولكن هلك معظمهم فى الطريق جوعا وعطشا[1].

وهكذا انقلب الأمر على المختار ، ولكن المختار لم يفوت هذه الفرصة ، فكتب الى ابن الحنفية وذكر له أن غرضه من انفاذ ذلك الجيش المهزوم هو مساعدة ابن الحنفية ضد اضطهاد ابن الزبير له ، وعرض عليه أن يعيد الكرة ، فقال « فان رأيت أن أبعث الى المدينة جيشا كثيفا . وتبعث اليهم من قبلك رجلا حتى يعلموا أنى فى طاعتك فافعل ، فانك ستجدهم بحقكم أعرف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير » . ولكن ابن الحنفية كان كعادته يميل الى السلام ، فرفض عرض المختار .

ثم بدأ ابن الزبير اضطهاده وتعذيبه لمحمد بن الحنفية وبنى هاشم ، فقد حبسهم فى زمزم وتوعدهم بالقتل والاحراق ما لم يعلنوا بيعتهم له ، وضرب لهم أجلا ، فأشار بعض أنصار ابن الحنفية عليه أن يطلب النجدة من المختار فكتب اليـه ، وأثار المختار مشاعر أهل الكوفة ، فبكوا وطلبوا من المختار أن يسيرهم لنجدة ابن الحنفية ، فبعث المختار جيشا بقيادة عبد الله الجدلى . ودخل المختاريون المسـجد الحرام وهـم ينادون : يا لثارات الحسين . وهو شعار المختار الدائم . وكان قد بقى من الأجل الذى حدده ابن الزبير يومان ، فكسروا باب السجن ، وأطلقوا سراح ابن حنفية ومن معه ، واستأذنوه فى قتال ابن الزبير ، فقال : انى لا أستحل القتال فى الحرم . وحاول ابن الزبير أن يعيد ابن الحنفية

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٤ .

وآله الى السجن مرة أخرى ، لولا أن هدده الجدلى قائد المختار فقال : أى ورب الركن والمقام لتخلين سبيله أو لنجادلنك بأسيافنا جدالا لا يرتاب منه المبطلون ! .

كان تهديد جند المختار لابن الزبير كافيا ليكف يد الايذاء عن ابن الحنفية وبنى هاشم . وكان المختاريون على استعداد لقتال ابن الزبير ، ولكن ابن الحنفية أصر على السلام . وصحب المختاريون ابن الحنفية الى شعب على بن أبى طالب ، فكان عدد من التف حوله وآزره أربعة آلاف رجل ، وقسم ابن الحنفية بينهم الأموال التى بعثها المختار اليه .

وهكذا كان النصر للمختار فى هذه الجولة من جولات صراع المختار وابن الزبير ، وكانت الحجاز ميدانا لها . أما الجولة الثانية فستكون فى بلاد العراق ، وستنتهى بانتصار ابن الزبير ومصرع المختـــار .

الصراع بين المختار ومصعب بن الزبير حول العراق :

أصبح التفاهم أو التعاون بين المختار وابن الزبير مستحيلا . فقد حاول المختار أن يمكر بعدوه ، وكان المختار يريد بانفـاذ جيش ابن ورس الكيد له فى محنته ، فيقع بين شرين ، فقد قدم جيش أموى الى المدينة . كما غضب ابن الزبير على المختار لمساندته أعدائه الألداء من بنى هاشم .

ورأى ابن الزبير أن المختار لا يقل خطورة على الحركة الزبيرية من الدولة الأموية ، ولا سيما أن المختار فى السنوات الأخيرة

قد نقل نشاطه السياسى والعسكرى من العراق الى الحجاز أيضا ، قلب الخلافة الزبيرية ، ودعم الحزب الهاشمى المعارض لابن الزبير . ولذا رأى ابن الزبير أن يقف من المختار موقفا حاسما .

وقرر ابن الزبير أن يتخذ من مدينة البصرة بالعراق نقطة ارتكاز ووثوب ، فقد كان المختار مسيطرا تماما على الكوفة ، كما كانت البصرة أقرب مدن العراق الى الحجاز ، والعنصر العربى فيها صاحب النفوذ ، وقد أصبحت ملجأ للعرب أشراف الكوفة الذين فروا من وجه المختار وباتوا يترقبون الفرص للانتقام من المختار ، وكان من المؤكد أن يهرعوا الى تأييد ابن الزبير فى صراعه للمختار .

كف ابن الزبير عن اختيار ولاة ضعاف مثل ابن يزيد وابن مطيع ، ورأى أن يختار نائبا عنه فى العراق تتمثل فيه صفتان ضروريتان : العزم والاخلاص ، ولم تتوفر هذه الصفات حينئذ سوى فى أخيه مصعب بن الزبير ، وكان معروفا فى تلك الأيام بالشجاعة والاقدام . فولاه عبد الله بن الزبير حكم البصرة وأمره بالخروج اليها سنة ٦٧ هـ .

قدم مصعب بن الزبير الى البصرة متلثما ، فدخل مسجد البصرة ، وخطب فى أهلها معلنا نهاية عصر الضعف والتهاون وبداية عصر من العزم والقوة . ووصف فيها الأمويين بأنهم « مفسدون » ووصف المختار بأنه « فرعون » ، ثم ختم خطبته بقوله : « .. يا أهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد لقبت نفسى

بالجزار »[1] . وتذكرنا هذه الخطبة ، بخطبة زياد بن أبيه فى البصرة حين ولاه معاوية بن أبى سفيان حكمها ، وتذكرنا بخطبة الحجاج بن يوسف الثقفى الذى سيتولى حكم العراق بعد مصرع كل من المختار ومصعب بن الزبير .

وقد علم أشراف الكوفة اللاجئون الى البصرة بقدوم مصعب ، فقدموا عليه يصيحون : واغوثاه ! وطلبوا منه أن يخرج معهم لقتال المختار ، ولكنه رأى أن يؤجل ذلك الى أن يستقدم المهلب ابن أبى صفرة عامل فارس ليقاتل المختار ، وكان المهلب حينئذ يقاتل الخوارج [2] .

بعث مصعب الى المهلب رسالة يطلب فيها منه أن يهادن الخوارج ، ويقدم الى البصرة ، ليقود الجيش الزاحف الى الكوفة لقتال المختار . وخيب المهلب رجاء مصعب ، فقد تلكأ فى الحضور ، فقد كان يفضل قتال الخوارج على قتال المختار ، ولكن مصعبا بعث مرة أخرى يستحثه على القدوم ، فقال رسول مصعب للمهلب : ان نساءنا وأبناءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبيدنا !

هادن المهلب الخوارج ، وقدم بأعداد كبيرة من الجند الى البصرة ، ومعه أموال عظيمة حازها خلال حروبه الطويلة مع الخوارج ، استعان مصعب بها فى اعداد جيش كثيف ، أصبح كامل العدة والسلاح والمؤن ، فتوافرت له أسباب النصر . وفى الوقت نفسه ، أراد مصعب أن يثير المتاعب للمختار فى الداخل ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ١١٢ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥١ .

فبعث برجل من رجاله الأذكياء ، وهو عبد الرحمن بن مخنف ، الى الكوفة « فأمره أن يخرج اليه من قدر عليه ، وأن يثبط الناس عن المختار ويدعوهم الى بيعة ابن الزبير سرا » [1] . ونجح ابن مخنف فى مهمته ، فاستطاع أن يثير القلاقل فى الكوفة ، ويحيد ضعاف الايمان من أنصار المختار عن الاخلاص له . كما أن البقية الباقية من أشراف الكوفة أصبحوا شوكة فى جنب الحركة المختارية ، فانصرف المختار الى مشاكله الداخلية وانشغل بها عن الجيش الزاحف .

قبل المهلب بن أبى صفرة أن يشترك فى قتال المختار ، فكان ذلك أعظم كسب لمصعب ، فقد كان المهلب أعظم قواد عصره على الاطلاق ، وقد دوخ الخوارج طويلا . واشترك مع مصعب صناديد العرب ورجالاتهم ، وفى مقدمتهم عمر بن عبيد الله بن معمر الذى تولى قيادة ميمنة الجيش ، وعباد بن الحصين زعيم عرب بنى تميم ، ومالك بن المنذر الذى قاد فرقة كلها من قبيلة عبد القيس ، وانضم اليهم زعيم البصرة الأول الأحنف بن قيس الذى قاد جيش العالية . وهذا الجيش على هذه الصورة تنوقع له النصر المؤزر ، فقد توافرت له أسباب النجاح .

مصرع المختار :

علم المختار بخروج مصعب والمهلب لقتاله ، فجمع جنده وأنصاره وولى عليهم أحمر بن شميط قائدا عاما للجيش ، وولى

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١١٢ .

أبا عمره قائدا لفرقة الموالى ، ولجأ مصعب الى المكيدة والخداع، فقد بعث برجل الى القائد ابن شميط فنصحه أن لا يسمح للموالى بركوب الخيل وأن يحاربوا كمشاة حتى لا يهربوا من المعركة « وكان هذا غشا منه للموالى لما كان لقى منهم بالكوفة ، فأحب أن كانت عليهم الهزيمة ، وأن لا ينجو منهم أحـد » . وجازت الحيلة على ابن شميط ، فوضع هذه النصيحة موضع التنفيذ .

تقدم جيش مصعب ، وأصبح وجها لوجه مع جيش المختار ، وحاول ابن شميط أن يدعو الى السلام ويحقن الدماء ، فصاح فى جند مصعب : انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة رسوله والى بيعة المختار والى أن نجعل هذا الأمر شورى فى آل الرسول . ولكن مصعبا — بطبيعة الحال لم يكن يستجيب لهذا العرض ، بل أمر المهلب بأن يسرع فى الهجوم على جيش المختار .

أقبل المهلب بجنده يهاجم أعداءه جند المختار وهو يصيح فيهم : الفرار اليوم أنجى لكم ، علام تقتلون أنفسكم مع هذه العبيد ؟ فقد أراد المهلب بهذه العبارة أن يوقع الخلاف بين العرب والموالى الذين ضمهم جيش المختار وجمعهم الولاء له .

هجم فرسان مصعب على مشاة ابن شميط فألحقوا بهـم الهزيمة . وأقبل الفرسان من أشراف الكوفة الذين كانوا قد لجأوا الى البصرة ، بقيادة محمد بن الأشعث ، يهاجمون جنـد المختار الموالى ، وابن الأشعث يصيح فى فرسانه : دونكم ثأركم . ودبت الحماسة فى قلوب الموالى جند المختار ، فأوقعوا الهزيمة بجند البصرة فكانوا « لا يدركون منهزما الا قتلوه ولا يأخذون أسيرا

فيغفون عنه فلم ينج من ذلك الجيش الا طائفة أصحاب الخيل ، وأما الرجالة فأبيدوا الا قليلا » . ولكن سرعان ما دارت الدائرة على جيش المختار ، ولم يظهر جند مصعب الظافرون أية رحمة ، وكان أشدهم قسوة الكوفيون الهاربون الى البصرة ، فقد كانوا أشد الناس على أبناء بلدتهم ، وخاصة على الموالى الذين أعملوا السيوف فيهم . ونجح البصريون فى الايقاع بين العرب والموالى من جند المختار ، فتخلى عرب بجيلة وخثعم عن مساعدة اخوانهم الموالى ، وتركوهم يلقون مصيرهم على أيدى جند مصعب ، ولم يتمكن الموالى من الفرار لأنهم كانوا مشاة ، فقد استجاب ابن شميط للنصيحة الغادرة التى خدعه بها أحد رجال مصعب ، فلم يسمح للموالى بركوب الخيل ، فكانت النتيجة أن لحق فرسان البصرة بموالى المختار المشاة وأبادوا معظمهم ، ونجا قلة قليلة (١) .

كانت هذه الهزيمة صدمة عنيفة أصابت المختار ، فقد زعزعت مكانته فى الكوفة ، وكان يعد أهل الكوفة أنه سيحقق لهم الفوز والنصر ، فجعل أصحابه يلومونه ويذكرونه بوعوده .

وقد أبدى المختار شجاعة نادرة ، فرأى أن يقاتل حتى يقتل ، فقال : ما من الموت بدّ ، وما من ميتة أحب الىّ من أن أموت ميتة ابن شميط . أى أن يموت فى ساحة القتال . وزحف جيش مصعب الى الكوفة ، وخرج المختار لقتالهم فنزل (حروراء) بعد أن حصن القصر والمسجد بالكوفة . وبدأت معركة عنيفة فى ليلة

(١) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٢٧ .

منتصف جمادى الأولى سنة ٦٧ هـ ، فتقدم فرسان عرب الكوفة بقيادة محمد بن الأشعث ، فلحقت بهم الهزيمة وقتل قائدهم محمد ابن الأشعث ، فرأى المهلب أن يدخل المعركة حتى تنتهى سريعا الى نتيجة حاسمة .

امتلأ ميدان المعركة بجثث أكبر نبلاء شيعة الكوفة . وقاتل المختار طوال الليل وهو مترجل . وشعر المختاريون أن الهزيمة ولا شك لاحقة بالمختار ، فقد كان جيش مصعب كامل العدد والعدة ، فبدأ جند المختار يتسللون الى جيش مصعب واحدا بعد واحد ، حتى وجد المختار نفسه فى الصباح وحيدا ، فأذعن لرأى القلة التى بقيت معه والتى كانت تحثه على العودة ، فعاد الى قصره .

وفى غداة المعركة ، زحف جيش البصرة حتى دخل من المدخل الرئيسى للسبخة الى مشارف الكوفة ، ثم ضيقوا الخناق على المختار شيئا فشيئا ، وقطعوا عنه المؤونة . وكان المختار يسيطر على القصر وداخل المدينة ، وكان معه عدة آلاف من الموالى ومئات قليلة من العرب ، أما غالبية العرب فقد تسللوا الى أسرهم وبيوتهم .

وساءت أحوال المختار ومن بقى معه من الجند شيئا فشيئا « واجترأ الناس عليهم ، فكانوا اذا خرجوا رماهم الناس من فوق البيوت ، وصبوا عليهم الماء القذر . وكان أكثر معاشهم من النساء ، تأتى المرأة متخفية ومعها القليل من الطعام والشراب الى أهلها . ففطن مصعب الى النساء فمنعهن ، فاشتد على المختار

وأصحابه العطش ، وكانوا يشربون ماء البئر يعملون فيه العسل، فكان ذلك ما يروى بعضهم »[1] .

استمر الحصار أربعة شهور ، وكانت الكوفة مدينة مفتوحة ، ولم يكن محصنا غير القلعة ، ولكن الدروب الضيقة سهلت عملية الدفاع . فقد كان « الحصار » الذى تحدث عنه المؤرخون انما هو القتال فى طرقات الكوفة ، على طريقة حرب العصابات المعروفة الآن .

وبدأ مصعب وجنوده يتقدمون نحو القصر ، فقال المختار لجنوده : ويحكم ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفا ، فانزلوا بنا نقاتل حتى نقتل كراما ان نحن قتلنا ، فوالله ما أنا بآيس ان صدقتموهم أن ينصركم الله . ولكن جند المختار أبوا الخروج لقتال جند مصعب ، وبين لهم المختار عواقب خذلانهم له فقال : أما أنا فوالله لا أعطى بيدى ولا أحكمكم فى نفسى ، واذا خرجت فقتلت لم تزدادوا الا ضعفا وذلا ، فان نزلتم على حكمهم وثبت أعداؤكم فقتلوكم وبعضكم ينظر الى بعض فتقولون يا ليتنا أطعنا المختار ، ولو أنكم خرجتم معى كنتم ان أخطأتم الظفر متم كراما [2] .

خرج المختار فى تسعة عشر رجلا من أنصاره ، فقاتل بشجاعة وبسالة نادرة ، وظل يضرب بسيفه حتى قتل ، قتله أخوان من بنى حنيفة ، وكان مصرع المختار فى ١٤ رمضان سنة ٦٧ هـ

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٤ .

(٣ أبريل سنة ٦٨٧ م) وكان عمره اذ ذاك سبعا وستين سنة .

وقد وصف المسعودى [١] ساعات المختار الأخيرة فقال : « ودخل المختار قصر الامارة بالكوفة وتحصن فيه ، وكان يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه وأهل الكوفة وغيرهم ، فخرج اليهم ذات يوم وهو على بغلة شهباء ، فحمل عليه رجل من بنى حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد ، فقتله واحتز رأسه ، وتنادوا بقتله ، فقطعه أهل الكوفة [٢] واصحاب مصعب أعضاء ، وأبى مصعب أن يعطى الأمان لمن بقى فى القصر من أصحابه ، فحاربوا الى أن أضرّ بهم الجهد ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك » .

وفى اليوم التالى لمصرع المختار ، تقدم جند مصعب الى القصر، وحاول أحد أنصار المختار أن يجمع المختارية ليحارب بهم مصعب، وهو بحير بن عبد الله المسكى ، ولكن رجال المختار أبوا الا الاستسلام لمصعب « فأبوا عليه وأمكنوا أصحاب مصعب من أنفسهم ونزلوا على حكمه فأخرجوهم مكتفين ، فأراد اطلاق العرب وقتل الموالى فأبى أصحابه عليه ، فعرضوا عليه فأمر بقتلهم » [٣] .

وأمر مصعب بقطع كف المختار فقطعت وسمرت بمسمار الى جانب المسجد وظلت هناك حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) يقصد المسعودى « بأهل الكوفة » العرب الأشراف الذين هربوا من الكوفة الى البصرة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٥ .

واليا لعبد الملك بن مروان على الكوفة فأمر بنزعها ، وربما كان هذا راجعا الى انتساب كل منهما الى قبيلة ثقيف .

قتل مصعب بن الزبير جميع من استسلم من رجال المختار ، وكانوا بين ستة وثمانية آلاف ، وأطلق مصعب العنان لانتقام أشراف الكوفة الذين أرادوا الثأر لدماء آبائهم وأقربائهم من الموالى ، فاستحق من أجل ذلك أن يلقب بلقب « الجزار » وتتبع الشيعة بالكوفة بالقتل .

التقى مصعب بن الزبير مع عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسلم عليه وقال له : أنا ابن أخيك ، مصعب . فقال له ابن عمر : نعم ، أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة ، عش ما استطعت . فقال مصعب : انهم كانوا كفرة . فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا[1] ! ووصف اليعقوبى [2] المأساة بأنها « أحد الغدرات المذكورة المشهورة فى الاسلام » .

وكان مصعب قاسيا أيضا مع نساء المختار ، فقد أتى بهن ودعاهن الى البراءة منه ، ففعلن الا زوجتيه ، بنت سمرة بن جندب الفزارى نائب زياد بن أبيه ، وابنة النعمان بن بشير الأنصارى الوالى الأموى السابق بالعراق . وقالت المرأتان : كيف تتبرأ من رجل يقول ربى الله ، كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل شيعته ، فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس .

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٧ .   (٢) اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

تحير مصعب فيما يفعله مع زوجتى المختار ، ازاء اصرارهما وعنادهما ، فكتب الى أخيه عبد الله بن الزبير بالحجاز يخبره بأمرهما وحديثهما . فكتب عبد الله الى مصعب : « ان رجعتا عمّا هما عليه وتبرأتا منه ، والا فاقتلهما » . فهدد مصعب المرأتين بالقتل ، ولم تحتمل بنت سمرة بن جندب التهديد ، وأرادت النجاة من القتل ، فاضطرت الى اجابة مصعب لطلبه ، ولكن أعلنت أنه قد اضطرها الى تكفير المختار ، فقالت : لو دعوتنى الى الكفر مع السيف لكفرت ، أشهد أن المختار كافر ! .

أما ابنة النعمان بن بشير ، فقد أصرت على اخلاصها لزوجها المختار ، ولم تر بأسا فى التضحية بحياتها من أجله ، فقالت : شهادة أرزقها فأتركها ؟! كلا ! انها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون ، آتى مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبى طالب ، اللهم اشهد أنى متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته فقتلها مصعب بن الزبير [1] . وكانت — كما يقول اليعقوبى — « أول امرأة ضربت عنقها صبرا »[2] .

العوامل التى أنهت حركة المختار :

وهكذا غابت شمس حركة المختار ، وأسدل الستار على أكبر الحركات السياسية التى شهدتها بلاد العراق فى العصر الأموى والتى أثرت فى تاريخ الدولة الأموية عامة وتاريخ بلاد العراق

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ ـ ٤٤ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

خاصة ، وانعكست آثارها على جميع الأحزاب والفرق السياسية والدينية . ورغم توفر جميع مقومات النجاح للحركة المختارية الا أنها انهارت وتحطمت ، ولكنها لم تندثر ، فقد ظلت آثارها باقية طوال العصر الأموى ، وكانت عاملا من عوامل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وهذا يدفعنا الى أن نتناول أسباب وعوامل نهاية حركة المختار .

أولا — اخفاق المختار فى صبغ حركته السياسية بصبغة دينية :

أراد المختار أن يحرك عاطفة الناس الدينية ، فعمل على أن يصبغ حركته السياسية بصبغة دينية . فيروى المسعودى[1] أن المختار اشترى كرسيا قديما وشبهه بتابوت بنى اسرائيل ، ونادى بما كانت تعتقده الشيعة من رجعة أئمة الشيعة وعصمتهم ، وغير ذلك من المعتقدات التى لقيت قبولا كبيرا من الموالى الفرس لأنها تتفق مع عقائدهم الفارسية القديمة ، وان كان كثير من العرب أعرضوا عنها تماما . وكان المختار يهدف الى صبغ حركته السياسية بصبغة دينية ، فقد كان الدين سلاح ذلك العصر ، ويسير الدين والسياسة جنبا الى جنب ، فى طريق واحد . وقد مزجت جميع الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت آراءها السياسية بعقائد دينية، وخاصة الشيعة والخوارج والمرجئة . وكانت الشيعة تطلق على الخليفة العلوى لقب « الامام » ، كناية عن نفوذه الدينى ، فهو

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ .

امام المسلمين فى دنياهم ، مثله فى ذلك الامام فى الصلاة . ويعلل بروكلمان [1] صبغ المختار حركته السياسية بصبغة دينية ، بأنه أراد أن يعوض ما كان يشعر به من نقص ، حيث لم يكن له حق فى الخــلافة .

ثانيا — ابن الحنفية لا يؤيد المختار تأييدا مطلقا :

استفاد المختار من اسم محمد بن الحنفية الى أكبر حد ، فى تدعيم حركته السياسية ، فأعلن أنه وزيره وأمينه فى العراق ، وأصبح داعيا لاقامة خلافة علوية فى العراق . ونرى أن المختار كان صادقا فى اخلاصه لابن الحنفية وللمذهب الشيعى ، فقد فتح داره أمام مسلم بن عقيل ، وعرض نفسه لسخط الأمويين ، وقبض ابن زياد عليه وسجنه ، ولولا شفاعة ابن عمــر لبقى طويلا فى السجن ، وضربه ابن زياد على وجهه فشتر عينه . واهتم المختار بالأخذ بثأر الحسين وقتل ابن زياد . وكانت صلاته وهــداياه لا تنقطع عن ابن الحنفية وبنى هاشم فى الحجــاز ، وبعث جيشا يعاضدهم ضد ابن الزبير ، ولولا ذلك لقضى عبد الله بن الزبير عليهــم .

ورغم هذا الاخلاص الظاهر الذى أبداه المختار دائما لابن الحنفية والعلويين ، فان ابن الحنفية لم يعلن تأييده المطلق للمختار. فكان أحيانا يعلن مناصرته للمختار ، وأحيانا أخرى يمسك عن تأييده .

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ .

كان المختار يرجو أن يكون ابن الحنفية حريصا على حقه السياسي فيطالب بالخلافة ويجاهد فى سبيلها ، كما فعل أخواه الحسن والحسين . ولكن ابن الحنفية كان يميل دائما الى الاستكانة والسلام دون الكفاح والجهاد ، فلم يعلن الثورة ، ولم يطلب البيعة له كخليفة ، بل وقف من الأمويين ، أعداء بنى هاشم والشيعة وقتلة الحسين ، موقفا سلبيا ، بينما عارض ابن الزبير الثائر ضد الأمويين مما أضعف موقف الحركة الزبيرية ، كما اقتصر ابن الحنفية فى تأييده للمختار .

نرى سياسة ابن الحنفية واضحة فى كتبه ومواقفه من المختار فقد كتب « أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وعرفت تعظيمك لحقى وما تنوه به من سرورى ، وان أحب الأمور الى ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعت ، وانى لو أردت القتال لوجدت الناس الى سراعا والأعوان لى كثيرا ، ولكنى أعتذر لكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »[1] . فابن الحنفية فى هذه الرسالة يعلن أنه فى غنى من مساعدة المختار ، وأنه لا يريد القتال من أجل حقه ، وأنه يفضل الصبر على الجهاد .

أعلن المختار ولاءه للبيت العلوى منذ اللحظة الأولى ، وأعلن دائما أنه ينوى الأخذ بثأر الحسين ، وان كان قد تأخر قليلا فقد كانت الظروف السياسية لا تسمح بذلك ، فقد كان فى أول الطريق ، لم يثبت أقدامه بعد فى الكوفة ولم يكن جيشا قويا ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠٤ .

ولكن ابن الحنفية لم يقدر ظروف المختار ولم يعذره ، بل تعمد التهكم عليه فكان يقول : « يزعم أنه لنا شيعة وقتلة الحسين جلساؤه على الكراسى يحدثونه »[1] .

وكاد ابن الزبير أن يقضى على ابن الحنفية وبنى هاشم حرقا ، وبعث المختار جيشا بقيادة الجدلى لنجدتهم . وتقدم الجدلى لابن الحنفية فقال : دعنى وابن الزبير . فقال : لا أستحل من قطع رحمه ما استحل منى . وكان عبد الله بن عباس ينصح ابن الحنفية دائما بتأييد المختار ، فقد لمس اخلاصه الدائم لبنى هاشم .

ويبدى جولدتسيهر[2] رأيه فى ابن الحنفية فيقول عنه : كان رجلا ذا عقلية دنيوية ، ومع ذلك فقد كان يمثل المصالح الدينية المقدسة فى سبيل السنن والتقاليد الاسلامية . وشعر بنو هاشم بالخسارة التى لحقت بهم بمصرع المختار ، فيذكر ابن الأثير[3] أنه « لما قتل المختار تضعضعوا واحتاجوا » .

ثالثا — اغفال المختار تكوين حزب سياسى أو البيعة له بالخلافة :

لم يهتم المختار بتكوين حزب سياسى له شخصية مستقلة وله مبادىء ثابتة واضحة ، يستطيع كل فرد أن يفهمها ويعتنقها . وقامت الحركة المختارية على مجهود فردى فارتبطت بشخصية المختار ، فكان المحور الوحيد لهذه الحركة ، حتى اذا انهار المختار

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٣٢ .
(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٢٩ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ١٠٦ .

انهارت حركته بالتالى . ولم يكن للمختار آراء خاصة تتناول المسائل الهامة التى تشغل المسلمين فى ذلك الوقت وخاصة مسألة الخــلافة .

نادى المختار بنفس الآراء التى نادت بها الشيعة ، وأعلن أن هدفه الأسمى هو الأخذ بثأر الحسين من قتلته ، وجعل شعار حركته (يا لثارات الحسين) وهى أهداف محددة لا تصلح لأن تكون أساس حركة سياسية كبرى . فقد كان على المختار ، على هذا الأساس ، أن يعلن بنفسه انتهاء حركته بعد أن حقق أهدافها ، أى بعد مصرع قتلة الحسين . كما أن اقتصار المختار على ترديد مبادىء الشيعة ، يجعله تابعا لا متبوعا ، فرعا لا أصلا ، وكان على المختار أن يكون له شخصية مستقلة لها آراؤها السياسية ، بدلا من أن يكون داعيا من دعاة الشيعة . إن حزب الخوارج حدد له مبادىء ثابتة ، ولذا عاش هذا الحزب طويلا ، رغم انقسامه الى أكثر من عشرين فرقة ، ورغم تعدد الزعماء ، ومثل هذا يمكن قوله على أحزاب الشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية وغيرها .

أهمل المختار أن يبايع لنفسه بالخلافة فيصبغ حركته السياسية بصبغة شرعية ، فيظهر فى حروبه وجهاده أمام المسلمين أنه يدافع عن حقه ، وأنه ليس بخارج على طاعة الدولة أو الخليفة . وأدرك ابن الزبير هذه الحقيقة فأعلن نفسه خليفة بالحجــاز . قد يرد البعض علينا بأن المختار ليس من قريش ، ولكن نقول ان المختار عربى من قبيلة كبرى هى ثقيف : منزلتها فى الطائف كمنزلة قريش فى مكة . كما أن بلاد العراق كانت موطن الخوارج والموالى وهم

يرون أن الخلافة من حق كل مسلم ، عربى أو غير عربى ، حرّ أو مولى ، قرشي أو غير قرشي . وقد بايع الخوارج ، فى عهد على ابن أبى طالب ، أحدهم بالخلافة وهو عبد الله بن وهب الراسبى . ونلاحظ أن جميع الزعماء الذين أعلنوا الثورة دون البيعة لهم بالخلافة قد انتهت ثوراتهم بالفشل مثل عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب بن أبى صفرة .

رابعا — غضب العرب على المختار لاعتماده على الموالى :

يعيب المؤرخ (نيكلسون)[1] على المختار اعتماده على الموالى ، فهو يرى أن المختار باعتماده عليهم قد حول حركته ضد العربّ بدلا من أن تكون ضد الأمويين . ويعلق (ميور)[2] على سياسة المختار فيذكر أنه بنى مستقبله السياسى على أساس من الرمال ، فلم يكتب له البقاء والدوام . أما (فلهوزن)[3] فيدافع عن المختار فيقول : ان المختار لم يكن يرمى الى اثارة الموالى ضد العرب ، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق ، وأن الشيعة كانت كلها من ورائه حتى استطاع أن يجتذب اليه الأرستقراطية العربية المعادية . ويرى فلهوزن أن المختار خليق بالمديح ، فقد كان أسبق من غيره فى ادراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى دائما حيث العرب يتمتعون بجميع الحقوق دون الموالى . ولو نجح المختار فى تحقيق غرضه لأصبح منقذ الدولة العربية ، كما يذكر

---

(١) Lit. Hist.of The Arabs, p. 215

(٢) The Caliphate, p. 535

(٣) الخوارج والشيعة ص ٢٥٣ .

فلهوزن[1] أيضا أن ثورة الموالى بقيادة المختار بيّنت مدى الخطر الذى كان يهدد الدولة العربية من جانبهم . وقد قضى على هذه الثورة باراقة دماء القائمين بها ، ولكن مَلْء الفجوة التى أوجدها السيف فى صفوفهم كان سهلا بفضل المسلمين الجدد الذين جاءوا من القرى والرساتيق ، هؤلاء المسلمين الذين ربما كانت روحهم أكثر حبا للاسلام من غيرهم ، ولكن كانت لهم نفس المصالح التى كانت لطبقة الموالى ، وكان هذا بمثابة فجوة فى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب ، ذلك أن مدن الجيش والحكومة لم تلبث أن فقدت طابعها العربى المميز .

خامسا — اهمال المختار الاستعانة بقائده ابراهيم بن الأشتر:

كان ابراهيم بن الأشتر من أعظم القواد الحربيين فى العصر الأموى ، كما كان شريفا فى نسبه وقومه وله عصبية كبيرة ، فهو من قبيلة نخع من مَذْحِج . وقد أثبت جدارته الحربية فى جميع المعارك التى اشترك فيها ، سواء فى طرد ولاة ابن الزبير أو قتال ابن زياد . وحرص المختار عند بداية حركته على أن يجذب ابن الأشتر اليها ، فنراه يسوق الناس لاقناعه ، ثم استصدر كتابا من ابن الحنفية يطلب فيه من ابن الأشتر الانضمام الى المختار ، وأشهد المختار الناس على صحة هذا الخطاب . وحرص المختار على أن يقود ابن الأشتر جيوشه فى شتى المعارك الكبرى .

ثم أقبل مصعب بن الزبير بجيش كبير لقتال المختار ، ورغم أن المختار قد أدرك أن المعركة ستكون فاصلة وأنها ستقرر مصيره ،

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٧٠ .

فانه أغفل استدعاء ابراهيم بن الأشتر من الموصل ، وكان قد ولاه عليها ، ليتولى قيادة جيوشه ، وخاصة أن مصعب ولّى بطلا هو المهلب بن أبى صفرة ، بل أمر المهلب بمهادنة الخوارج رغم خطورتهم ليتفرغ لقتال المختار . ويعلل (فلهوزن)[1] ذلك بأن المختار ربما أصبح يشك فى اخلاص ابن الأشتر . ولكن الموقف كان يقتضى التغاضى عن ذلك . ويرى فلهوزن أنه لو اشترك ابراهيم فى هذه المعركة لاتخذت الأمور مجرى آخر بسهولة ، فقد كان ينقص جيش المختار القائد ، وابراهيم كان خير من يواجه المهلب .

سادسا — تخاذل أهل الكوفة :

وقع المختار فيما وقع فيه علىّ بن أبى طالب ، وابنه الحسن ، وابنه الحسين ، ومسلم بن عقيل بن أبى طالب ، وما سيقع فيما بعد منه زيد بن على ، وعبد الله بن معاوية ، وهما من حفدة على ابن أبى طالب .

وصف علىّ بن أبى طالب تخاذل أهل الكوفة فى قوله لهم : « أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، يجيبونه فى السنة المرتين والثلاث ، الى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عنى وتعصوننى وتختلفون علىّ »[2] .

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٢٩ .
(٢) البيهقى : المحاسن والمساوى ج ٢ ص ٥٦ .

يرجع الدينورى[1] نزول الحسن عن الخلافة الى موقف أهل الكوفة منه : « ولما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل الى عبد الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلّم له الخلافة » . ومرّ بنا كيف تخلى الكوفيون عن مسلم بن عقيل ، فقد كان أنصاره فى الكوفة ثلاثين ألفا فتضاءلوا حتى أصبحوا ثلاثين رجلا ، ثم تركوه يلقى مصيره . وتخاذل الكوفيون عن الحسين بن على « حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة »[2] ، وأنكروا كتبهم التى بعثوها له يدعونه الى الكوفة ، فكانت مأساة كربلاء .

وتكرر الموقف مع المختار ، فكان اذا خرج من القصر رماه الكوفيون من فوق البيوت ، وصبوا عليه الماء القذر . وكانوا بالأمس يضعون على رأسه أكاليل الغار ، ويهتفون باسمه . وحاول المختار أن يحث جنده المعتصمين معه بالقصر على القتال وذكرهم بما ينتظرهم على يد مصعب اذا لقى حتفه ، فلم يعيروه أذنا صاغية ، وتركوه وحيدا يلقى حتفه ، ولكن شاءت المقادير أن يشاركوه مصيره فقد قتلهم مصعب أيضا .

سابعا — مصعب يخدع قائد المختار :

لم يلجأ مصعب فى نضاله للمختار الى القوة الحربية فحسب ، بل لجأ كذلك الى المكيدة والخداع . فقد علم مصعب أن معظم جند المختار يتألف من الموالى ، ورأى مصعب أن يحرم المختار من

(١) الأخبار الطوال ص ٢٣١ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

هؤلاء الجند المتحمسين ، فقد استمال أحد قواد المختار وهو عبد الله بن وهب بن أنس ، واستطاع هذا أن يخدع أحمر بن شميط قائد المختار ، فأشار عليه ألا يسمح للموالى بركوب الخيل خشية فرارهم من المعركة ، ونجحت الخدعة ، فكانت النتيجة فتك فرسان مصعب بالموالى المشاة وابادة غالبيتهم ، وعلم المختار بمصرع معظم جنده فتحصن بالقصر . كما أن مصعب قد بعث أحد رجاله سرا الى الكوفة ، فأخذ ينفّر العرب من الانضمام الى المختار ، ويمنيهم بالوعود والمكافأة ، فآثروا التخلى عن المختار والانضمام الى مصعب . ففقد المختار بهذه الطريقة أنصاره من الموالى والعرب .

ثامنا — مرض المختار فى أثناء المعركة :

ركّز المختار جميع جوانب الحركة فى شخصه ، فكان الزعيم السياسى ، والقائد الحربى . وفى المعركة الأخيرة الفاصلة رأينا المختار يحجم عن تعيين ابراهيم بن الأشتر قائدا لجيشه الذى وجهه لقتال المختار ، بل ولّى ابن شميط حتى اذا قتل تولّى المختار قيادة المعركة بنفسه ، لكنه أصيب بمرض شديد فى أول المعركة لازمه طوال الحرب ، فيذكر المؤرخ اليعقوبى [1] « وكان المختار شديد العلة من بطن به » . ولا شك أن مرض المختار — وهو القائد الأعلى — يحد من نشاطه وجهوده .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

أثر المختار في تاريخ العصر الأموي :

(السياسي ، الديني ، الاجتماعي ، الاقتصادي)

اخفاق الحركة الزبيرية ـ أثر حركة المختار في تاريخ الدولة الأموية ـ تعدد ثورات الموالي ـ سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ـ التطور السياسي لحزب الشيعة ـ ظهور فرقة الكيسانية ـ ظهور فرقة الهاشمية ـ أثر المختار في الحياة الاجتماعية ـ أثر المختار في الحياة الاقتصادية .

الفصل الثانى عشر

أثر المختار فى تاريخ العصر الأموى

(السياسى ، الدينى ، الاجتماعى ، الاقتصادى)

إخفاق الحركة الزبيرية :

كان معظم أهل العراق من شيعة علىّ بن أبى طالب ، وقد غضبوا بالأمس لاقدام يزيد بن معاوية على قتل زعيمهم الحسين ابن على ، وكان هـذا من عوامل تأييدهم لعبـد الله بن الزبير باعتباره ثائرا على الدولة الأموية . ولكن أهل العراق غضبوا على ابن الزبير لموقفه السلبى من التوابين . حتى اذا ظهر المختار وأعلن أنه وزير ابن الحنفية وأخذ بثأر الحسين التفوا حوله . ولذلك كان اقدام ابن الزبير على قتل المختار عاملا على ثورة أهل العراق على الحركة الزبيرية ، فتخلوا عن تأييد مصعب بن الزبير مما سهل أمر انتزاع العراق على عبد الملك بن مروان .

وقد لام عبد الله بن عباس بن عبد المطلب مصعب بن الزبير على قتل المختار ، وتحدث عن المختار فقال : « ذاك رجل قتل قتلتنا وطلب ثأرنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة » . وقال ابن عباس لعروة بن الزبير : قد بقيت لكم عقبة

كؤود فان صعدتموها فأنتم والا فلا . يقصد عبد الملك بن مروان[1] .

صفت الأحوال لعبد الملك بن مروان فى الشام ، واستقرت له الأمور بعد قضائه على منافسيه من بنى أمية ، فوجه وجهه نحو العراق المضطرب بنيران الفتنة والفوضى . وكان مصعب واليا عليه لأخيه عبد الله بن الزبير فبذل جهده فى تهدئة الثورات وارضاء الزعماء الساخطين . ولكن كان الخرق قد اتسع ، فقد ورثه المختار تركة مثقلة بالأعباء . فالخوارج يهددون البصرة ، والشيعة تطالب بثأر المختار ، وحاول الأمويون استمالة الأحزاب ، والزعماء . واستفاد عبد الملك من الفوضى السائدة بالعراق ، فزحف بجيش كبير قضى به على مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ .

وكان القضاء على الحركة الزبيرية فى العراق ايذانا بغروب شمس عبد الله بن الزبير . فقد استقرت الأمور لعبد الملك بن مروان فى جميع الأمصار ما عدا الحجاز . وتألم عبد الله بن الزبير لضياع العراق ومصرع مصعب ، وأدرك أن مصرع مصعب بمثابة أول مسمار يدق فى نعشه . وبعث عبد الملك جيشا بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفى حاصر ابن الزبير بمكة وقتله .

أثر حركة المختار فى تاريخ الدولة الأموية :

لعب المختار دورا كبيرا فى الحياة السياسية فى العصر الأموى، وأثرت حركته فى مجريات الحوادث ، واستمر تأثيرها طوال العصر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

الأموى ، وكانت الحركة المختارية من عوامل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

ولا شك أن سماح المختار لمسلم بن عقيل بن أبى طالب أن يتخذ من داره مكانا لتلقى البيعة للحسين بن على من أهل العراق ساعد على انتشار الدعوة العلوية الشيعية بالعراق ، وبالتالى الى معارضتهم للحكم الأموى . ونجح المختار فى صبغ العراق بالصبغة الشيعية طوال فترة سيادته ، وخاصة بعد أن أعلن أنه وزير ابن الحنفية وأخذ بثأر الحسين . ولذا نعتبر المختار عضد حزب الشيعة ، ذلك الحزب الذى أقلق الدولة الأموية دائما ، حتى تنازل العلويون الى العباسيين الذين قضوا على الدولة الأموية ، وأقاموا دولتهم فى بلاد العراق .

كانت حركة المختار سببا لضياع العراق من قبضة الدولة الأموية منذ وفاة يزيد بن معاوية الى خلافة مروان بن الحكم ، ومطلع عهد عبد الملك ، حتى استطاع عبد الملك القضاء على الحركة الزبيرية فى العراق ، ثم فى الحجاز . والمختار هو الذى قضى على الجيش الأموى بقيادة عبيد الله بن زياد فى موقعة خازر ، ذلك الجيش الذى بعثه مروان بن الحكم لانتزاع العراق من أيدى ولاة ابن الزبير ، ولم يكن موجها ضد المختار . كما أن المختار تتبع قتلة الحسين واضطهد العرب الأشراف فى الكوفة ، وكانوا عملاء الأمويين فى العراق .

وان كانت هذه هى قائمة بما لحق بمصالح الدولة الأموية من أضرار نتيجة قيام الحركة المختارية ، فقد أفاد الأمويون ،

بطريق غير مباشر ، من الحركة المختارية . أفادوا من حث المختار للشيعة على الامتناع عن الانضمام الى سليمان بن صرد زعيم التوابين ، ومنافس المختار فى زعامة الشيعة ، مما أدى الى ضعف صفوف التوابين ، فأصبحت مهمة الجيش الأموى فى القضاء عليهم يسيرة سهلة . كما أن المختار شغل دائما ولاة ابن الزبير عن تثبيت أقدامهم فى العراق ، وكانت بلاد العراق مسألة حياة أو موت بالنسبة للحركة الزبيرية ، فهى موطن المال والرجال ، وكان ضياع العراق من أيدى الزبيريين ايذانا بالقضاء على الحركة الزبيرية تماما . فانشغل مصعب بن الزبير بقتال المختار عن الاستعداد لقتال عبد الملك بن مروان ، بينما كان عبد الملك منصرفا الى تجنيد كل قادر على حمل السلاح ، ولقى عبد الملك مصعبا وقد أنهكه قتال المختار فسهل عليه القضاء عليه ، وكان أهل العراق قد ملوا القتال فآثروا الهدوء . ويرى فلهوزن أن سخط أهل الكوفة على مصعب لقتله المختار كان سببا فى تأييدهم المؤقت لعبد الملك بن مروان ، فقال : ولم تكن أهواء أهل الكوفة الى جانب مصعب ، ولم يستنجد به أشراف الكوفة ليساعدهم على المختار الا لأنهم كانوا مضطرين الى ذلك ، وكثيرون كانوا يكرهونه ، لأنه جعل دماء أتباع المختار تجرى أنهارا ، ولهذا كانت مهمة عبد الملك سهلة ، فأدخل مِعوَله بين أهل الكوفة (١) .

---

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٩١ .

تعدد ثورات الموالى :

اعتمد المختار فى حركته على تأييد الموالى ، ورفع من شأنهم ، فولاهم المناصب وأزال أسباب تذمرهم ، وأشركهم مع العرب فى العطاء ، وكان معظم جنده منهم . وقام صراع بين العرب بزعامة مصعب بن الزبير ، والموالى بزعامة المختار حول السيطرة على العراق . ويبدو أن العرب كانوا أكثر قوة أو أن الموالى كانوا أضعف ايمانا بمبادئهم ، فقد نجح مصعب فى القضاء على المختار ، كما قضى على أربعة آلاف من أتباعه من الموالى . ويبدو أن الموالى قد غضبوا على مصعب لموقفه منهم ، فتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك بن مروان . وبانتصار عبد الملك عاد الموالى يعانون قسوة الولاة الأمويين مرة أخرى .

ولكن المختار كان قد أيقظ فى نفوس الموالى آمالا كبيرة عملوا على تحقيقها ، ومنحهم حقوقا سياسية واجتماعية حرصوا على الاحتفاظ بها دائما . ولذا نعتبر ثورات الموالى المستمرة طوال العصر الأموى نتيجة مباشرة لحركة المختار .

وكان المختار يولى الموالى فى المناصب ، وكان حديث معسكر المختار باللغة الفارسية . ولكن بعد قضاء عبد الملك بن مروان على مصعب وبعد سيطرته علي العراق بدأ تعريب الدواوين من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ، فكان لهذا أثر كبير فى نفوس الموالى ، فقد قضى على آخر مظهر من مظاهر السيادة الفارسية .

كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ، وهو عربى ، أعظم

ثورات الموالى خطرا ، وقد قامت فى العراق فى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى والى عبد الملك بن مروان ، وبعد سنوات قليلة من مصرع المختار ، وتعتبر تكملة لحركة المختار ، وقامت على أنقاضها . وتحدث فلهوزن[1] عن حركة ابن الأشعث وحركة المختار ، باعتبارهما من حركات الموالى ، ووازن بينهما فقال : لم يكن سقوط المختار نهاية حركة الموالى ، وكان على الحجاج مقابلة هذه الصعاب وحل مشكلة حقوق الموالى السياسية فضلا عن مشكلة الضرائب . ومن المؤكد أن حركة ابن الأشعث لها أصلها فى الكوفة مثلها فى ذلك مثل حركة المختار ، كما كانت أغراض ابن الأشعث أكثر تحديدا من أهداف المختار ، فلم يستوح فكرتها من الموالى ، رغم انضمام الكثير منهم اليه ، فقد كان هناك مائة ألف عربى فى دير الجماجم ، وهى المعركة التى دارت بين ابن الأشعث والحجاج ، وما اشترك الموالى الا لأنهم كانوا يصحبون أسيادهم العرب دائما ، فكان الموالى مشاة والعرب فرسانا ، وليس معنى اشتراك الموالى فى حركة ابن الأشعث أن تتخذ صبغة الموالى ، حقا قد يكونون غاضبين على الحكم الأموى ، لكنهم كانوا عنصرا ثانويا فى هذه الحركة . ولكن هزيمة ابن الأشعث كانت نقمة على الموالى ، فبدأت فترة جديدة من التعذيب والاضطهاد ، فتعددت ثورات الموالى طوال العصر الأموى .

---

(١) The Arab Kingdom, p. 246

سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية :

وصف فلهوزن[1] الموقف بعد مصرع المختار ، فقال : ولما تولى الحجاج على العراق كانت تنتظره مهام ثقيلة ، فكانت هذه البلاد تضطرب كالمرجل ، ولم يكن ذلك لمجرد الصراع الذى استمر سنين طويلة حول الخلافة . وقد أخمدت الثورة العنيفة التى قام بها شيعة الكوفة ومن انضم اليهم من الموالى ، بقيادة المختار الثقفى ، ولكنها خلفت فى النفوس نارا متوقدة . ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها . ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن يقضى عليهم ، وقد فتوا فى عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج . فلما هزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب فى ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك الموقف ، وانضم الى المنتصر . ولكن الأمراء الأمويين الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق لم يكونوا يعملون الا لتولى المنصب بلا عمل .

كانت هذه هى التركة الثقيلة التى خلفها المختار للأمويين فى بلاد العراق ، فقد وضع المختار بذور الضعف والاضطراب ، ونمت هذه البذور ، واستفحل الأمر ، مما عجل بسقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية .

(١) تاريخ الدولة العربية ص ٢٨٤ .

بنى العباسيون شرعية حقهم فى الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد بن الحنفية ووريثه ، وهو أبو هاشم ، قد تنازل عن حقه للعباسيين . كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة من الموالى والسبئية فى الكوفة وخراسان أداة لهم ، وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة الى أبى هاشم المذكور ، وكان معظمهم من البقية الباقية من أنصار الحركة المختارية .

حاول الدعاة العباسيون منذ سنة ١٠٠ هـ استمالة الشيعة والموالى الى جانبهم ، فأعلنوا أنهم لا يسعون الى الخلافة ، وانما يعملون على القضاء على الدولة الأموية ، فلم يأخذوا البيعة لأحد العباسيين ، وانما كانت تؤخذ البيعة لأحد أفراد البيت النبوى وقد رمزوا اليه بالرضا من آل محمد . ورأى الدعاة العباسيون أن ينشروا دعوتهم بين موالى خراسان ، اذ أنهم لم يثقوا بموالى العراق لتخليهم عن على والحسن والحسين والمختار وزيد بن على ، كما أن موالى خراسان كانوا أكثر اتحادا وتضامنا ، فضلا عن غلبة العنصر العجمى فيها على العنصر العربى [١] .

تتميز ثورة أبى مسلم الخراسانى ، الذى قضى على الدولة الأموية ، عن غيرها من حركات الموالى ، فى أن زعيمها أحد الموالى ، بينما كان المختار أو ابن الأشعث من العرب . عرف العباسيون كيف يغرون الموالى على الانضمام اليهم ، فاتخذوا حق بنى هاشم الشرعى فى الخلافة أساسا سياسيا ، ونادوا بتحسين

---

(١) Wellhausen : The Arab Kingdom, p. 493

أوضاع الموالى ومساواتهم بالعرب ، وهى نفس السياسة التى دعا المختار اليها .

كانت معركة الزاب التى قامت بين الأمويين وموالى خراسان والعراق فى جمادى الآخرة سنة ١٣١ هـ هى الفاصلة ، واستعاد الموالى حريتهم وحقوقهم ، التى حرموا منها بعد مصرع المختار ، بعد أن فاز العباسيون بالخلافة ، وصار الفرس يلون المناصب فى الدولة العباسية الوليدة [١] .

تحدث فلهوزن عن الصلة بين حركة المختار وأنصاره الشيعة وبين الدعوة العباسية ، فقال : كانت هناك صلة بين العباسيين وبين الشيعة أصحاب المختار ، ذلك أنه من بين أصحاب ابن الحنفية ظهر أصحاب ابنه وهم الهاشمية . ولم يقض على المختارية فى الكوفة بقتل المختار ، بل هم بقوا بين الطبقات الدنيا للشعب . والآراء التى كان يكتمها الهاشمية ، كما يذكرها الشهرستانى ، لا تختلف عن آراء الشيعة فى شىء ، وتآمر العباسيين يشبه تآمر الشيعة شبها تاما ، وكان مقر العباسيين فى الكوفة أيضا ، ومن هناك كانوا ينشرون دعوتهم فى خراسان ، وفى كلتا الدعوتين : دعوة الهاشمية ودعوة العباسيين ، استندت الى الموالى من الأعاجم وصارت موجهة ضد الدولة الأموية . واذن فالشبه بين الدعوتين يشمل كل النقط الهامة ، فيشمل الآراء وطريقة الدعوة ومقرها والحزب الذى كونته .

ويستطيع الانسان أن يزيد على ذلك نقطتين من حيث

(١) الفخرى ص ١١٤ .

التفاصيل : كانت العمد الخشبية هى السلاح الوطني عند أهل الطبقة الدنيا من سكان بلاد العجم ، وقد سميت هذه العمد باسم كفر كوبات عند خشبية المختار ، فكانت هــذه التسمية عندهم سابقة لتسميتها عند خشبية أبى مسلم . وكان أقدم أتباع المختار هم الموالى الذين كانوا فى ضيعته فى قرية الخطرنية من سواد الكوفة . وكان أبو مسلم — كما يذكر الطبرى — من أهــل الخطرنية .

ويرى فلهوزن[1] أن هذا كله يدل على وجود علاقة وثيقة بين ثورة المختار التى أخفقت وثورة أبى مسلم التى نجحت . وبالرغم من أن نار الثورة التى قامت فى ٦٧ هـ قد أطفأتها الدماء فيما يظهر فانها ظلت تومض تحت الرماد ، وانتقلت من الكوفة الى خراسان وهى أكثر ملاءمة ، لأن الموالى كانوا فيها أكثر تماسكا ، وكان العرب بالنسبة لهم أقل مما كانوا فى الكوفة بكثير . ولقد كان المختار رجلا من أكبر شخصيات التاريخ الاسلامى ، وقد توقع ما يحدث فى المستقبل . واذا صحت نظرية الرجعة فان روح العربى الذى ثار فى قرية الخطرنية قد رجعت فى أبى مسلم ، أحد موالى هذه القرية .

التطور السياسى لحزب الشيعة :

يرى المؤرخ (لامانس) [2] أن مقتل المختار أدى الى تطور كبير فى تاريخ حزب الشيعة السياسى ، فقد اتجه الشيعة منــذ

(١) تاريخ الدولة العربية ٤٧٨ . (٢) L' Islam p. 159

مصرعه الى الدعوة السرية ، وكانت تحارب جهرا كلما أمكنها ذلك ، الا أن الظروف لم تساعدها على ذلك ، فتحولت الى المقاومة السرية ، وكان هذا أمرا محتوما لما نعلمه عن اضطهاد الأمويين للشيعة ، وما لقيه أنصار المختار من مصعب بن الزبير .

فلا عجب أن وضعت الشيعة مبدأ التقية الذى يبيح الاختفاء وكتمان ما تكنه الصدور من العقائد ان كان عليهم من حرج أو بأس أو ضرر . كما أصبحت أقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء : فوضعت أنظمة سرية لنشر المبادىء الشيعية بين الجماهير ومن الطبيعى أن هذه الأنظمة كانت موضع مراقبة السلطات الأموية ومطاردتها ، وكان اضطهاد العلويين هو شغل الحكام الشاغل ، ولم يفت هؤلاء أن يروا فى الدعاية السرية التى تبثها الشيعة خطرا يهدد سلامة الدولة وأمنها .

وقد اتفق الخوارج والشيعة على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ولذا اشتركوا فى مناهضتهم ، لكن الخوارج غلبت عليهم البدوية فى الصراحة . فصاروا لا يعترفون بما نادت به الشيعة من تقية وكتمان ، ومن ثم ناضلوا الأمويين جهارا ، ولكن رغم ذلك كانت الشيعة أكثر خطرا على الدولة الأموية لأن حركة المقاومة التى تقودها سرية ، كما أنهم يدعون الى هدم الخلافة الأموية ليقيموا بدلا منها خلافة علوية فى العراق .

وتحدث (فلهوزن) [1] عن تطور حزب الشيعة فى عصر

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٣٨ .

المختار وبعد مصرعه ، فقال : كان التشيع فى الكوفة ، آنذاك قد لبس ثوبا جديدا ، وقد عرفنا من قبل المعنى الذى كان يدل عليه فى الأصل ، لقد كان تعبيرا عن الاتجاه السياسى العام لمعارضة العراق لسلطان الشام ، وفى بادىء الأمر كان الأشراف صفا واحدا مع سائر الناس ويتولون قيادتهم . ولكن حينما أحدق الخطر تراجعوا واستلانوا لاغراء الحكومة الأموية بالشام ، ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية . وبهذا انفصلوا عن الشيعة . فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية فى تعارض مع الأرستقراطية ونظام العشائر ، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالى خيالى . وكان أنصار سليمان بن صرد يرمون الى الثورة مع أرستقراطية العشائر فى الكوفة ، ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا .

ظهور فرقة الكيسانية :

كانت حركة المختار سببا فى ظهور الكيسانية . واختلف المؤرخون فيمن يكون كيسان الذى نسبت اليه هذه الفرقة . ويرى نشوان الحميرى [1] أن كيسان هو المختار وقد سماه علىّ بهذا الاسم ولكنه لا يذكر سبب هذه التسمية . أما الشهرستانى [2] فيرى أن كيسان هذا قد يكون مولى لعلىّ بن أبى طالب أو تلميذا لابن الحنفية فاستطاع أن يحيط بالعلوم ويقتبس الأسرار عن

(١) الحور العين ص ١٨٢ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٥ .

هذين السيدين من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس . ويرى البغدادى [1] أن المختار هو كيسان ، كما يوجد فى نفس الوقت مولى لعلىّ بهذا الاسم أيضا . ويرى كاتب شيعى [2] أن المختار هو كيسان وأنه سمى بهذا الاسم لأن أباه حمله وهو صغير فوضعه بين يدى علىّ فمسح بيده على رأسه وقال : كيّس كيس . فلزمه هذا الاسم .

تذهب الكيسانية الى أن الامام هو محمد بن الحنفية بعد أخيه الحسين . وانقسمت هذه الجماعة الى فرقتين : فالأولى ترى أن ابن الحنفية هو الامام بعد الحسين ولا امام بعده ، وأنه هو المهدى المنتظر وأنه غاب فى جبل رضوى ، وهو الذى جاء ذكره عن النبى وعن أمير المؤمنين يظهر فى آخر الزمان فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا .

والفرقة الثانية ترى أن محمد بن الحنفية امام بعد الحسين وبموته انتقلت الامامة الى ابنه — أبى هاشم — ثم كانوا يسندون الامامة للواحد بعد الآخر ، ويختلفون ويتشعبون فى آرائهم وأقوالهم ، وفيمن تسند اليه الامامة .

ظهور فرقة الهاشمية :

تفرعت عن الكيسانية فرقة الهاشمية ، وقد أجمعت على امامة محمد بن الحنفية ، وقد أوصى الى ابنه عبد الله بن محمد المعروف

---

(١) الفرق بين الفرق .
(٢) على بن الحسين الهاشمى : محمد بن الحنفية ص ٧٥ .

بأبى هاشم بالامامة من بعده . وقد نظم أبو هاشم الدعوة وجاهد فى ضم صفوف الشيعة سواء أكانوا غلاة أم معتدلين ما دام يجمعهم كراهية الأمويين واضطهاد ولاتهم لهم ، وحاول التوفيق بين الاسلام والعقائد غير الاسلامية تلك العقائد التى كانوا لا يكشفون خباياها الا لمن يكرسونه لهذه الدعوة .

وتحدث (رونلدسن)[1] عن تنازل الكيسانية للهاشمية فقال : عندما كان الاستياء من ضغط الأمويين العسكرى على أشده تهيأت فرصة نادرة أدت الى الاتحاد بين أهم فرعين من البيت الهاشمى . فان امام الكيسانية وهو حينئذ أبو هاشم بن محمد بن الحنفية كان قد استدعاه الخليفة هشام لزيارة دمشق ، وكان الخليفة عارفا بما يبيته الكيسانية من الدعوة فى خراسان . فكان يخاف أبا هاشم ، اذ هو الزعيم القوى للثورة فسماه (الخبيب) . ولما شعر أبو هاشم بقرب موته تنازل عن حقه فى الخلافة الى محمد بحضور الكيسانية . فلما مات أبو هاشم قام محمد بالدعوة بعد أن حصل على تأييد الكيسانية بعزم أشد . غير أنه مات قبل أن ينال غرضه ، فعهد بالامامة الى ولده ابراهيم . وأخذ ابراهيم يرسل الدعاة الى الأطراف بادئا بخراسان ، فقد كان يعتمد على أهلها أكثر من غيرهم ، لأن أكثر الكيسانية كانوا فى خراسان والعراق ، وقد ثار سكان هاتين الولايتين مساندة للعلويين عدة مرات .

---

(١) عقيدة الشيعة ص ١٣٣ .

وجد غلاة الشيعة الكيسانية قبولا فى الفرع الحنفى (ابناء محمد بن الحنفية) فتكونت حركة سريعة واسعة باسم العلويين ، وبدأت بتنظيم أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم استغلها محمد ابن علـى العباسى ، وبوفاة هاشم وبحسب وصيته اتقل ولاء الهاشمية أتباعه الذين تفرعوا من الكيسانية الى محمد بن على العباسى ، وتكون الحزب العباسى السرى بين الموالى ، وانتشر من العراق شرقا . فنجح فى خراسان حيث كان يكثر الغلاة وأتباع بقايا الحركات الاجتماعية الفارسية ، وقد شجع الدعاة العباسيون هذه الاتجاهات [1] .

بنى العباسيون شرعية حقهم فى الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد بن الحنفية ووريثه ، وهو أبو هاشم ، قد تنازل عن حقه للعباسيين ، كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة ، فى الكوفة وخراسان أداة لهم ، وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة الى أبى هاشم [2] .

أثر المختار فى الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع العربى وقت ظهور المختار ينقسم الى أربع طبقات اجتماعية : العرب وهم الطبقة الحاكمة ، والموالى وهم المسلمون الجدد من غير العرب ، وأهل الذمـة وهم أصـحاب الكتب السماوية ، ثم الرقيق . لم يندمج العرب الفاتحون بأهالى العراق

(١) الدورى ص ٧٩ .
(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٢٤٨ .

الأصليين فى بادىء الأمر ، وسبب ذلك سياسة عمر بن الخطاب ، فقد أمر بترك الأراضى لأصحابها العراقيين ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، كما أمر عمر قائده سعد بن أبى وقاص بأن لا تسكن الجيوش الاسلامية المدن وألا يخالطوا أهل العراق ، وأن تسكن الجند العرب المعسكرات التى أقيمت فى البصرة والكوفة ، فقد كانت حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التى تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الاسلامية . ويعلل ابن خلدون [١] نهى عمر العرب عن مخالطة الأعاجم برغبته فى حفظ اللغة العربية .

لم يكتب لسياسة عمر البقاء ، فقد سارع المسلمون الى الاقامة بالبصرة والكوفة واختلطوا بأهل البلاد . ولما تولى عثمان سمح للعرب بالخروج الى العراق وامتلاك الأراضى[٢] . وأدت اقامة العرب فى مدن العراق الى امتزاجهم بأهل البلاد ، فقد تعاونوا جميعا فى الحياة الإجتماعية والاقتصادية . وأصبح الطريق ممهدا لامتزاج حضارة العرب بحضارة أهالى العراق ، فقد كان العرب أميين فاضطروا الى الاعتماد على غيرهم فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، لكنهم أدخلوا تعديلات على نظم البلاد التى فتحوها بما يلائم الدين الاسلامى .

كان من أبرز العوامل التى أثرت فى حياة الموالى الاجتماعية تعصب العرب ضدهم ، فقد احتقر الأمويون بتأثير العصبية جميع الأقوام غير العربية ، وعدّوهم فى منزلة اجتماعية أدنى من العرب،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦٤ .

وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب . فالعصبية تبدأ للبيت الأموى ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية .

أما الرقيق ، فكانت الطبقة الاجتماعية الرابعة . وكان معظمهم من أسرى الحروب التى دارت بين العرب والفرس ، وخيّر القرآن المسلمين بين قتل الأسرى أو فدائهم أو المن عليهم باطلاق سراحهم بغير فداء ، أو الاسترقاق[1] . ولم يسترق العرب الفاتحون الا حاميات المدن التى قاومتهم مقاومة عنيفة ، وكان المسترقون من الأسرى يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس وتوزع أربعة الأخماس الباقية بالتساوى على الجند[2] . وتزايد الرقيق فى العراق لما قام به الأمويون من فتوح فى الأطراف الشرقية من الدولة الاسلامية . ولم يكن العبيد جميعا من الأسرى ، بل كان منهم من صار شراؤه من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة فى ذلك الحين فى بلاد العراق . وكان العرب يشترونهم لاستخدامهم فى زراعة الأرض أو مساعدتهم فى حرفهم أو خدمتهم فى قصورهم وبيوتهم أو فى حروبهم .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ .

(٢) عرف الفقهاء المسلمون الرق بأنه عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . وعرف الافرنج الرق بأنه حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكا للغير . احتفظ الاسلام بنظام الرقيق القديم الذى أقرته التوراة وعرفه الرومان والفرس مع وضع قيود شديدة تجعل الرقيق فى حالة طيبة جدا .

وفى أيام المختار تغيرت الأوضاع الاجتماعية المعتادة . فبعد أن كانت طبقة العرب هى الطبقة الاجتماعية الأولى ويليها طبقة الموالى ، انقلبت الأوضاع فبرزت طبقة الموالى وأصبحت فى المقدمة تليها طبقة العرب . فقد أدرك المختار أن الموالى خير من يعتمد عليهم فى حركته السياسية ، فقد كانوا يمثلون غالبية سكان الكوفة ، ويحتكرون معظم الأعمال الهامة ، ففى أيديهم المهن والحرف والصناعات والتجارة ، فقد كان العرب يكتفون بمناصب الحكم والادارة الحرب ويأنفون من احتراف المهن المختلفة ، مما أدى الى سيطرة الموالى على النشاط الاقتصادى فى العـراق ، وأصبح الموالى على جانب كبير من الثراء وامتلكوا الضـياع الواسعة ، وأصبحوا على نصيب كبير من الحضارة . كما أن الموالى أقبلوا على اعتناق مذهب الشيعة الذى كان أساس حركة المختار .

ولذا قرب المختار الموالى اليه ، وولاهم المناصب الكبرى فى الدولة ، واتخذ منهم عدة جيشه ، وزاد فى عطائهم ومرتباتهم . فشاركوا العرب فى مناصب الادارة والحرب التى حرموا منها بالأمس ، وأصبحوا فى الحقيقة يقبضون على مقاليد الأمور فى العراق . وكان المختار قد قطـع صـلاته تماما بالدولة الأموية وبالخلافة الزبيرية فى الحجاز ، فتمتع الموالى بعصر جـديد من الاستقلال ذكرهم بالعصر الفارسى ، حيث كان للدولة الفارسية كيانها وعظمتها . فبث المختار فى نفوس الموالى روح القومية والعـزة .

وأصبح العرب فى عصر المختار طبقة اجتماعية فى المرتبـة

الثانية . فقد أبوا تأييد المختار منذ اللحظة الأولى ، ووقفوا منه موقف المعارضة ، وكان الدافع الى اتخاذهم هذا الموقف رغبة المختار فى تحسين أحوال الموالى الاجتماعية والاقتصادية . وكانت الأحوال ومجريات الأحداث تقتضى هذه السياسة ، فقد تعالت أصوات الموالى بالشكوى ، وباتوا يتلمسون الفرص للثورة على الدولة الأموية ، وبات الانفجار مترقبا ، وكانت سياسة المختار هى التى أجلت هذا الانفجار ، ولو احتفظت الدولة الأموية بسياسة المختار لتجنبت ما لاقته من مصير مؤلم فى سنة ١٣٢ هـ .

لم يكن كل هؤلاء الموالى الذين اضطهدهم العرب من طبقات الفلاحين ، بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم[١] . وكان فريق كبير منهم من أصل رفيع معروف . وبجانب هؤلاء كان هناك آلاف من الموالى يمثلون الأيدى العاملة فى الدولة . وقد حمل الموالى لواء العلم فى العراق ، لاعتقادهم أن فى العلم مجالا لاستعادة مجدهم القديم الضائع ، وظهر علماء كثيرون من بين موالى الكوفة والبصرة . وقد عُرف عن موالى العراق أنهم أكثر تدينا من عرب البادية ، فتعصبوا للاسلام وحافظوا على شعائره ، بل بلغت غيرتهم عليه حد الغضب على الخلفاء الأمويين الذين انصرفوا الى اللهو والملذات . فلا عجب أن أدرك المختار هذه الحقائق فقدرها ، ولذا وضع الموالى فى المستوى الاجتماعى اللائق بهم .

---

(١) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ١٣٣ .

أما الرقيق كطبقة اجتماعية ، فقد كانوا يأتون فى المرتبة الرابعة ، وكانوا محرومين من بعض ما يتمتع به أسيادهم [1] . وقد تمسك القرآن بنظام الرق الا أنه مع هذا نصح بحسن معاملة الرقيق وبالعمل على تحريرهم [2] . فقد حبب الاسلام للمسلمين عتق رقيقهم وجعله كفارة عن كثير من الذنوب والآثام [3] . فضلا عما فيه من تقرب لله تعالى . ولكن العتق لم يكن يقطع الصلة بين السيد ورقيقه ، بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى « الولاء » ، فالمعتق مولى للعاتق ، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع الدية عن مولاه اذا ارتكب جناية ، وثانيهما أن يرث السيد معتقه .

كان الرقيق يختلفون اختلافا كبيرا من حيث الأصل والمهن ، ولم يكونوا موزعين بانتظام بين الأفراد والعشائر ، كما أنه لم تكن لهم محلات للسكنى خاصة بهم ، غير أنهم كونوا طبقة خاصة خاضعة لنفس القواعد الاجتماعية والقانونية التى تقيد سلوكهم

---

(١) كان الرقيق يتزوج زوجتين فقط ، والطلاق عندهم طلقتين ، وعدة الأمة شهرين ، ولاتجوز شهادة الرقيق ... الخ .

(٢) قال الرسول : « لايقولن أحدكم لمملوكه عبدى أو أمتى ، ولكن يقول فتاى وفتاتى ، ولايقول المملوك ربى وربتى ، ولكن يقول : سيدى وسيدتى » .

(٣) الذنوب التى جعلت كفارتها عتق الرقيق عديدة منها كفارة القتل الخطأ والكفارة عن الحنث فى اليمين . وقد أعتق المختار بعض رقيقه حين حنث فى يمينه الذى قطعه لوالى ابن الزبير بالعراق (ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٩) .

وتميزهم عن غيرهم . ومما زاد فى تماسك هذه الطبقة وتميزها أن أفرادها كان يفضل تزوجهم من أفراد طبقتهم ، الأمر الذى أدى الى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم . وقد تعلم معظم أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الاسلام ، وبذلك ضاقت الهوة التى كانت تفصلهم عن أسيادهم العرب .

وقد أدرك المختار أن الهوة بين الرقيق والعرب قد ضاقت ، فعمل على انقاذهم وتحريرهم . وأصبح المختار فى العراق ، كما سيكون (أبراهام لنكولن) فى الولايات المتحدة الأمريكية محررا للعبيد . ولم يكن المختار مبتكرا أو مبتدعا ، بل كان يطبق القواعد الاسلامية العادلة [1] . فقد كانت روح الاسلام تنص على حسن معاملة الرقيق ، فمن أحاديث الرسول : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » ، ومنها « اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، وأكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مما لا يطيقون ، فما أحببتم فامسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فانه ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم » . وأباح الاسلام زواج الرقيق ، وأباح للسيد أن يزوج رقيقه لمن يشاء من الأحرار

---

(١) قال تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ، (سورة النساء آية ٢٥) . وقال تعالى أيضا (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ، (سورة النور آية ٣٢) . وقال الرسول : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران» .

والأرقاء ، ولم يبح له التفريق بعد اتمام الزواج لو تزوج العبد بغير اذن سيده [1] ، وأعفى الاسلام الرقيق من الرجم وجعل عقاب جلد الرقيق نصف عقاب الحر .

طبق المختار تعاليم الاسـلام فيما يختص بحقوق الرقيق وواجباتهم . وأمر (المحتسب) أن يلاحظ تطبيق القواعد الاسلامية على معاملة الرقيق [2] . كما شجع المسلمين على تحرير عبيدهم ، وجعل نفسه قدوة لهم فأعتق كثيرا من مواليه الذين كان يحتفظ بهم فى ضيعته قرب الكوفة . وكان يعاقب أعداءه بأن يجعـل رقيقهم أحرارا . والحق المختار الرقيق بعد تحريرهم بجيشه ، وجعل المختار الرقيق شركاء لأسيادهم فى فىء العراق ، أى فى موارده ، فساوى بينهم فى العطاء والأرزاق . وأدت هذه السياسة الى غضب العرب ، وعبر أحدهم وهو شبث بن ربعى عن غضبهم فقال للمختار : « عمدت الى موالينا ، وهى فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا » . وأعلن العرب الثورة على المختار ، وحاربوه ، واضطرهم الى الجلاء عن الكوفة ، فخرجوا الى عدوه مصعب بن الزبير فى البصرة وتقدموا له بالشكوى من المختار فقالوا : « وأطعم موالينا فيئنا وأخـذ عبيدنا فحارب بهم . » [3] .

---

(١) الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ص ٣٧ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

أحسن المختار معاملة الرقيق والموالى فى الكوفة . بينما أساء مصعب بن الزبير معاملتهم فى البصرة . وحدث فى عهد مصعب أن تزوج عبد الله بن أبى كثير مولى بنى مخزوم بالعراق امرأة عربية. ففرق مصعب بينهما (١) . وكان مصعب يستخدم الموالى والرقيق فى جيشه كمشاة ولا يسمح لهم بركوب الخيل ، وكان المختار أول من سمح لهم بركوب الخيل . أما الحجاج فقد هدم نظم المختار ، فكان يستخدم آلافا من الرقيق فى الزراعة ، وكان يقول عن الرقيق : « احمل عبدك على الفرس ، فان هلك هلك ، وان نجا فلك » (٢) . ولذا انضم آلاف من الرقيق الى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج ، واستخدم ابن الأشعث عبارة الحجاج فى اثارة خواطر الرقيق . وكان الرقيق قد تمتعوا فى عهد المختار بالحرية والطمأنينة فأبوا التخلى عما وصلوا اليه .

منح المختار الموالى كثيرا من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ثم كان مصرع المختار وعودة الحكم الأموى الى بلاد العراق . وبدأ الأمويون يسلبون الموالى ما حازوه من حقوق . وبدأ صراع عنيف بين العرب الأمويين وبين موالى العراق ومعظمهم من الفرس . وأدى التنافر بين العرب والفرس فى العصر الأموى الى ظهور الشعوبية التى بدأت تنادى بمساواة العرب بالموالى ، ثم تطورت فى العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب . فزعم الشعوبيون أن أخطب الناس

---

(١) الأصفهانى : ج ٢٤ ص ١١٤ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٤٧ .

الفرس ، وأن الفرس أكثر معرفة من العرب بأمور الحرب [1] . وكان معظم العرب لا يحسنون الكتابة والحساب ، فاعتمدوا على الموالى فى وظائف الدولة . ومن ثم شعر الموالى بأهميتهم وعلو شأنهم ، وأدركوا حاجة الدولة الأموية اليهم فى الحـــرب ، كما شعروا بفضلهم على الأدب والعلم والدين ، وعلى تقدم الزراعة والصناعة والتجارة [2] .

كان للمعاملة الطيبة التى عامل المختار بها الموالى صداها فى كل أرجاء العراق ، فقد تناهى الى أسماعهم ظهور حاكم فى العراق أتصف بالعدل والصلاح ، يساوى بين العرب والموالى فى الحقوق والواجبات ، ويقرّب الموالى اليه ، فيلحقهم بالجيش ، ويوليهم الوظائف والمناصب . وهجر الموالى مدنهم وقراهم ورحلوا الى الكوفة حيث عاشوا فى كنف هذا الحاكم العادل . وهرب الرقيق من أسيادهم العرب ، وخاصة فى البصرة ، وهرعوا الى الكوفة حيث المختار محرر العبيد . وأعد المختار من الموالى والرقيق جيشا كبيرا استطاع الاتصار به على أعدائه [3] .

توالت الأيام ، ولاقى المختار مصرعه ، ولكنه خلّف وراءه مشاكل اجتماعية كان على خلفائه حلها . وورث الحجاج بن يوسف تركة سلفه وقريبه — المختار — فقد رأى الحجاج أن الكوفة

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ .

(٢) Sykes : Histof Persia, V.I, p. 537

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

أصبحت تعجّ بالموالى والرقيق ، وان كان المختار بالأمس يوفر لهم العمل ، فى الجيش ودواوين الحكومة ، فقد أصبحوا بعد مصرعه بدون عمل ، فقد كان من سياسة الأمويين الاستعانة بالعنصر العربى دون الموالى . وتألم الموالى لمصرع المختار على يد الأمويين ، وباتوا يتطلعون للأخذ بثأره منهم ، ومن ممثلهم الحجاج بن يوسف . كما آلمهم ضياع ما منحهم المختار من حقوق وامتيازات .

رأى الحجاج أن هؤلاء الموالى من أنصار المختار عنصر شغب وفتنة يجب ابعاده عن الكوفة ليتوفر له فيها الهدوء والطمأنينة ، ولذا رأى أن يعيد هؤلاء الموالى الذين نزحوا من مدن العراق وقراه الى مواطنهم الأصلية . فجمع الحجاج هؤلاء الموالى بالقوة، ونقش على يد كل مولى منهم اسم بلدته التى سيرغمه على العودة اليها (١) . ولكن بقى فى الكوفة عدد كبير من الموالى ، من أهالى الكوفة وضواحيها ، فأراد الخلاص منهم ، فجندهم فى الجيش بالقوة (٢) ، ودفعهم الى مجاهل فارس وتركستان لفتحها ونشر الاسلام فيها ، وكان غرضه من ذلك — كما يرى المؤرخ سيديو (٣) — أن يشغلهم عن مفاسد السياسة الداخلية . وقد أخفق الحجاج فى الاستعانة بموالى العراق فى القتال ، فاضطر الى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٦ .

(٣) تاريخ العرب العام ص ٧٧ .

الاستعانة بجند الشام وبنى لهم مدينة واسط وأسكنهم فيها حتى لا يختلطوا بأهل العراق [١] .

شعر الحجاج أنه لا يستطيع الحياة فى الكوفة التى شهدت أمجاد المختار ، وقد تشبع موالى الكوفة بحبّ المختار وآرائه . فبنى عاصمة جديدة وهى مدينة واسط . وادعى الحجاج أنه يقصد من بناء هذه العاصمة ألا يرتكب جند الشام ما يزعج أهل الكوفة ، ولكن السبب الحقيقى هو عزلهم عن أهل العراق وخاصة الموالى منهم ، وتركيزهم حوله حتى يصبحوا طوع ارادته لاعتقاده أنه فى أرض معادية [٢] . وكان الحجاج يدقق فى اختيار عناصر سكان مدينة واسط فلم يدخلها أحد الا باذنه [٣] . **على أن هذه** السياسة التى اتبعها الحجاج كانت سببا فى ازدياد شعور العداء فى نفوس أهل العراق والموالى نحو الأمويين وبلاد الشام . وتساءل الحجاج عن سبب كراهيــة الموالى له ، فأخبره أحدهم أنهــم لا يكرهونه لأنه ثقفى أو أموى انما لسياسته فيهم ، فقال له : أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهــم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يبعدهم منك الى ما يقربهم اليك . فقال الحجاج : انى والله ما أرى أن أرد بنى اللكيعة الى طاعتى الا بالسيف [٤] . فقد أبى الحجاج الا المضى فى اضطهاد الموالى أنصار المختار .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٨ .
(٢) Wellhausen : The Arab Kingdom, 249
(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ٨ ص ٣٧٠ .
(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٢ .

أحسن المختار معاملة الفرس وأنعش اللغة الفارسية . وكان معظم موالى العراق ، وخاصة موالى الكوفة ، من أصل فارسى ويتحدثون باللغة الفارسية . أما موالى السواد فكانوا يتحدثون بالسريانية [1] . وقد احتفظ الموالى بهذه الصفات فترة طويلة ، ففى معسكر المختار لم تكن تسمع كلمة عربية واحدة . وتأثرت اللغة العربية باللغة الفارسية اذ اقتبست منها كثيرا من كلماتها ، وكانت عامة أهل العراق تستخف هذه اللغة . وقد استطاع الموالى الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم ، ولكنهم رغم ذلك حرصوا على التسمى بأسماء عربية وخاصة الاسلامية منها ، وان احتفظوا بخصائص الفرس [2] . ودخل الموالى ضمن التنظيم القبلى ، وتأثروا بالعصبية العربية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ويحاربون فى صفوفها [3] .

كانت الغالبية العظمى من جند المختار من الموالى الفرس ، وكان معظم موظفى الدواوين الحكومية منهم أيضا ، وكانت جميع سجلات الحكومة ومراسلاتها باللغة الفارسية . وتولى فارسى أمور بيت مال المختار وديوان خراجه . ولما قتل المختار ، وتولى الحجاج ، رأى أن يتخلص من العناصر الفارسية ويستبدلها بالعناصر العربية ، واقتضى هذا تغييرا جوهريا فى نظم الدواوين الحكومية ، فبدأت سياسة تعريب الدواوين وصبغها بالصبغة

---

(١) ابن النديم . فهرست ج ١ ص ١٩ .
(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ٤٩ .
(٣) ابن خلدون :المقدمة ص ٩٦ .

العربية . وقد استاء الموالى الفرس من هذا التعريب ، وحاولوا أن يرشوا كاتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن الذى كلفه الحجاج بتعريب الدواوين ، ليظهر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك [١] .

أثر المختار فى الحياة الاقتصادية :

قلبت حركة المختار كثيرا من أوضاع الحياة الاقتصادية فى بلاد العراق ، كما خلفت وراءها مشاكل اقتصادية حاول الخلفاء الأمويون حلها دون جدوى ، وكان اخفاقهم من عوامل سقوط الدولة الأموية . فقد عمل المختار على تحسين أوضاع الموالى الاقتصادية فغيّر نظم الخراج والجزية والعطاء ، وشعرت بلاد العراق فى عصره بانتعاش ورخاء اقتصادى نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة وزيادة موارد الموالى الذين يمثلون غالبية سكان بلاد العراق . ولم يكن فى امكان الدولة الأموية بعد أن قضت على المختار واستعادت العراق أن تحتفظ بنظم المختار الاقتصادية فقد كانت تؤدى الى نقص ايرادات بيت مال العراق فى وقت كانت الدولة الأموية فى حاجة الى أموال كثيرة ، وكانت هذه الدولة تعتبر بلاد العراق أبرز الولايات العربية الاسلامية التى تعتمد عليها فى موارد الخزانة العامة فى العاصمة دمشق [٢] . ولذا رأت

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .

(٢) خرج عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير بنفسه ولاستعادة العراق ، وقال : « الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه » . (أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٣٥) .

الدولة الأموية أن تقضى على نظم المختار مما أدىّ الى استمرار ثورات العراقيين وخاصة الموالى .

وقد استطاع المختار أن يزيل أسباب شكوى الموالى ، فعاد الى نظام عمر بن الخطاب فأعفى الموالى ، وهم المسلمون الجدد من غير العرب ، من الجزية والخراج ، كما أعفاهم من تقديم الهدايا فى الأعياد ، واتبع سيرة على بن أبى طالب فى العطاء ، فقد كان علىّ يساوى بين العرب والموالى فى العطاء ، كما منع علىّ الموالى من تقديم الهدايا ، وكان يأمر ولاته بحسن معاملة الموالى [1] . وأشرك المختار الموالى مع العرب فى العطاء ، وجعل المختار ماله وعطاءه لرجل من الموالى [2] .

رفع المختار عطاء الموالى ، أى المرتبات التى يمنحها بيت المال لهم شهريا ، فقد كان عطاء المولى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان خمسة عشر درهما ، فرفعها المختار الى عشرين درهما ، واضطر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعد مصرع المختار أن يبقى عطاء الموالى على ما كان عليه . وطالب الموالى بالمزيد واضطر الخلفاء الأمويون الى زيادة العطاء دائما وباستمرار ، فزاد سليمان ابن عبد الملك عطاء الموالى الى خمسة وعشرين درهما ، ثم أصبح ثلاثين درهما فى عهد هشام بن عبد الملك [3] . وكان عطاء كل جندى من جنود المختار خمسمائة درهم [4] .

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٣ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٠ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٩٥ .

أدت السياسة المالية التى اتبعها المختار الى نقص الايرادات اذ أعفى الموالى من الجـزية والخـراج ، كما أدت الى زيادة المصروفات اذ زاد عطاء الموالى وأرزاقهم ، مما أدّى الى نقص الفائض . فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفى حكم العراق فى خلافة عبد الملك بن مروان بعد مصرع المختار ومصعب بن الزبير، وجد بيت مال العراق خاويا ، فاضطر الى نبذ سياسة المختار المالية والعودة الى سياسة الأمويين المعتادة ، ولكن كان من الصعب اقناع أهل العراق بهذا التغيير .

حاد الحجاج عن سياسة المختار فيما يختص بالخراج والجزية بالنسبة لمن دخلوا حديثا فى الاسلام من غير العرب . ذلك أن أهل البلاد الأصليين كانوا يقيمون بالقرى للزرع والحرث ، فمن اعتنق منهم الاسلام قبل عصر المختار أو فى عهده رفعت الجزية عنه ، وكان بعد اسلامه يهجر القرية التى كان يعمل فيها كزارع ويهرع الى المدن ليلتحق بالجيش الاسلامى ويكتب فى سجل العطاء ، وبديهى أن هذه الأراضى التى كانت تترك لو رحل عنها أصحابها بعد اسلامهم تصبح خاضعة للظروف فقد يستأجرها الغير وقد تترك من غير زراعة ، واذا استأجرها الغير ففى الغالب ما يكون الايجار الجديد أقل من القديم ، فينتج من ذلك قلة ايرادات هذه الأقاليم نتيجة اعتناق أهلها الاسلام .

وقد هال الحجاج هذا النقص الذى أصاب موارد بيت مال العراق تنيجة سياسة المختار المالية ، ففرض الجزية على المسلمين

الجدد ، أى الموالى ، وألزمهم بالعودة الى قراهم[1] . وأعاد وضع الخراج على الأرض التى أسلم أصحابها كما كان قبل اسلامهم . وقال للموالى حينما أمر باعادتهم الى قراهم : « أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم . ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وسيّرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجّهه اليها »[2] .

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة رأى أن يتبع سياسة المختار المالية وأن يحيد عن سياسة الحجاج ، فأمر عمر باعفاء كل من أسلم من الخراج[3] . ولكن عمر لاحظ أن هذه السياسة تضرّ ببيت المال ، فوضع حلا وسطا بين سياسة المختار وسياسة الحجاج ، بأن رفع الخراج عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرّر أن شراء المسلمين وامتلاكهم للأرض بعد هذا التاريخ غير جائز لأن المسلمين حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضا عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد المالية .

أمر المختار باعفاء كل من أسلم من دفع الجزية . ولكن الحجاج أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة . وأعاد

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٣٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٣) أبويوسف : الخراج ص ٤٩ .

الخليفة عمر بن عبد العزيز سيرة المختار فقد أمر برفع الجزية عمن أسلم [1] . ورغم أن سياسة عمر هذه ترفع عن الموالى بعض الظلم والعنت الا أن مشكلة الموالى لم تكن مادية فقط ، فقد كانت لها جوانب كثيرة سياسية واجتماعية ، وكان الموالى يهدفون الى أن يستعيدوا ما كان يتمتعون به فى عصر المختار من حقوق سياسية واجتماعية الى جانب الحقوق الاقتصادية . ويرى (فان فلوتن)[2] أن اصلاحات عمر ناقصة ، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها ، بل أدت الى الفوضى المالية بعد موت عمر .

كان عطاء أهل العراق خلال الحكم الأموى أقل دائما من عطاء أهل الشام لأن حاضرة الدولة فى بلدهم ، حتى كان عصر المختار فرفع عطاء أهالى العراق فأصبح يفوق عطاء أهل الشام . واضطر مصعب بن الزبير بعد قتله المختار أن يحتفظ بنظام المختار فى العطاء . ولكن الحجاج بعد القضاء على مصعب أعاد العطاء الى ما كان عليه قبل عصر المختار ، وأنقص العطاء مائة درهم ، مما أدى الى قيام ثورة عبد الله بن جارود فى البصرة ، فقد ثار محتجا على سياسة الحجاج فى العطاء[3] . واضطر الحجاج أن يعدل عن سياسته حين بدأ يستعد لغزو رتبيل فى سجستان ، فصرف العطاء كاملا كما كان فى أيام المختـــار . ولكن سرعان ما نقص العطاء عندما ثار ابن الأشعث وانضم اليه جميع أنصار

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٥ .
(٢) السيادة العربية ص ٥٨ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ٢١٤ .

المختار [1] . واضطر الخليفة عبد الملك بن مروان أن يعد أهـل العراق خلال ثورة ابن الأشعث بأن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام ، ولكنه لم يبرّ بوعده [2] . بل ان عمر بن عبد العزيز الذى نعرف عنه العدل والمساواة زاد عطاء أهل الشام عشرة دنانير دون أهل العراق [3] .

اهتم الخلفاء والولاة الأمويون بالاقتصاد فى المصروفات حتى يبقى فضل من مال العراق فيحمل الى دمشق عاصمة الدولة ، بينما حرص أهل العراق على أن تصرف جميع ايرادات العراق فى بلدهم . ويذكر الماوردى [4] أنه كان على الوالى « اذا فضل من مال الخراج فاضل عن أرزاق جيشه ، حمله الى الخليفة ليضعه فى بيت المال العام المعد للمصالح العامة » . وكان عمر بن الخطاب يأمر ولاة العراق بحمل فضل مال العراق الى المدينة ليكون عطاء لأهلهم لأنهم شركاء لأهل العـراق فى مالهـم [5] . أما على بن أبى طالب فكان يقسم كل ما فى بيت مال البصرة على أهلها [6] . أما الخلفاء الأمويون فقد أمروا ولاتهم بارسال الفـائض الى دمشق ، فكان معاوية يأمر ولاته باصطفاء الذهب والفضة له [7] .

---

(1) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٦١ .
(2) الطبرى ج ٨ ص ١٥ .
(3) اليعقوبى ج ٣ ص ٤٨ .
(4) الأحكام السلطانية ص ٣٠ .
(5) اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٠ .
(6) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٣ .
(7) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥٨ .

وكان عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز يأمر ولاته بالعراق بانفاذ فضل خراج العراق اليه ، ويأمرهم بالاجتهاد حتى يزداد المال المحوّل الى الحجاز . ثم خاف ابن الزبير على نفوذه بالعراق من المختار فأعلن أنه لن يحمل فضل الفيء الى الحجاز [1] .

اتبع المختار سياسة على بن أبى طالب ، فكان ينفق جميع ايرادات العراق على أهله . فزاد عطاء أهالى العراق ، وخاصة الجنود ، فقد بلغ عطاء الجندى خمسمائة درهم . وشعر العراقيون بفترة رخاء اقتصادى لم يشهدوا مثلها من قبل . وحرص أهل العراق بعد مصرع المختار أن تُنفق موارد بلادهم على مصالحهم دون ارسالها الى دمشق . واضطر الخليفة عبد الملك أن يبعث الى الحجاج ينهاه عن الاستيلاء على فضل مال سواد العراق وأن يبقيه لأهله أموالا احتياطية [2] . وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذى اشتهر بعدله ، ولاته بالعراق برد مظالم بنى أمية فاستجابوا لأمره حتى انه نفذ بيت مال العراق فى سبيل ذلك ، واضطر عمر الى أن يبعث بالأموال من الشام الى العراق [3] .

استعان المختار فى دواوين العراق بموظفين من الموالى الفرس. ولم يكن ذلك حدثا جديدا ، فقد اتخذ زياد بن أبيه والى

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٣ . وصف ابن القرية الشام فى مجلس الحجاج فقال : « عروس بين نسوة جلوس تجلب اليها الأموال » . (الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٢٦) .

(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩ .

معاوية معظم كتابه وجباة أمواله من الموالى [1] واستمر ابنه عبيد الله بن زياد على هذه السياسة . ولما تولى الحجاج حكم العراق بعد مصرع المختار ، وجد دواوين الحكومة وقد امتلأت بالموظفين الفرس ، وكلهم من أنصار المختار ، ورأى الخلاص منهم ، وابدالهم بموظفين من العرب ، وخاصة عرب الشام ، ليطمئن الى اخلاصهم ، فاضطر الى تعريب نظم جميع الدواوين من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ، واستبدال الموظفين الفرس بغيرهم من العرب . وأدت هذه الخطوة الى خطوات آخرى خطيرة ، فقد بدأت سياسة تعريب واسعة المدى ، قاد لواءها الحجاج ، فصبغ النظم الحكومية بالصبغة العربية ، وألغى العـملة النقدية الفارسية وسك عملة جديدة عربية . وكانت بلاد العراق فى عصر الحجاج تـمدّ العالم العربى الاسلامى بحاجته من الدراهم العربية وأبدى الفرس عدم رضائهم عن دراهم الحجاج حتى انها سميت « الدراهم المكروهة » [2] .

* * *

وبعد ، هذه هى سيرة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، البطل العربى ، الذى برز فى ميادين السياسة والحرب والاجتماع والاقتصاد ، ولعب الدور الأول فى تاريخ العصر الأموى ، وضرب للعرب مثلا عليا ، وحرّز الموالى والعبيد ، أرجو أن أكون قد وفيت سيرته ، والله ولى التوفيق .

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٩ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٣ .

المصـــادر :

أولاً : مصادر عربية

ابن آدم (٢٠٣ هـ) : كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٥) .

ابن الأثير (+٦٣٠ هـ) : الكامل فى التاريخ (القاهرة ١٣٠٢ هـ.)

ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة (طبعة المعارف ١٢٨٦ هـ)

أحمد أمين : فجر الاسلام (القاهرة ١٩٥٥)

أحمد شفيق : الرق فى الاسلام (القاهرة)

الأصفهانى (+ ٣٥٢ هـ) : كتاب الأغانى ٢١ جزءا (مطبعـــة التقدم ١٣٢٣ هـ)

ـ مقاتل الطالبيين (القاهرة ١٩٤٦)

الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب (المطبعة الرحمانية١٩٢٤)

البغدادى : (٤٢٩ هـ) الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩٤٨)

البلاذرى : (+ ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان (مطبعة الموســوعات بالقاهرة ١٩٠١)

ـ أنســـاب الأشراف ، الجـــزآن الرابع والخـــامس ، (فلسطين ١٩٣٨) .

البياسى : (٦٥٣ هـ) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٩ تاريخ) .

البيرونى : (+ ٤٤٠ هـ) الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج ١٩٢٣) ٠

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ) كتاب التاج (المطبعة الأميرية ١٩١٤)٠

ـ البيان والتبيين (مطبعة الفتوح بالقاهرة ١٣٣٢ هـ) ٠

ـ رسائل الجاحظ ١١ رسالة (القاهرة ١٣٢٤ هـ) ٠

الجهشيارى : (٥٤٠ هـ) كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة الحلبى ١٩٣٨) ٠

ابن الجوزى : (٥٩٧ هـ) مناقب عمر بن عبد العزيز (ليبزج ١٨٩٩)

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى (مطبعة الهلال ١٩٢٤)

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ) ٠

حسن ابراهيم حسن : الدكتور : تاريخ الاسلام السياسى ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٧) ٠

ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ) : مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية) ٠

ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان (طبعة النهضة القاهرة ١٩٤٨) ٠

الدينورى (٢٧٢ هـ) : الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) ٠

ابن سعد (٢٣٠ هـ) : كتاب الطبقات الكبير (لجنة نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة) ٠

السيوطى (+ ٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ) .

الشهرستانى (٥٤٨ هـ) : الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .

الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ) .

ابن طباطبا (٧٠١ هـ) : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبرى (+ ٢١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١٣٢ تاريخ) .

أبوعبيد : الأموال (المطبعة التجارية ١٣٥٣) .

ابن عبد الحكم : (٢١٤ هـ) سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز (المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٢٧) .

ابن عبد ربه : (٤٣٩ هـ) العقد الفريد (لجنة التاليف بالقاهرة ١٩٤٨) .

عبد الرزاق الموسوى المقرم : الشهيد مسلم بن عقيل (النجف ١٩٥٠) .

ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠) .

ابن العربى (٥٤٣ هـ) العواصم من القواصم (المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ) .

عبد العزيز الدورى : الدكتور : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩) .

ابن عساكر (٥٧١ هـ) تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ)٠
على بن الحسين الهاشمى النجفى : محمد بن الحنفية (طهران ١٣٦٨ هـ) ٠
على حسنى الخربوطلى : الدكتور : فجر القومية العربية فى القرن الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨) ٠
ـ تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩) ٠
ـ القومية العربية من الفجر الى الظهر (الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩) ٠
ـ محمد والقومية العربية (القاهرة،طبعتان ١٩٥٩ و ١٩٦١)
ـ المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة ١٩٦٠) ٠
ـ العرب ورسالتهم الانسانية (دار المعارف القاهرة ١٩٦٠)
ـ الدولة العربية الاسلامية (الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠) ٠
ـ المجتمع العربى فى العصور الوسطى ، ترجمة لكتاب ا٠و٠ لين (الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٠) ٠
ـ حياة محمد ، ترجمة لكتاب و٠ ارفنج (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠) ٠
ـ الحضارة الاسلامية ، ترجمة لكتاب خودانجش (الحلبى ، القاهرة ١٩٦١) ٠
ـ غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٢) ٠

ـ الحضارة العربيةالاسلامية (مكتبة الأنجلو بالقاهرة١٩٦٢)
ـ ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية ٠
ـ المسجد فى فجر الاسلام (مجلة جامعة عين شمس) ٠
ـ مصر العربية الاسلامية (الأنجلو ١٩٦٣) ٠

عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام (بيروت ١٩٤٩) ٠

فخر الدين الرازى (٦٠٦ هـ) : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (لجنة التأليف ١٩٣٨) ٠

أبو الفدا : (٧٣٢ هـ) المختصر فى أخبار البشر (المطبعة الحسينية بالقاهرة) ٠

فيليب حتى : تاريخ العرب (دار العالم العربى ، القاهرة) ٠

ابن قتيبة : (+ ٢٧٦ هـ) الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ)
ـ المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) ٠

ابن كثير : (٧٧٤ هـ) البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) ٠

الكندى (+٣٥٠ هـ) : كتاب الولاه وكتاب القضاة (بيروت ١٩٠٨)

الماوردى (+ ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية (مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ) ٠

محمد جمال الدين سرور : الدكتور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٠) ٠

المسعودى : (+ ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة دار الرجاء بالقاهرة) ٠
ـ التنبيه والاشراف (مكتبة الشرف الاسلامية ١٩٣٨) ٠

الملطى (٣٧٧ هـ) : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (القاهرة ١٩٤٩) ٠

ابن النديم (+٣٨٣ هـ): الفهرست (المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ)
نشوان الحميرى (٥٧٣ هـ) شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين (القاهرة ١٩٤٨) .
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب ١٩٣١) .
ابن هشام : (٢١٨ هـ) كتاب سيرة النبى (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .
اليعقوبى : (٢٨٢ هـ) تاريخ اليعقوبى (النجف ١٣٥٨ هـ) .
أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ) كتاب الخراج (المطبعة الأميرية ١٣٠٢ هـ) .

ثانيا : مصادر إفرنجية مترجمة

أرنولد : الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) .
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت ١٩٤٨) .
جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام (القدس ١٩٢٨).
جولدتسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام (القاهرة ١٩٤٦) .
دوزى : نظرات فى الاسلام (الحلبى ١٩٣٣) .
ديمومبين : النظم الاسلامية (بغداد ١٩٥٢) .
رونلدسن : عقيدة الشيعة (مطبعة السعادة ١٩٤٦) .
سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى (لجنة التأليف ١٩٣٨) .
سيديو : تاريخ العرب العام (الحلبى ١٩٤٨) .
فان‌فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية (القاهرة ١٩٤٥) .
فلهوزن : الخوارج والشيعة (القاهرة ١٩٥٨) .
كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية (دار الفكر العربى بالقاهرة) .
المودودى : نظام الحياة فى الاسلام (دمشق ١٩٥٨) .

ثالثاً : المصادر الافرنجية

Brown : Literary History of Persia (London 1905).

Gibb and Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam (Leiden 1953).

Hell : The Arab Civilization (Lahore 1943).

Kremer : The Orient Under the Caliphs, (Calcotta 1920).

Lammens : L'Islam, Croyances et Institutions (Byrouth 1926).

Lammens : Etutdes sur la Sièc1e des Omyyades (Byrouth 1936)

Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall (London 1924).

Nicholson : Literary History of the Arabs (London 1923).

Noldke : Sketches from Eastern History (London 1892).

Ockly : The History of the Saracens (London 1847).

Quatrmer : Memoire Historique sur la vie d'Abd Allah ben Zobaire (Journal Asiatique 25 érie IX, Avril 1832).

Sykes : History of Persia, (London 1921).

Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall (Calcotta 1927).

فهرس

